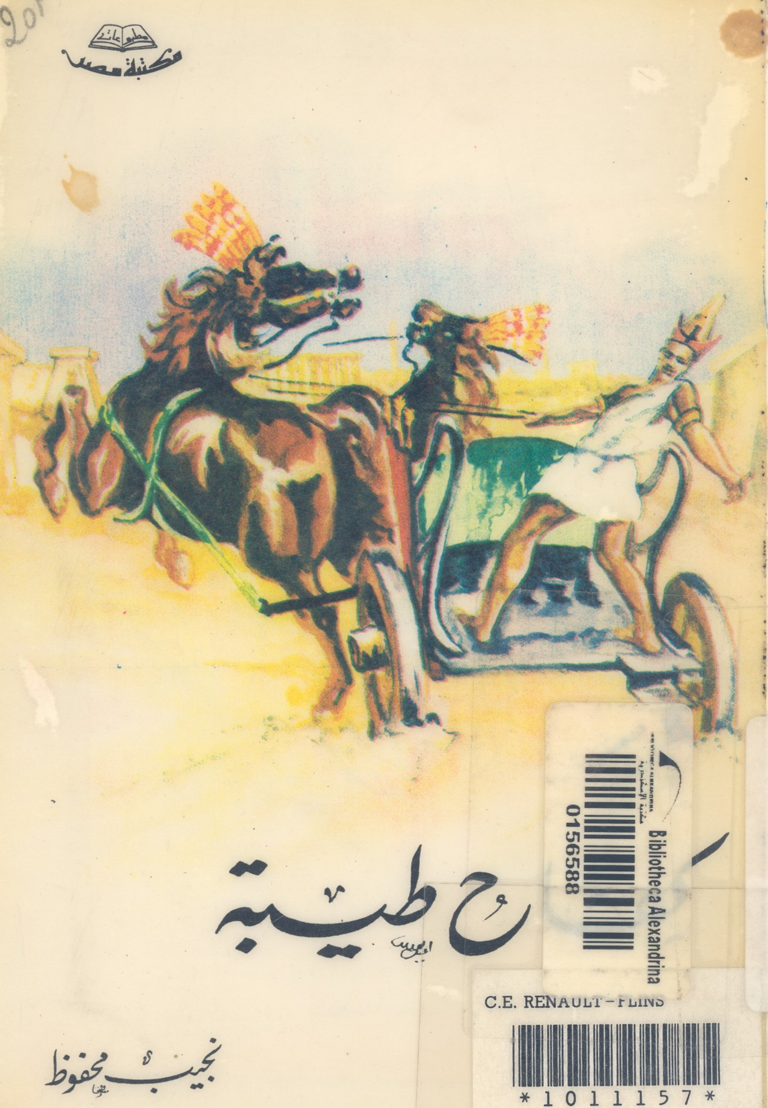
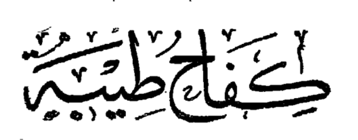
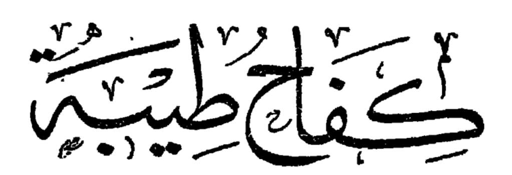

مكتبة مصر
ح طيبة
نجيب محفوظ
Bibliotheca Alexandrina
0156588
C.E. RENAULT – FLINS
1011157


كفاح طيبة

مطبوعات مكتبة مصر



نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جودة السحار وشركاه

سيكننوع

١

كانت السفينة تصعد فى النهر المقدس ، ويشق مقدمها المتوج بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجليلة ، يحث بعضها بعضا منذ القدم كأنها حادثات الدهر فى قافلة الزمان ، بين شـاطئين انتثرت على أديمهما القرى ، وانطلق النخيل جماعات ووحدانا ، وترامت الخضرة شرقا وغربا ، وكانت الشمس تعتلى كبد السماء ترسل أسلاكا من النور اذا غمر النبت رف رفيفا ، واذا مس الماء تلألأ لألاء ، وقد خلا سطح الماء الا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس ــ رمز الشمال ــ بعين التساؤل والانكار .

وكان يتصدر المقصورة رجل بدين قصير القامة ، مستدير الوجه ، طويل اللحية ، أبيض البشرة ، يرتدى معطفا فضفاضا ويقبض بيمناه على عصا غليظة ذات مقبض ذهبى ، جلس بين يديه رجلان فى مثل بدانته وزيه ، تدانى بينهم جميعا روح واحدة ، وكان الســيد يطيل النظر الى الجنوب بعينين مظلمتين أضناهما الملل والتعب ويلقى على من يصادفه من الصيادين نظرة شزراء ، وكأنه برم بالصمت فتحول الى رجليه وتساءل قائلا :

ــ ترى هل ينفخ غدا فى الصور فيتبدد هذا السلام الثقيل المخيم على ربوع الجنوب ، وتفزع هذه الدور المطمئنة ، ويحلق نسر الحرب فى هذا الجو الآمن ؟ .. آه .. ليت هؤلاء الرجال يعلمون أى نذير تحمل هذه السفينة لهم ولسيدهم ..

نهز الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيد وقال احدهما :

ــ لتكن حرب أيها الحاجب الأكبر ، ما دام هذا الرجل الذى ارتضاه مولانا حاكما على الجنوب يأبى الا أن يضع على رأسه تاجا كالملوك ويبنى القصور كالفراعين ، ويسير فى طيبة مرحا لا يبالى شيئا .

فجعل الحاجب يصرف بأنيابه ، وعبث بعصاه فيما بين قدميه بحركة تدل على الحنق والغيظ وقال :

— لا يوجد حاكم مصرى سوى حاكم اقليم طيبة هذا ، فاذا تخلصنا منه خلص لنا حكم مصر الى الأبد ، وبات مولانا الملك على طمأنينة لا يخشى تمرد أحد عليه .

قال ثانى الرجلين بحماس ، وكان لا ييئس أبدا من أن يصير يوما حاكما لمدينة عظمية :

— ان هؤلاء المصريين يكرهوننا ..

فأمن الحاجب الأكبر على رايه وقال بلهجة عنيفة :

— نعم .. نعم .. وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك يظهرون الطاعة ويضمرون الكراهية .. لقد نفدت الحيل ولا حيلة الآن سوى السوط والسيف ..

فابتسم الرجلان اول مرة ، وقال ثانيهما أيضا :

— بورك رأيك ايها الحاجب الحكيم ، فان السوط وسيلة التفاهم التى لا تجدى سواها مع المصريين ..

ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة ، فما يسمع الا وقع المجاديف على سطح الماء ، ثم لاحت من أحدهم التفاتة الى زورق صيد يقف في وسطه فتى مفتول الساعدين ، عارى الجسد الا من وزرة تغطى وسطه ، وقد لفحت الشمس بشرته ، فقال بتعجب :

— كأن هؤلاء الجنوبيين مشتقون من صميم أرضهم ..

فقال الحاجب بسخرية :

— لا تعجب فان من شعرائهم من يتغنى بسمرة اللون ..

— حقا .. ان لونهم ولوننا كالطين والشعاع السنى ..

قال الحاجب :

— حدثنى بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيين فقـــال : انهم على لونهم وعريهم ذوو صلف وكبرياء ، وأنهم يزعمون أنهم منحدرون من أصلاب الآلهة ، وان بلادهم منبت الفراعنة الحقيقيين .. رباه .. انى أعرف الدواء لكل هذا .. لا ينقص الا أن تمتد ذراعنا الى حدود بلادهم .

وما انتهى الحاجب من كلامه حتى سمع أحد رجليه يقول ، وهو يشير بأصبعه الى الشرق :
— انظر .. اترى طيبة ؟ هذه طيبة ! ..

فنظروا جميعا الى حيث يشير الرجل ، فرأوا مدينة كبيرة يحيط بها سور عظيم ، بدت خلفه رءوس المسلات عالية كأنها عمد ترفع القبة السماوية ، ورئيت فى ناحيتها الشمالية جدران معبد آمون الشاهقة ، رب الجنود المعبود . فما وقعت العين فيها الا على مارد عظيم يتعالى الى السماء ، فأخذ الرجال ، وقطب الحاجب الأكبر وتمتم قائلا .
— نعم .. هذه طيبة .. وقد أتيحت لى رؤيتها من قبل .. وما ازداد على الأيام الا رغبة فى أن تعنو الهام لمولانا الملك ، وان ارى موكبه الظافر يشق شوارعها .
فقال أحد الرجلين :
— وأن يعبد بها ربنا ست المعبود ..

وخففت السفينة من سرعتها ، ومضت تدنو من الشاطىء رويدا رويدا مجتازة الحدائق الغن ، التى تنحدر مدرجاتها المعشوشبة حتى تسقى من النهر المقدس . وقد لاحت وراءها قصور طيبة الشم ، وأما غربى الشاطىء الآخر ، فتجثم مدينة الأبدية ، حيث يرقد الخالدون فى الأهرام والمصاطب والمقابر ، تغشاهم جميعا وحشة الموت ..

وتوجهت السفينة الى ميناء طيبة ، تشق سبيلها بين زوارق الصيد والسفن التجارية ، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها ، وصورة اللوتس التى تزين مقدمها ، حتى حاذت الرصيف ، فألقت كلابها الضخم ، وقصد اليها بعض الحراس ، وانتقل اليها ضابط يرتدى فوق وزرته سترة من الكتان الأبيض . وسأل أحد رجالها قائلا :

— من أين انحدرت هذه السفينة ؟ .. وهل تحملون تجارة ؟ ..
فحياه الرجل ، وقال « اتبعنى » واصطحبه الى المقصورة ، حيث أدرك الضابط أنه ماثل بين يدى حاجب كبير من حجاب قصر الشمال ، قصر ملك الرعاة كما يدعونه فى الجنوب ، فانحنى احتراما وأدى التحية العسكرية . ورفع الحاجب يده ليرد التحية فى صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية :
— أنا رسول فرعون ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الرب ست ، مولانا أبو فيس ، الى حاكم طيبة الأمير سيكننرع ، فأرجو أن تبلغ سيدك أنى أنتظر دعوتى الى مقابلته لأؤدى اليه ما حملته من البلاغ .
وأصغى الضابط الى الرسول فى انتباه ثم أدى التحية مرة أخرى ومضى .

٢

ومضت ساعة من الزمان ، ثم جاء السفينة رجل وقور ، يميل الى القصر ، بادىء النحافة ، بارز الجبهة ، فانحنى انحناءة وقور للرسول ، وقال بصوت هادىء النبرات :
— ان الذى يتشرف باستقبالك حور رئيس حجاب قصر الجنوب .
فحنى الرجل رأسه الفخم وقال بصوته الغليظ :
— وأنا خيان كبير حجاب القصر الفرعونى .
فقال حور :
— يسر مولاى أن يستقبلك فى الحال .
فأبدى الرسول حركة وقال : « هلم بنا » . وتقدمه الحاجب حور وتبعه الرجل يسير فى خطا وئيدة ، متوكئا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له الرجلان اجلالا ، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحنق : « أما كان ينبغى لسيكننرع أن يحضر بنفسه لاستقبال

رسول أبو فيس ... ؟ » وضايقه جد المضـــايقة أن يسلك الرجل فى استقباله ســـلوك الملوك . وغادرا السفينة بين صـــفين من الجند والضباط ، ورأى خيان على الشاطىء ركبا ملكيا فى انتظاره تتقدمه عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات آخرى ، وأدى له الجند التحية ، فردها بكبرياء ، وركب عجلته وركب الى جانبه حور ، ثم تحرك الموكب الصغير فى طريقه الى قصر حاكم الجنوب ، وتحركت عينا خيان فى محجريهما ذات اليمين وذات الشـــمال تشاهدان المعـــابد والمسلات والتماثيل والسبل والقصور والأسواق وتيارات القوم التى لا تنقطع من جميع الطبقات : فالعامة بأجســـامهم شـــبه العارية ، والضـــباط بمعاطفهم الأنيقة ، والكهنة بأثوابهم الطويلة ، والسراة بعباءاتهم الفضفاضة ، والنساء بازيائهن الجميلة ، فكأن كل شىء يشهد لعظمة المدينة ، وأنها تنافس منف نفسها عاصمة أبو فيس . وأدرك الرسول أول وهلة أن موكبه يلفت الأنظار بقوة وأن الناس تتجمع على جوانب الطريق لمشـــاهدته ولكن فى برود وجمود ، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وانكار وامتعاض ، فشعر بثورة باطنية وغضب شديد لذاك الإستقبال البارد الذى منى به أبو فيس العظيم فى شخص رسوله ، وساءه أن يبدو غريبا فى طيبة بعد انقضاء مائتى عام على هبوط قومه أرض مصر وتربعهم على عرش ملكها .. وغاظه وأحنقـــه أن يحـــكم قومه مصر مائتى عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس .

ثم بلغ الموكب ميدان القصر ، وكان ميـــدانا فســـيحا مترامى الأركان ، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقر القيادة العليا للجيش ، ويبدو فى مكانه الوسيط القصر الجليل يبهر الأنظار مشهده الرائع ؛ كان قصرا عظيما كقصر منف نفسه ، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره ، ويصـــطفون صفين لدى بابه الكبير ، فلما اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى بنشيد التحية ، وفيما كان الموكب

يقطع أرض الفناء كان خيان يسائل نفسه قائلا : « هل يستقبلنى سيكننرع وعلى راسه التاج الأبيض ؟ » .

انه يعيش عيشة الملوك ويتبع سلوكهم ، ويتخذ لنفسه حكومة كحكوماتهم ، فهل يلبس تاج الجنوب أمامى ؟ . هل يفعل ما أحجم عنه أجداده وما أحجم عنه أبوه نفسه سينكننرع ؟ ... وترجل الرسول عند مدخل ممر الأعمدة الطويل ، ووجد فى استقباله حجاب القصر ورئيس الحرس الفرعونى وكبار الضباط ، فأدوا له التحية جميعا ، وساروا بين يديه الى بهو الاستقبال الفرعونى ، وكانت الردهة المؤدية الى باب البهو مزينة الجانبين بتماثيل أبى الهول ، وفى أركانها يقف ضباط عمالقة من رجال هابو الأشداء . وانحنى الرجال للرسول وأوسعوا له ، فتقدمه الحاجب حور الى داخل البهو وتبعه الرجل ، ورأى فى صدر المكان على مسافة غير قريبة من المدخل عرشا فرعونيا يجلس عليه رجل متوج بتاج الجنوب وبيده الصولجان والعصا المعقوفة ، والى يمين عرشه يجلس رجلان والى شماله رجلان . وبلغ حور العرش يتبعه الرسول فانحنى لمولاه باجلال ، وقال بصوته الرقيق :

— مولاى ، أقدم لذاتكم العالية الحاجب الأكبر خيان رسول الملك أبو فيس .

وانحنى عند ذاك الرسول تحية ، فرد الملك تحيته وأشار اليه فجلس على كرسى أمام العرش ، أما حور فقد وقف الى يمين العرش . وأراد الملك أن يقدم الى الرسول رجال مملكته فأومأ بصولجانه الى الرجل الذى يلى يمينه وقال : « أوسر آمون رئيس الوزراء » ثم أشار الى الذى يليه وقال : « نوفر آمون الكاهن الأكبر لآمون » ثم تحول الى شماله وأومأ الى من يليه قائلا : « كاف قائد الأسطول » وأشار الى من يليه قائلا : « بيبى قائد الجيش » . ولما تم التعارف وجه الملك بصره الى الرسول وقال بصوت تدل نبراته على السمو والرفعة الطبيعيتين :

ـــ نزلت منزلا يرحب بشخصك وبمن أولاك ثقته .

فقال الرسول :

« حفظك الرب أيها الحاكم الجليل ، وانى سعيد باختيارى لمهمة السفارة فى بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخية . . » .

ولم يغب عن سمع الملك قوله : « الحاكم الجليل » ولا فاته مغزاها ، ولكن لم يبد على وجهه أى أثر لما اضطرب فى نفسه ، وكان خيان فى تلك اللحظة يلقى عليه نظرة سريعة فاحصة من عينيه الجاحظتين فرأى الحاكم المصرى رجـــلا مهيبا حقا ، طويل القامة ، مســتطيل الوجه جميله ، شديد السمرة ، يميز ملامحه بروز فى أسنانه العليا ، وقد قدر له الحلقة الرابعة عمرا . وكان الملك يظن أن رسول أبو فيس جاء لما كانت تجىء به بعثات الشمال من أجله ، أى طلب الأحجار والحبوب ، وهو ما كان يعتبره ملوك الرعاة جزية ، ورآه ملوك طيبة رشوة يكفون بها شر الغزاة ، فقال الملك بهدوئه وجلاله :

ـــ يسرنى أن أستمع اليك يا رسول أبو فيس العظيم .

فاعتدل الرسول فى جلسته كأنما يتوثب للنضال وقال بصـــوته الغليظ :

ـــ منذ مائتى عام لا تنقطع رسل الشمال عن ارتياد الجنوب ، وفى كل مرة تعود راضية .

فقال الملك : « أرجو أن تدوم هذه السنة الجميلة » .

فقال خيان : « أيها الحاكم انى أحمل اليك ثلاث رغبات فرعونية : تتعلق الأولى بشخص مولاى فرعون ، والثانية بربه المعبود ست ، والثالثة بروابط المودة بين الشمال والجنوب » .

فألقى اليه الملك بانتباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام ، فاستدرك الرجل قائلا :

ـــ شكا مولاى الملك فى الأيام الأخيرة آلاما مروعة تهز أعصابه فى الليل ، وأصواتا منكرة تصك أذنيه الكريمتين مما أوقعه فريسة للسهاد

والضنى ، وقد دعا اليه أطباءه وقص عليهم ما يلقى بليله فتفحصوه بعناية ، ولكنهم عادوا جميعا من فحصه بالحيرة والجهل ، وكان الملك فى رأيهم جميعاً سليما معافى . ولما يئس مولاى فرغ الى نبى معبد ست ، فأدرك الحكيم داءه ، وقال له : ان مبعث آلامه جميعاً أن خوار أفراس البحر الحبيســـة بالجنوب يتسرب الى قلبه ، وأكد له ألا شـــفاء له الا بقتلها .

وكان الرسول يعلم أن الأفراس الحبيسة فى بركة طيبة مقدسة ، فاختلس نظرة الى وجه الحاكم ليبلو أثر كلامه ، ولكنه وجده جامدا صـــلبا وان تضرج بالاحمرار ، وانتظر أن يعلق الرجل على كلامه ، ولكنه لم ينبس بكلمة وبدا عليه الاصغاء والانتظار ، فقال الرسول :

— وفى أثناء مرض مولاى رأى فيما يرى النائم ربنا المعبود ست يزوره بجلاله ونورانيته ، وعتب عليه قائلا : أيجوز أن يخلو الجنوب كله من معبد يذكر فيه اسمى ؟ . فأقسم مولاى أن يطلب الى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد فى طيبة معبدا لست الى جانب معبد آمون ..

وسكت الرسول ولكن سيكننرع ثابر على الصمت وبدا عليه هذه المرة أنه أخذ على غرة ، وأنه فوجىء بما لم يدر له فى خلد ، ولم يكن خيان ليعنيه كدر الملك ولعله كان مدفوعا برغبة فى اثارته ، وأدرك الحاجب حور خطر المطالب ، فانحنى على أذن مولاه وهمس قائلا : « الأفضل الا يناقش مولاى الرسول الآن » . فهز الملك رأسه دلالة الموافقة وقد أدرك ما يرمى اليه حاجبه ، وظن خيان أن الحاجب يفضى الى مولاه بما يقوله فانتظر قليلا ، ولكن الملك قال :

— أعندك بلاغ آخر تفضى به ؟

فقال خيان :

— أيها الحاكم الجليل ، لقد بلغ مولاى أنك تتوج رأسك بتاج مصر الأبيض ، فراعه ذلك ، ورأى أنه لا يتفق وما يربط الأسرة الفرعونية بأسرتك التليدة من أسباب المودة والصداقة التقليدية .

فقال سيكننرع بدهشة :

— ولكن التاج الأبيض غطاء الرأس لحكام الجنوب .

فقال الرسول بيقين واصرار :

— بل كان تاج الملوك منهم ، ولذلك لم يفكر والدك المجيد فى لبسه ، لأنه كان يعلم انه لا يوجد سوى ملك واحد فى هذا الوادى يحق له التتويج ، وأرجو ايها الحاكم الجليل الا يغيب عنك ما تدل عليه ملاحظة مولاى من رغبة صـــادقة فى توثيق الأواصر الطيبة بين أسرتى منف وطيبة ...

وسكت خيان ، فساد الصمت مرة أخرى ، وكان سيكننرع غارقا فى تأملات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التى تهاجم موطن الايمان من قلبه وموضع العزة من نفسه ، وبدا أثر ذلك فى امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته . وكان يقدر نصيحة حور فلم يرتجل جواباً وقال بصـــوت محتفظ بالرغم من كل شىء بهدوئه .

— ايها الرسول ان رسالتك تنطوى على خطب خطير يمس عقيدتنا وتقاليدنا ، لذلك أرى أن أكاشفك برأيى فيها غدا .

فقال خيان :

— خير الرأى ما سبقته المشورة .

فالتفت سيكننرع الى الحاجب حور وقال :

— تقدم الرسول الى الجناح المعد له .

فقام الرسول بجسمه القصير الضخم ، وانحنى تحية ، ثم ذهب يسير فى خيلاء وعظمة .

٣

وأرسل الملك فى طلب ولى عهده الأمير كاموس ، وجاء الأمير على عجل دل على رغبته فى معرفة رسالة حاجب أبو فيس . وحيا الملك فى اجلال واتخذ مكانه الى يمينه ، والتفت اليه الملك وقال :

ــ لقد أرسلت فى طلبك أيها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال ، لترى فيه معنا رايك ، وان الأمر لجد خطير فأصغ الى ...

ثم روى الملك لولى عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبين ، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد بدا على محياه الحسن الذى يشبه اباه فى لون بشرته وقسماته وبروز أسنانه العليا ، ثم أدار الملك عينيه فى الحاضرين ، وقال :

ــ فها أنتم أولاء أيها السادة ترون أنه لكى نرضى أبو فيس ينبغى ان نخلع هذا التاج ، ونذبح أفراس البحر المقدسة ، ونشيد معبداً لست يعبد فيه الى جانب معبد آمون ، فأشيروا على بما يجب عمله .

وكان الاستياء البادى على وجوههم جميعاً يدل على ما يعتلج فى صدورهم من الهم ، وكان الحاجب حور أول المتكلمين ، فقال :

ــ مولاى ، ان الذى أنكره أكثر من هذه الرغبات نفسها هو الروح الذى املاها ، فهو روح سيد يملى على عبده ، وملك يتجنى على شعبه ، وما أراها الا صورة متجددة لذاك النزاع القديم بين طيبة ومنف ، هذه تسعى لاستعباد تلك ، وتلك تتشبث باستقلالها ما وسعتها الحيلة ، وما من شك فى أنه يسوء الرعاة وملكهم أن تظل مملكة طيبة مغلقة الأبواب دون حكامهم ، ولعلهم لا يقتنعون بما يدعون من أن هذه المملكة ولاية مستقلة تابعة لتاجهم ، فأرادوا أن يبطلوا مظاهر استقلالها ، ويتحكموا فى عقدتها ، فيسهل عليهم بعد ذلك تدميرها .

وكان حور فى القائه قويا صريحا ، فذكر الملك تاريخ تحرش ملوك الرعاة بحكام طيبة ، وكيف كان هؤلاء يدفعون شرهم بالرد الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكى يحفظوا الجنوب من توغلهم وشرهم ، وكان لأسرته فى هذا السبيل فضل وأى فضل ، حتى استطاع والده سينكنرع أن يدرب قوات عظيمة سرا ليصون بها استقلال مملكته اذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء فى صونه ... ثم قال القائد كاف :

— مولاى ... أرى أنه لا يجوز التسليم بأى مطلب من هذه المطالب ... كيف نرضى بأن يخلع مولانا تاجه من على رأسه ؟ ... كيف نقتل الأفراس المقدسة ارضاء لعدو أذل قومنا ! ... وكيف نشيد معبدا لرب الشر الذى يعبده أولئك الرعاة ؟ .

وقال الكاهن الأكبر نوفر آمون :

— مولاى ... ان الرب آمون لا يرضى أن يشيد الى جانب معبده معبد لاله الشر ست ، ولا أن ترتوى أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدسة ، ولا أن ينزل حامى مملكته عن تاجه وهو أول حاكم للجنوب توج به رأسه بأمره ... كلا يا مولاى ان آمون لا يرضى بذلك أبدا ، وانه لينتظر من يخرج على رأس جيش من أبنائه لتحرير الشمال ، وتحقيق وحدة الوطن ، فيعود كما كان فى عهود الملوك السالفين ..

فجرى الحماس فى عروق القائد بيبى مجرى الدماء ، ووقف بقامته الفارعة ومنكبيه العريضين ، ثم قال بصوته الجهورى :

— مولاى ؛ صدق رجالنا العظام فيما قالوا ، وانى لعلى يقين من أنه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذل والخضوع . وهل من دليل وراء أن يطالب ذلك الهمجى الهابط وادينا من أقاصى الصحارى الماحلة الى مليكنا أن يخلع تاجه ويعبد رب الشر ويذبح الأفراس المقدسة ؟ ... لقد كان الرعاة فيما مضى يطلبون أموالا فلم نبخل عليهم بأموالنا . أما الآن فانهم يطمعون فى حريتنا وشرفنا ، ودون ذلك يهون علينا الموت ويطيب ، ان قومنا فى الشمال

عبيد يحرثون الارض ويحترقون بألسنة السـياط ، ونحن نرجو أن نخلصهم يوما مما يعانون من عذاب لا أن نمضى بارادتنا الى مثـل مصيرهم التاعس .

لازم الملك الصمت ، وكان يصغى باهتمام ويكتم عواطفه بالنظر الى أسفل . وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم يتمكن ، وكانت ميوله مع القائد بيبى فقال بعنف :

— مولاى ... ان أبو فيس ينظر بجشع الى عزتنا القومية ، ويأبى الا ان يذل الجنوب كما أذل الشمال ، ولكن الجنوب الذى لم يرض المذلة وعدوه فى أوج قوته لن يرضاها الآن ... فمن يقول اننا نفرط فيما اشتد أسلافنا فى صونه ورعايته ؟ ..

وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم الى الاعتدال ، وكانت سياسته موجهة دائما الى تفادى غضب الرعاة أو التعرض لقواتهم الهمجية لكى يتفرغ الى انماء ثروة الجنوب واستثمار موارد النوبة والصحراء الشرقية وتدريب جيش قوى لا يغلب ، وقد خشى مغبة اندفاع ولى العهد وقائد الجيش ، فقال موجها كلامه الى رجال المملكة :

— اذكروا يا سادة أن الرعاة قوم نهب وسلب . ولئن حكموا مصر مائتى عام فهم لا يزالون يخطف أبصارهم الذهب ، ويستذل نفوسهم ويشغل هممهم عن شريف المقاصد .

فهز القائد بيبى رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال :

— يا صاحب العظمة ، لقد عاصرنا القوم عهـدا كافيا لنعرف نفوسهم ، فهم أناس اذا رغبوا فى شىء طلبوه بلسان صريح دون التوسط اليه بالحيلة والمداراة وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل اليهم ، أما اليوم فهم يطلبون حريتنا ...

فقال الوزير :

— ينبغى التريث الآن حتى يكمل جيشنا .

فقال القائد :

— ان جيشنا بحالته الراهنة قادر على صد العدو .

ونظر الأمير كاموس الى أبيه فوجده ما يزال يطرق الى اسفل فقال بحماس :

— ما جدوى الكلام ؟ ... قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض المعدات ، ولكن أبو فيس لا ينتظر حتى تستكمل عدتنا ، وهو يعرض علينا مطالب لو ارتضيناها حكمنا على أنفسنا بالانهيار والزوال ، وليس فى الجنوب رجل واحد يفضل التسليم على الموت ، فلنرفض هذه المطالب باباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك الرعاة ذوى اللحى المسترسلة والبشرة البيضاء التى لم تطهرها الشمس ..

وتأثر القوم بحماس الأمير الشاب ، وبدا على وجوههم التحفز والغضب وكأنما سئموا الكلام ورغبوا فى اتخاذ قرار حاسم ، ورفع الملك رأسه ورنا الى ولى عهده ، وسأل بلهجته الجليلة السامية قائلا :

— أترى أن نرفض مطالب أبو فيس أيها الأمير ؟

فقال كاموس بثقة وعنف :

— بكل حزم واباء يا مولاى .

— واذا جر الرفض الى الحرب ؟

فقال كاموس : « نحارب يا مولاى .. » .

وقال القائد بيبى بحماس لا يقل عن حماس الأمير :

— نحارب حتى نصد العدو عن حدودنا ، واذا شاء مولانا حاربنا حتى نحرر الشمال ونجلى عن أرض النيل آخر رجل من الرعاة البيض ذوى اللحى الطويلة القذرة .

فالتفت الملك الى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله :

— وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى ؟

فقال الشيخ الوقور :

— أرى يا مولاى أن من يحاول اطفاء هذه الجذوة المقدسة كافر ..

فابتسم الملك سيكننرع راضـــيا ، وتحول الى وزيره أوسر آمون قائلا : « ولم يبق الا أنت أيها الوزير » .

فبادر الرجل يقول :

ـ مولاى ، لم أنصح بالتريث كراهية فى الحرب أو خوفا منها ، ولكن لنستكمل الجيش الذى أرجو أن يحقق غاية أسرة مولاى المجيدة ، وهى تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة الحديدية ، وأما اذا كان أبو فيس يطمع حقا فى حريتنا فأنا أول من يدعو الى الحرب .

فنظر سيكننرع فى وجوه رجاله ، وقال بصــوت دل على العــزم والقوة :

ـ يا رجال الجنوب انى أشرككم فى عواطفكم ، وأعتقد أن أبو فيس يتحرش بنا ويطمع فى أن يحكمنا بالخوف أو بالحـــرب ، ونحن قوم لا نذعن للخوف ونرحب بالحرب . ان الشمال فريســـة الرعاة منذ مائتى عام ، امتصوا خير أرضه وأذلوا رجاله . أما الجنوب فانه يكافح منذ مائتى عام غير غافل عن غايته العليا وهى تحرير الوادى جميعه ، فهل ينكص على عقبيه لأول تهديد ، ويفرط فى حقه ، ويلقى بحريته وديعة بين يدى الطامع النهم ؟ .. كلا يا رجال الجنوب ، سأرفض مطالب أبو فيس المهينـــة ، وأنتظر ما يرد به علينا ان سلما فســـلم وان حربا فحرب ..

وقام الملك واقفا ، فقام الرجال قومة واحدة وانحنوا اجلالا ، ثم غادر البهو على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر ..

٤

وتوجه الملك الى جناح الملكة أحوتبى ، وأدركت المرأة حين رأته يقبل عليها فى لباســـه الرسمى أن رسول الشمال جاء بأمر جلل ، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل وقامت واقفة تلقاه بقامتها الطويلة الرشيقة ، ورفعت اليه عينين متسائلتين فقال لها بهدوء :

ــ أحوتبى .. يبدو لى أن الحرب تطبق علينا مع الأفق ..

فقلقت عيناها السوداوان وتمتمت قائلة بدهشة : « أتقول الحرب يا مولاى ؟ » .

فحنى رأسه دلالة الايجاب ، وقص عليها ما قال الرسول خيان ، ورأى رجاله فيـــه ، وما اســـتقر عليه عزمه ، وكان يحدثها وعيناه لا تتحولان عن وجهها فقرأ فى صفحته ما اضطرم فى نفسها من الاشفاق والأمل والاستسلام .

وقالت له : لقد اخترت السبيل التي ينبغى لمثلك أن يختارها .

فابتسم وربت كتفها ، ثم قال لها « هيا بنا الى أمنا المقدسة » . ثم سارا معا جنبا الى جنب الى جناح الملكة الوالدة توتيشيرى زوج الملك السابق سينكننرع ، وكانت فى حجرة خلوتها تطالع كعادتها ..

كانت الملكة توتيشيرى فى الستين من عمرها تبدو على محيـــاها آى النبل والمجد والمهابة ، وكانت « حيويتها » دفاقة فغلب نشاطها الكبر، ، ولم يعترها من آثاره ســـوى شعيرات بيض تكلل فوديها ، وذبول خفيف يعلو خديها ، وظلت عيناها على صفائهما وجسمها على فتنته ورشاقته ، وشاركت جميع أفراد اسرة طيبة فى بروز أسنانها العليا ، ذلك البروز الذى افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافة ، وقد تخلت الملكة على اثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضى القانون ، تاركة مقاليد طيبة لابنها وزوجه ، ولكنها ظلت الرأى الذى يرجع اليه فى

الممات ، والقلب الذى يلهم الأمل والكفاح ؛ وقد أقبلت فى فراغها على القراءة ، وكانت تديم المطـــالعة فى كتب خوفو وقاقمنا وكتب الموتى وتاريخ العهود المجيدة التى خلدها أمثـــال مينا وخوفو وأمنحيت ، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة فى الجنوب جميعه ، فما من رجل أو امرأة الا يعرفها ويحبها ويقسم باسمها المحبوب ، وذلك أنها بثت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكننرع وحفيـــدها كاموس حب مصر جنوبها وشمالها وكراهية الرعاة المغتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام ، ولقنت الجميع أن غايتهم السامية التى يجب أن يعدوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة المستبدين ، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدرسى المدارس أن يذكروا الناس دائما بالشمال المغتصب والعدو الغاصب ، وما ارتكبه من آثام أذل بها القوم واســـتعبدهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتها وهبط بهم الى مستوى البهائم التى تعمل فى الحقول ، فاذا كان فى الجنوب جذوة نار مقدسة تلهب القلوب وتحيى الآمال فالفضل فى اذكائها لوطنيتها وحكمتها ، ولذلك قدسها الجنوب جميعه ودعاها الناس الأم المقدسة توتيشيرى ؛ كما يدعو المؤمنون الربة ايزيس ، وعاذوا باسمها من شر اليأس والهزيمة .

هذه هى الأم التى قصدها سيكننرع وأحوتبى ؛ وكانت هى تتوقع تلك الزيارة بعد أن علمت بقدوم رسول ملك الرعاة ؛ وذكرت الرسل الذين كان يبعث بهم ملوك الرعاة الى زوجها الراحل فى طلب الذهب والغلال والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبوع .. وكان زوجها يبعث بالسفن محملة ليتقى قوة القوم الهمجية ، ويضاعف نشاطه الخفى فى تكوين الجيش الذى كان أعز ما أورثه سيكننرع ابنه وخلفه . ذكرت ذلك وهى تنتظر الملك فلما جاء وزوجه بسطت لهما ذراعيها النحيلتين فقبلا يديها ، وجلس الملك الى يمينها والملكة الى شمالها ، فسألت ابنها وهى تبتسم ابتسامة رقيقة :

ــ ماذا يريد أبو فيس ؟ ...

فقال بلهجة تنطوى على الحنق :

ــ يريد يا أماه طيبة وما عليها جميعا . بل ما هو أجل من هذا ؛ انه يساومنا هذه المرة على شرفنا .

فرددت رأسها بين الملكين وقد روعت وقالت بصــوت احتفظ بهدوئه على الرغم من كل شىء :

ــ كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب ..

فقالت الملكة أحوتبى :

ــ أما هو يا أماه فانه يريد منا أن نقتل أفراس البحر التى يقلق صوتها رقاده ، وأن نشيد معبدا لربه ست الى جانب معبد آمون ، وأن يخلع مولانا التاج الأبيض .

ووافق سيكننرع على قول أحوتبى ، وقص على أمه نبأ الرسول ورسالته .

فبدا الانكار على وجهها الجليل ، ودل التواء شفتيها على الامتعاض والسخط وسألت الملك قائلة :

ــ وبماذا أجبته يا بنى ؟ ..

ــ لم أبلغه جوابى بعد ..

ــ وهل انتهيت الى رأى ؟ ..

ــ نعم .. أن أنبذ مطالبه جميعا ..

ــ ان من يطلب هذه المطالب لا يسكت على رفضها !

ــ ومن يقدر على رفضها جميعا لا يخشى عواقب رفضه ..

ــ فاذا شهر عليك حربا ؟

ــ شننت عليه حربا بحرب ..

ورنت الحرب فى أذنيها رنينا عجيبا أيقظ بقلبها ذكريات قديمة ، وذكرت أياما مثل هذه حين كان زوجها يضيق صدره ويشكو اليها بثه وهمه ويتمنى لو كان يملك جيشــا قويا يدفع به طمع عدوه ،

أما ابنها فيتكلم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة ، فقد تغير الزمن وتجدد الأمل ، واختلست من وجه الملكة نظرة فوجدته شــاحبا ، فأدركت أنها تكابد حيرة وأن أمل الملكة واشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة .. وهى نفسها ملكة وأم ولكنها لا تستطيع أن تقول الا ما ينبغى لمعلمة القوم وأمهم المقدسة أن تقوله . وقد سألته : « وهل تقدر على الحرب يا مولاى ؟ » فقال بثبات :

ـــ نعم يا أماه .. لدى جيش باسل .

ـــ هل يستطيع هذا الجيش أن يخلص مصر من الأغلال ؟

ـــ يستطيع على الأقل أن يصد عن مملكة الجنوب عدوان الرعاة ..

ثم هز منكبيه استهانة وقال بحنق وغيظ :

ـــ أماه طالما دارينا أولئك الرعاة عاما بعد عام فلم تفلح المداراة فى اسكات جشعهم ، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع والجشع ، وقد حم القضاء وأرى أن الشجاعة أولى بنا من المطاولة والمداراة . سأخطو هذه الخطوة وأنظر ما بعدها .

فابتسمت توتيشيرى وقالت بفخار :

ـــ فليبارك آمون هذه النفس الأبية العالية .

ـــ فماذا تقولين يا أماه ؟

ـــ أقول يا بنى : سر فى طريقك يرعاك الرب وتباركك دعواتى ، هذه غايتنا وهذا ما ينبغى للفتى الذى اختاره آمون ليحقق آمال طيبة الخالدة .

وابتهج سيكننرع وتألق بالنور وجهه ، وهوى على رأس توتيشيرى يقبل جبينها ، وقبلت خده الأيسر ، وقبلت خد أحوتبى الأيمن وباركتهما معا ، فعادا من لدنها سعيدين مغتبطين ..

وأعلن الرسول خيان أن سيكننرع سيستقبله غداة غد ، وفى الموعد المحدد ذهب الملك الى بهو الاستقبال يتبعه كبير حجابه ، وهناك وجد فى انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائدى الجيش والأسطول فقاموا لاستقباله وانحنوا بين يديه ، وجلس على العرش وأذن لهم فى الجلوس ، ثم صاح حاجب الباب معلنا وصول الرسول خيان ، ودخل الرجل بجسمه البدين القصير ولحيته الطويلة يمشى مشية الخيلاء ، وكان يسائل نفسه : ترى ماذا وراء الشورى ؟ . اسلام أم حرب ؟.. ثم بلغ العرش فانحنى تحية للجالس عليه ، ورد عليه الملك التحية وأذن له فى الجلوس وهو يقول :

ــ عسى أن تكون قضيت ليلة سعيدة .

ــ كانت ليلة سعيدة ، شكرا لضيافتك الكريمة .

ولاحت منه التفاتة الي رأس الملك فرأى تاج مصر الأبيض يعلوه ، فانقبض صدره واحتدم الغيظ فى قلبه ، وكبر عليه أن يتحداه كذلك حاكم الجنوب ، وكان الملك لا يحرص من جهته على مجاملة الرسول لأنه كان لا يجهل ما يعنيه رفضه للمطالب ، فأراد أن يقول رأيه صريحا حازما قاسيا فقال :

ــ أيها الرسول خيان : لقد درست المطالب التى تحملها الينا بعناية ، وشاورت فيها رجال مملكتى ، فاتفق رأينا جميعا على رفضها .

ولم يكن خيان يتوقع هذا الرفض الصريح الحاسم ، فأخذ واستولى عليه الذهول ، ونظر الى سيكننرع باستغراب وانكار وقد صار وجهه كالجمان ، واستدرك الملك قائلا :

ــ لقد وجدت هذه المطالب تمس عقيدتنا وشرفنا ، ونحن لا نسمح لأى انسان أن يمس العقيدة والشرف منا .

وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنه لم يسمع ما قال الملك :

— اذا سألنى مولاى : لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبدا لست ، فماذا أقول له ؟

— قل له ان أهل الجنوب يعبدون آمون وحده ..

— واذا سألنى : لماذا لا يقتلون أفراس البحر التى تقض مضجعى .. ؟

— قل له ان أهل الجنوب يقدسونها ..

— يا عجبا .. أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس البحر ؟ ..

فأطرق سيكننرع مليا كأنه يفكر فى الجواب ، ثم قال بلهجة حازمة :

— ان أبو فيس مقدس لديكم ، وهذه الأفراس مقدسة لدينا .

وسرت موجة ارتياح فى نفوس رجال الملك لهذا الجواب العنيف ، أما خيان فقد اشتد به الغضب ولكنه لم يستسلم لسلطانه ، وكبح جماح نفسه وقال بهدوء :

— أيها الحاكم الجليل ، كان أبوك حاكما على الجنوب ولم يكن يلبس هذا التاج ، فهل ترى لنفسك حقا غير ما كان يرى أبوك لنفسه ؟

— لقد ورثت عنه الجنوب وهذا تاجه منذ القدم ، ومن حقى أن أتوج به رأسى .

— ولكن فى منف رجل آخر يتوج رأسه بتاج مصر المزدوج ، ويسمى نفسه فرعون مصر ، فماذا ترى فيما يدعيه لنفسه ؟ ...

— أرى أنه اغتصب وأسلافه المملكة ...

ونفد صبر خيان فقال بحنق واحتقار :

— أيها الحاكم ، لا تظن أن لبسك التاج يرفعك الى مصاف الملوك ، فالملك من بعد ومن قبل قوة وسلطان ، ولست أرى فى أقوالك الا استهانة بالوشائج الطيبة التى ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا ، ونزوعا الى التحدى لا تؤمن عواقبه .

فتبدى الغضب على وجوه الحاشية ، ولكن الملك حافظ على هدوئه وقال مسترسلا :

— أيها الرسول نحن لا نعجل بالشر ، ولكن اذا تحرش بشرفنا متحرش ؛ لا ننكص على أعقابنا ولا نؤثر السلامة ، ومن فضائلنا الا نغالى فى تقدير قوتنا فلا تنتظر أن تسمع منى مباهاة وفخراً . ولكن اعلم أن آبائى وأجدادى حافظوا ما وسعهم الجهد على استقلال هذه المملكة . ولن أفرط أنا فيما عاهدوا الرب والناس على المحافظة عليه ...

فعلت شفتى خيان الحادتين ابتسامة ساخرة تخفى حقدا مرا . وقال بلهجة ذات مغزى :

— كما تشاء أيها الحاكم وما على الا البلاغ ، وستتحمل تبعة أقوالك .

فحنى الملك رأسه ولم يتكلم . ثم قام واقفا مؤذنا بانتهاء المجلس ، فوقف الجميع اجلالا حتى غيبه الباب عن أنظارهم ..

٦

وكان الملك يقدر خطر الحال ، فأراد أن يزور معبد آمون . ليدعو الرب المعبود ويعلن الكفاح فى الفناء المقدس ، وأعلن ارادته لوزيره ورجاله ، فقصدت جموعهم من وزراء وقواد وحجاب وكبار موظفين الى معبد آمون لتكون فى استقبال الملك . وتنبهت طيبة الغافلة الى ما يدور وراء جدران قصورها الشم : وتهامس كثيرون بأن رسول الشمال جاء متعاليا وآب غاضبا . وذاع بين الطيبيين أن سيكننرع سيزور معبد آمون ليستلهمه الرأى ويسأله المعونة ، فذهبت جموع غفيرة من الرجال والنساء الى المعبد ، وانضم اليهم خلق كثيرون أحاطوا بالمعبد ، وتدافعوا الى السبل المؤدية اليه ، وكان يبدو على

وجوههم الجد والاهتمام والتطلع ، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم الحديث كل يفسر الأمر على ما يرى ، وجاء الركب الفرعونى تتقدمه كوكبة من الحرس تتبعها عجلة الملك وعربات أخرى تحمل الملكة والأمراء والأميرات من البيت الملكى ، فسرت فى نفوس القوم موجة من الحماس والفرح ، ولوحوا لمليكهم بأيديهم وهللوا له وكبروا ، فابتسم سيكننرع اليهم ولوح لهم بصولجانه ، ولم يغب عن أحد ان الملك يرتدى لباس الحرب ذا الدرع اللامعة ، فاشتد تشوف الناس الى سماع الأخبار ، ودخل الملك فناء المعبد يسير وراءه آله نساء ورجالا ، فاستقبلهم كهنة المعبد والوزراء والقواد بالسجود ، وهتف نوفر آمون بصوت مرتفع قائلا : « أدام الرب حياة الملك وحفظ مملكة طيبة » ، ورد القوم هتافه بحماس واعادوا ترديده ، فحياه الملك برفع يده الى راسه وابتسامة من فمه العريض ، ثم تقدم الجمع بأسره الى بهو المذبح ، وقدم الجنود ثورا ذبيحا للرب ، ثم طافوا جميعا بالمذبح وبهو الأعمدة ، وهناك وقفوا صفين ، وأعطى الملك صولجانه لولى عهده الأمير كاموس وسار الى السلم المقدس فارتقاه الى قدس الأقداس ، واجتاز العتبة المقدسة بخطى خاشعة ، وأغلق وراءه الباب فكأنما أدركه الغسق ، وحنى راسه.وخلع تاجه اجلالا للمكان المطهر ، وتقدم نحو المحراب الثاوى فيه الرب المعبود بساقين متخاذلتين من الهيبة ، ثم سجد عند قدميه ولثمهما وسكن لحظة ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة وقال بصوت خافت كأنه النجوى :

— أيها الرب المعبود ، رب طيبة المجيدة ، ورب أرباب النيل ، هبنى من لدنك رحمة وقوة ، فانى اليوم أتعرض لتبعة خطيرة ان لم تشدد فيها أزرى عييت دونها . هى الدفاع عن طيبة وقتال عدوك وعدونا الذى سقط علينا من صحراء الشمال فى جموع همجية خربت ديارنا وأذلت أعناق قومنا وأغلقت أبواب معابدك واغتصبت عرشنا ، هبنى معونتك أصد جيوشهم وأطارد فلولهم وأطهر الوادى من قوتهم الغاشمة فلا يحكمه الا أبناؤك السمر ولا يذكر فيه الا اسمك .

وسكت الملك ، وانتظر برهة ، ثم استغرق مرة أخرى فى صلاة طويلة حارة مسندا جبينه الى قدمى التمثال ، ثم رفع رأسه فى وجل حتى بصر بالوجه النبيل المعبود يكتنفه الجلال والصمت كأنه ستار الغد يخبىء وراءه أحداث القضاء .

***

وطلع الملك على قومه وقد وضع التاج الأبيض على جبينه المتفصد بالعرق فسجدوا له جميعا ، وتقدم منه الأمير كاموس بصولجانه فأخذه بيمناه وقال بصوت جهورى :

— يا رجال طيبة المجيدة ، لعل عدونا فى هذه الساعة التى أحدثكم فيها يحشد جيشه على حدود مملكتنا ليقتحم علينا ديارنا ، فهلموا جميعا الى الكفاح ، وليكن شعار كل واحد منكم أن يبذل قصارى جهده فى عمله ، كى يقوى جيشنا على الثبات والقتال ، ولقد صليت للرب وسألته العون ، وليس الرب بناس وطنه وأبناءه ..

فصاح الجميع بصوت اهتزت له جدران المعبد : « أيد الرب مليكنا سيكننرع .. » وهم الملك بالمسير فدنا منه كاهن آمون وقال :

— هل لمولاى أن ينتظر قليلا لأقدم اليه هدية مقدسة .. ؟

فقال الملك مبتسما : « كما تشاء يا صاحب القداسة .. » .

وأشار الكاهن الى كاهنين اشارة خاصة ، فمضيا الى حجرة المخلفات ، وعادا يحملان صندوقا صغيرا من الذهب تطلعت اليه الأبصار جميعا ، واقترب منهما نوفر آمون وفتح الصندوق فى أناة ورفق ، فرأت الأعين بداخله تاجا فرعونيا ، تاج مصر المزدوج ، فاتسعت الأعين دهشة وتبودلت النظرات ، وحنى نوفر آمون هامته لمولاه وقال بصوت متهدج :

— مولاى هذا تاج الملك تيمايوس ...

فتصايح قوم قائلين : « تاج الملك تيمايوس ... » فقال نوفر آمون بحماس وقوة :

— « نعم يا مولاى ، هذا تاج تيمايوس آخر فرعون حكم مصر المتحدة وبلاد النوبة قبل غزو الرعاة لوطننا . وقد شاءت حكمة الرب أن تحل نقمته ببلادنا فى عهده ، فسقط هذا التاج الكريم عن رأسه بعد أن ابلي فى الدفاع أشد البلاء ، ففقد العرش وصاحبه واحتفظ بشرفه ، لذلك رفعه أسلافنا الى هذا المعبد ليأخذ مكانة بين المخلفات المقدسة ، ولقد مات صاحبه بطلا شهيدا فهو جدير برأسك الكبير : وانى أتوجك به أيها الملك سيكننرع ، يا ابن توتيشيرى الأم المقدسة ، وأنادى بك ملكا على مصر العليا والسفلى وبلاد النوبة ، وادعوك باسم الرب آمون وذكرى تيمايوس وأهل الجنوب أن تنفر الى قتال عدوك وتحرير وادى النيل الطاهر المحبوب .. » .

ودنا الكاهن الاكبر من الملك وخلع عن رأسه تاج مصر الأبيض وسلمه الى أحد رجال الكهنوت ، ثم رفع تاج مصر المزدوج بين التهليل والتكبير ووضعه على رأسه المجعد ، ثم صاح هاتفا : « ليحيى سيكننرع فرعون مصر » . فردد القوم هتافه ، وهرع كاهن الى خارج المعبد وهتف لفرعون مصر سيكننرع ، فردد الطيبيون الهتاف فى حماسة مستعرة . ثم هتف بقتال الرعاة وأجابه القوم بأصوات كالرعد ، وقد أيقنوا بما كانوا منه فى شك ...

وحيا فرعون الكهنة ، ثم اتجه نحو باب المعبد تتبعه أسرته ورجال قصره ووجوه المملكة الجنوبية ...

٧

وعلى اثر وصول فرعون الى قصره دعا الى الاجتماع به رئيس وزرائه وكبير الكهنة ورئيس حجاب القصر وقائدى الجيش والأسطول وقال لهم :

ــ ان سفينة خيان تسبح به نحو الشمال سريعا ، وسنتعرض للغزو على اثر اجتيازه حدود الجنوب ، فينبغى الا نضيع ساعة من وقتنا .

والتفت الى قائد الأسطول كافا وقال :

ــ أرجو أن تجد مهمتك يسيرة على سطح الماء ، فالرعاة تلاميذنا فى القتال فى السفن ، هيىء سفنك للحرب وأبحر بها نحو الشمال ..

فأدى القائد كافا التحية لمولاه وفارق المكان على عجل . وتحول الملك الى القائد بيبى وقال :

ــ أيها القائد بيبى ، ان قوة جيشنا الأساسية معسكرة فى طيبة ، فسر بها الى الشمال ، وسألحق بك على رأس قوة من حرسى الأشداء ، وانى أدعو الرب أن يثبت جنودى أنهم جديرون بالمهمة الملقاة على عاتقهم ، ولا تنس أيها القائد أن تبعث برسول الى بنوبوليس على حدودنا الشمالية لينبه الحامية الى الخطر المحدق بها حتى لا تؤخذ على غرة .

فأدى القائد التحية لمولاه ومضى ، وجعل الملك يقلب وجهه فى وجوه رئيس الوزراء وكبير الكهنة ورئيس الحجاب ثم قال لهم :

ــ سيلقى على كواهلكم أيها السادة واجب الدفاع عن مؤخرة جيشنا ، فليقم كل منكم بواجبه بما أعهده فيكم من الكفاية والاخلاص .

فقالوا فى صوت واحد :

ـ كلنا فداء للملك ولطيبة .

فقال سيكننرع :

ـ يا نوفر آمون ابعث رجالك الى القرى والبلدان يحثون قومى على الجهاد ، وأنت يا أوسر آمون ادع حكام الأقاليم وأوصهم أن يجندوا الأشداء والقادرين من شعبى ، أما أنت يا حور فانى أعهد اليك بآل بيتى ولتكن لابنى كاموس كما كنت لى .

وحيا الملك رجاله وغادر المكان قاصدا الى جناحه الخاص ليودع أسرته قبل الرحيل ، وأرسل فى طلبهم جميعا فجاءت الملكة أحوتبى والملكة توتيشيرى والأمير كاموس وزوجه الأميرة ستكيموس وابنها الصغير الأمير أحمس وابنتهما الصغيرة الأميرة نيفرتارى ، فاستقبلهم استقبالا وديا وأجلسهم حوله وقد شـــعر بالحنان يتدفق من بين أضلعه ، ومضى يقلب عينيه فى أحب الوجوه الى قلبه وكأنه يرى وجها واحدا يتكرر لا يفرق بينها سوى العمر ، فتوتيشيرى فى الستين ، وأحوتبى مثـــل زوجها فى الأربعين ، أما كاموس وســـتكيموس ففى الخامسة والعشرين ، وأما أحمس فلم يجاوز العاشرة ، وأخته نيفرتارى دون ذلك بعامين ، ولكن ما من وجه فيهم الا وتتألق فيه هاتان العينان السوداوان وذلك الفم الذى يميل الى البروز أعلاه ، وتلك السمرة الخمرية التى تضفى عليه صحة وحسنا . وارتسمت على فم الملك العريض ابتسامة وقال :

ـ تعالوا نجلس معا ساعة قبيل الرحيل ...

فقالت توتيشيرى : « انى أدعو الرب يا بنى أن يكون ذهابا الى النصر المبين » .

فقال سيكننرع : « انى كبير الأمل فى النصر يا أماه .... » .

ورأى الملك ولى العهد فى لباس الحرب فأدرك أنه يظن نفسه خارجا معه فسأله متجاهلا :

ـ لماذا ترتدى هذا اللباس ؟ ..

فبدت الدهشة على وجه الشاب كأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال ، وقال باستغراب :

ــ للسبب الذى من أجله ترتديه أنت يا مولاى .

ــ هل جاءك أمرى بذلك ؟

ــ ظننت المسألة لا تحتاج الى أمر يا مولاى .

ــ أخطأت يا كاموس .

فبدا الفزع على وجه الشاب وقال :

ــ هل أحرم شرف خوض معركة طيبة يا مولاى ؟

ــ ان ميادين القتال لا تستأثر بالشرف دون الميادين الأخرى ، وستبقى على عرشى يا كاموس لتسهر على سعادة مملكتنا وتمد جيشنا بالرجال والمئونة .

فامتقع وجه الشاب ، وحنى رأسه كأنما أثقله أمر الملك ، وأرادت توتيشيرى أن تخفف عنه فقالت برقة :

ــ كاموس ... ان القيام بأعباء الحكم ليس بالعمل الهين الذى يخزى انسانا وهو عمل جدير بمثلك .

وهنا وضع الملك يده على منكب ولى عهده وقال :

ــ اصغ الى يا كاموس اننا مقبلون على حرب ضروس نرجو أن نفوز فيها بعون الرب ، ونحرر بلادنا المحبوبة مما تقيد به من الأغلال ، على أنه من الحكمة أن نقدر جميع العواقب ، وقد قال حكيمنا قاقمنا : « لا تضع كل أسهمك فى جعبة واحدة » .

وسكت الملك عن الكلام ، فساد الصمت ولم ينبس أحد بكلمة حتى استأنف الملك قائلا :

ــ فاذا شاءت حكمة الرب أن يبوء جهادنا بخذلان فما ينبغى أن ينقطع جهادنا قط ... أصغوا الى جميعا ، اذا سقط سيكننرع فلا تيئسوا فسيخلف كاموس أباه ، واذا سقط كاموس خلفه أحمس الصغير ، واذا فنى جيشنا هذا فمصر ملأى بالرجال ، وان تسقط

بطلمايس فلتحارب كبتوس ، وان تقتحم طيبة فلتثب أمبوس وسيين وبيجة ، أو يقع الجنوب فى أيدى الرعاة فهنالك النوبة لنا فيها رجال أشداء مخلصون ، وستتولى توتيشيرى الأبناء بما تولت به الآباء والأجداد ، فلا أحذركم الا من عدو واحد هو اليأس ..

وكان لكلام الملك وقع شديد فى نفوس الجميع حتى أحمس الصغير ونيفرتارى وجما وعلاهما الارتباك ، وعجبا كيف يحدثهما جدهما بهذه اللهجة الجدية أول مرة ، واغرورقت عينا الملكة أحوتبى بالدموع ، فتكدر سيكننرع وقال بلهجة لم تخل من عتاب :

— أتبكين يا أحوتبى .. انظرى الى شجاعة أمنا توتيشيرى ...

ثم نظر الى أحمس وكان يكلف به كلفا عظيما ؛ وكان الغلام صورة صادقة من جده ، فجذبه اليه وسأله مبتسما .

— من العدو الذى يجب أن نحذره يا أحمس ؟ .

فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول :

— اليأس ...

فتضاحك الملك وقبله مرة أخرى ، ثم قام واقفاً وقال برقة : « هلمو نتعانق .. » ثم عانقهم جميعاً مبتدئاً بتوتيشيرى وزوجه أحوتبى وستكيموس زوج ابنه ثم أحمس ونيفرتارى : ثم انعطف نحو كاموس ، وكان واقفاً فى جمود واستسلام ، فمد له يده فشد عليها بقوة ، ثم انحنى عليها فقبلها وقال بصوت خافت : « فلتصحبك السلامة يا أبتاه » ولوح لهم الملك بيده وبرح المكان بقدمين ثابتتين وقد تجلى على وجهه العزم والبأس ...

***

وخرج الملك فى رأس قوة من حرسه والتقى فى ميدان القصر بجموع شعب طيبة المتحمس ، فخال أهل طيبة جميعا رجالا ونساء وأطفالا قد انتقلوا الى ميدان القصر يحيون مليكهم ويهتفون لمن خرج باغيا تحرير الوادى ، وشق سيكننرع طريقه بين موجهم المتلاطم

قاصدا باب طيبة الشمالى ، وهناك وجد الكهنة والوزراء والحجاب والأعيان وكبار الموظفين فى توديعه ، فسجدوا لموكبه وهتفوا باسمه طويلا ، وكان آخر صوت سمعه الملك صوت نوفر وهو يقول له : « سأستقبلك يا مولاى بعد حين قليل ورأسك مكلل بالغار .. اللهم استجب » .

واجتاز الملك باب طيبة العظيم فى طريقه الى الشمال تاركا وراءه اسوار المدينة العظيمة ، وكان عظيم التأثر لما رأى ولما سمع ، وقد شعر بخطر العمل الكبير المقبل عليه ، وكيف أنه ينطوى على اسعاد شعبه أو اشقائه الى أمد طويل ، لقد وضع مصير القوم فى قبضة يده وواجه المخاطر المروعة التى وقف منها أبوه موقف المتمهل المتريث ، ولم يكن سيكننرع من الحكام المترفين ولكن كان خلقه ينطوى على الصرامة والبسالة والتقشف والتدين ، وكان عظيم الأمل قوى الثقة بقومه . وقد لحق جيشه بالمعسكر فى بلدة سنهور شمال طيبة قبل المساء واستقبله القائد بيبى على رأس قواد الفرق ، وكان مضعضع الحواس لما أصابه من ارهاق ووصب ، ولم تغب حالته عن عينى الملك فقال له :

— أراك متعبا أيها القائد .

فسر القائد بملاحظة مولاه وقال :

— استطعنا يا مولاى أن نجمع هنا حاميات هرمنسيس وهابو وطيبة ، فكونت جيشا يربو عدده على عشرين ألف مقاتل .

وسار الملك بعجلته بين خيام الجنود فسرت فى نفوسهم موجة فرح وحماس ، وتردد الهتاف له فى المعسكر شمال بلدة شنهور ، ثم كر راجعا الى الخيمة الملكية وفى صحبته القائد بيبى ، وكان الملك مطمئنا الى جيشه الذى بذل اجمل عهود شبابه فى تدريبه فقال :

— جيشنا باسل .. فكيف ترى شعور القواد ؟

— كلهم متفائلون يا مولاى ومتحمسون للحرب ، وما من واحد منهم الا يبدى عظيم اعجابه بفرقة القسى ذات الشهرة التاريخية .

فقال الملك :

— انى أشارككم هذا الاعجاب ، والآن أصغ الى ، لا يجوز أن نضيع من الوقت الا ما تستلزمه ضرورة اراحة هذا العدد من الجنود ، فانه ينبغى أن نلقى عدونا — اذا هاجمنا حقا — فى الوادى المنحدر ما بين بانوبوليس وبطلوس ، فهو واد شديد الوعورة ضيق المسالك ، والميزة الحربية فيه لمن يسيطر على عاليه ، ومجرى النيل فيه ضيق فيمكن أن نساعد أسطولنا فى أثناء اشتباكه مع العدو ..

— سنشرع فى المسير يا مولاى قبيل الفجر .

فأومأ برأسه دلالة على الموافقة وقال :

— ينبغى أن نبلغ باتوبوليس ونعسكر فى واديها قبل ان يعود خيان الى منف ...

ثم دعا الملك قواده الى الاجتماع به .

٨

وتحرك الجيش قبيل الفجر يسبقه الى اهدافه قوة الكشافة ، وتتقدمه فرقة العجلات المكونة من مائتى عجلة على رأسها فرعون ، وتتبعها فرقة الرماح ، ثم فرقة القسى والنبال ، ثم فرقة الأسلحة الصغيرة ، وعربات المؤن والسلاح والخيام . وابحر الأسطول فى الوقت نفسه الى الشمال ، وكان الظلام شديدا لا يخفف من سواده سوى شعاع النجوم الساهرة واضواء المشاعل ، فبلغو مدينة قسى فهبت جميعا لاستقبال فرعون وجيشه ، وهرع الفلاحون من اقصى الحقول يحملون سعف النخل والرياحين ودنان الجعة ، وساروا مع

الجيش يهتفون له ويهدون الى الجنود الأزهار وأكواب الجعة الشهية ، ولم يتركوه حتى أوغل فى المســـير ، وبهتت ظلمة الليل وانسكب فى الأفق الشرقى نور الفجر الأزرق الهادىء يتقدم بشائر النور ، ثم أسفر الصبح وغمر الضوء الدنيا والجيش يجد فى السير حتى بلغ كتوت قبيل العصر ، فاستراح فيها وقتا بين المستقبلين من أهلها المتحمسين . ورأى الملك أن يكون مبيت الجيوش فى تنثيرا فأصدر أمره باستئناف المسير ، وجد الجيش حتى بلغ تنثيرا عند سدول الظلام وهنالك استسلم للنوم العميق ..

وكان يستيقظ قبل الفجر ويضرب فى الأرض حتى حلول الظلام يوما بعد يوم حتى عسكر فى أبيدوس ، وكانت الكشافة تجول شمال المدينة فرأى ضابط من رجالها عن بعد سحيق أقواما تضرب فى الأرض ، فعدا على رأس ثلة من رجاله نحو القادمين ، وكان كلما هبط الوادى تبين له الأمر فرأى خطوطا متعرجة من الفلاحين يسيرون جماعات يحملون ما خف من متاعهم ، ومنهم من يسوق غنما أو ثيرانا يدل منظرهم على البؤس والتشرد ، فعجب الرجل واعترض سبيل المتقدمين منهم وهم بسؤالهم ، ولكن رجلا منهم صاح به :

— الغوث أيها الجندى ... أدركونا فقد هلكنا ..

فصاح الضابط منزعجا :

— تطلبون الغوث ؟ .. ماذا يفزعكم ؟

فأجاب كثيرون منهم فى نفس واحد : « الرعاة ... الرعاة ... » .

وقال الرجل الأول :

— نحن أهالى بانوبوليس وبطلمايس ، جاءنا جنـــدى من جنود الحدود وقال لنا : ان جيش الرعاة يهاجم الحدود بقوات عظيمة لن تلبث أن تتدفق الى بلدتنا ونصحنا بالهجرة الى الشمال ، فســـاد الفزع البلد والحقول وهرعنا جميعا الى ديارنا ننادى النساء والأطفال

ونحمل ما يخف حمله ، ثم تركنا البلاد وراءنا فارين ، فما ذقنا الراحة منذ صباح الأمس ..

وكان يبدو على وجوههم الاعياء والخور فقال لهم الضابط :

ــ استريحوا قليلا ثم جدوا فى السير ، فعما قليل ينقلب هذا الوادى الساكن ميدانا للقتال .

ولوى الرجل عنان فرسه وانطلق به الى خيمة القائد فى أبيدوس ، وأبلغه الخبر ، وقام بيبى من فوره الى الملك وقص عليــــه الخبر ، فتلقاه بدهشة وانزعاج وصاح :

ــ كيف وقع هـــذا ... هل بلغ خيـــان منف فى هـــذا الزمن اليسير ؟ ...

فقال بيبى بحنق :

ــ لا شك يا مولاى فى أن عدونا حشد جيشه على حدودنا قبل أن يبعث الينا برسوله ، فهو كان يتربص بنا ، وما عرض علينا مطالبه الا وهو يرجو أن ترفضها ، فلما اجتاز خيان حدودنا عائدا أصدر أمره للجيوش المحتشدة بالهجوم ، هذا هو التفســـير المعقول لذلك الهجوم السريع العنيف ..

فأصفر وجه الملك سيكننرع غضبا وحنقا وقال :

ــ اذن سقطت بانوبوليس وبطلمايس .

ــ نعم واأسفاه يا مولاى ، ولا يجدى فى الدفاع عنهما بســـالة حاميتنا قليلة العدد .

فهز الملك رأسه أسفا وقال :

ــ خسرنا أوفق ميدان قتال لنا .

ــ لن يؤثر هذا فى شجاعة جنودنا الفائقة ..

وفكر الملك مليا ثم قال لقائد جيوشه :

ــ ينبغى أن نخلى أبيدوس ورفا وتنتيرا اخلاء تاما .

فبدا التساؤل على وجه بيبى فقال الملك :

ــ لن ندافع عن هذه المدن .

فأدرك بيبى ما يعنيه مولاه .

ــ أيريد مولاى أن يلقى العدو فى وادى كبتوس ؟

ــ هذا ما أريده ، فهنالك تمكن مهاجمة العدو من عدة جهات . وتوجد فى أنحاء الوادى حصون طبيعية ، وسأترك له فى المدن التى نخليها عصابات تكر عليه دون أن تشتبك معه فى قتال فتعطل تقدمه حتى نقوى مراكزنا ، هيا يا بيبى ابعث برسلك الى المدن ليخلوها ، ومر القواد بالتقهقر فى الحال : ولا تضع وقتا فان حبل الأرجوحة التى يترجح فيها مصير قومنا أمسى أحد طرفيه فى يد أبو فيس .

٩

وصاح المنادى فى أهالى أبيدوس وبرفا وتنتيرا أن احملوا متاعكم وأموالكم وسيروا الى الجنوب ، فقد أمست دياركم ميدان قتال لا يعرف الرحمة ، وكان القوم يعرفون من الرعاة وما أعمالهم ، فتولاهم الخوف وبادروا الى أموالهم وأمتعتهم يكدسون بها العربات تجرها الثيران ، والى البقر والأغنام يسوقونها سوق المتعجل ، ولموا شعثهم وهرعوا نحو الجنوب تاركين أراضيهم وديارهم وكأنما تقطع أوصالهم من الحزن والأسف ، وكان كلما تقدم بهم المسير ألقوا بأبصارهم المظلمة الى الوراء تنازعهم قلوبهم الى أوطانهم ، ثم تفزعهم المخاوف فيجدون سراعا الى المجاهل التى تنتظرهم ، ومروا فى طريقهم ببعض فرق الجيش فخفقت قلوبهم فى صدورهم وداعب أحلامهم الأليمة أمل ، وافترت ثغورهم عن ابتسامة فرح التمعت فى جو أحزانهم كما تضىء أشعة الشمس خلل ثغرة بين السحب انقشعت عنها لحظة فى يوم أدكن السماء ، ولوحوا بأيديهم وصاح الكثيرون : « أراضينا وديعة مسلوبة ... ردوها الينا أيها البواسل .... » .

كان فرعون فى تلك الأثناء يشرف على توزيع قواته فى وادى

كبتوس ويرمق بعينين أسيفتين جموع المهاجرين الذين لا ينقطع تيارهم المتدفق ، وكان يشاركهم آلامهم كأنه واحد منهم ، ويضاعف فى ألمه ما يحمله الهواء الى أذنيه من هتافهم باسمه ودعائهم له .

وكان القائد بيبى على اتصال دائم برجال الكشافة فيتلقى الأخبار منهم ثم يرفعها الى مولاه ، فبلغه هجوم العدو على ابيدوس ومقاومة حاميتها الصغيرة مقاومة عنيدة أتت على آخر رجل منهم . وغداة اليوم التالى حمل الرسول نبأ هجوم الهكسوس على مدينة برفا وما احتال به الرجال المدافعون عنها من فنون الدفاع والمشاكسة لكى يعطلوا زحف العدو ما وسعتهم الحيلة ، أما تنثيرا فقد ثبتت حاميتها للعدو الزاحف ساعات طوالا حتى اضطر أن يهاجمها بقوات كثيرة كأنما يهاجم جيشا كامل العدد والعدة ، ثم قرر الكشافة وبعض الضباط الذين نجوا من حاميات المدن المغزوة أن قوات العدو يترجح عددها بين خمسين ألفا وسبعين ، أما فرقة العجلات فلا تقل عن الف عجلة ، وقد تلقى الملك النبأ الأخير بغرابة وجزع ؛ لأنه لم يكن هو — ولا أحد من جيشه — يتوقع أن يملك جيش ابو فيس هذا العدد الضخم من العجلات ، وقال لقائده :

— كيف تقاوم فرقة عجلاتنا هذا العدد الهائل من العجلات ؟ . .

وكان بيبى فى حيرة من أمره ، وكان يلقى على نفسه هذا السؤال فقال لمولاه :

— ستنهض فرقة القسى بواجبها يا مولاى .

فهز الملك راسه دهشة وقال :

— لم تكن العجلات من آلات الحرب لدى الرعاة ، فكيف يكون لجيشهم أضعاف ما لجيشنا منها ؟ . .

— والمؤلم يا مولاى أن تكون الأيدى التى صنعتها مصرية . .

— حقا انه لمؤلم . . ولكن هل تنفع القسى فى مقاومة سيل من العجلات ؟

— ان جنودنا يا مولاى لا يخطئون أهدافهم ، وسيرى أبو فيس غدا ان الغلبة لسواعدهم على كثرة عجلاته ..

وفى ذلك المساء خلا فرعون الى نفسه وكان يشعر بضيق وانقباض ، وصلى للرب صلاة حارة طويلة ضارعا اليه ان يشرح صدره ، ويثبت قلبه ، ويكتب له ولجيشه النصر .

وأحس الجميع دنو العدو ؛ فضاعفوا من يقظتهم ، وناموا ليلتهم جزعين يرجون أن يطلع الصبح ليلقوا بأنفسهم فى معركة الموت .

١٠

واستيقظ الجيش قبل بزوغ الفجر بزمن غير يسير ، واخذ الرجال الأشداء من حملة القسى اماكنهم الحصينة فى الميدان يؤيد كل جماعة منهم قوة صغيرة من العجلات ، ووقف سيكننرع أمام خيمته مع قائده بيبى وسط هالة من رجال حرسه الأشداء ، وكان يقول لهم : « ليس من الحكمة أن نقذف بفرقة العجلات لمواجهة قوات لا قبل لها بها . ولكن هذه العجلات المبعثرة ستعاون رماتنا المحصنين على أصابة فرسان العدو وجياده ، وليس من شك فى ان ابو فيس سيبدأ هجومه بالعجلات ، لأن فرق الجيش الأخرى لا تلتقى حتى يفصل فى معركة العجلات ، فليكن همنا موجها الى اصابة عجلات الرعاة بالعجز ، حتى نمكن لفرق جيشنا التى لا تقاوم بخوض المعركة والقضاء على عدونا » .

وكانت فكرة القضاء على عجلات العدو حلمه الذى يهيم به ، وكان يدعو ربه آمون فى صدق ورجاء قائلا : « أيها الرب المعبود ، اقض لنا بالغلبة على هذه العقبة .. وانصر ابناءك المؤمنين ، فلئن تخذلهم اليوم لن يذكر اسمك فى مثواك المكرم ، وتغلق أبواب معبدك المطهر .. » .

وركب الملك عجلته ، وفعل القائد بيبى مثله ، وأحاط بهما الحرس الفرعونى ، ووقف خلفهما مائة عجلة حربية ، ثم تقدمت فرقة الرماح ورصت صفوفها الى يمين الملك والى شماله ، وكان الجميع ينتظر أن يدعى الى القتال بعد أن تقوم قوات الرماة والعجلات التى تؤيدها بواجبها الأول .

وحين أخذت تبدو بشائر النور ، جاء رجل من الكشافة وأبلغ الملك أن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول الرعاة فى معركة حامية شمال كبتوس ، فقال الملك لقائد جيشه :

— ان أبو فيس يدرك ولا شك أنه سيلقى مقاومة عنيفة ، ولذلك أمر أسطوله بالهجوم ليتمكن من انزال جنود وراء مواقعنا .

فقال القائد بيبى : « ان الرعاة يا مولاى لا يتقنون فن القتال على سطوح السفن ، وسيبتلع النيل المقدس جثث جنودهم ، ويبتلع أمل أبو فيس فى حصارنا » .

كانت ثقة سيكننرع فى رجال أسطول طيبة عظيمة ، ولكنه أوصى قائد الكشافة أن يكون على اتصال دائم بميدان المعركة البحرية وجعل الظلام ينقشع والصبح يسفر . والميدان يتجلى للأعين الفاحصة ؛ فرأى سيكننرع جنوده الرماة والقسى فى أيديهم ، والعجلات المعدودة تتحفز الى جانبهم للقتال ، ورأى فى الناحية الأخرى جيش الرعاة ينتشر انتشار الغبار الثائر . وكان العدو ينتظر سفور الصبح ، فما عتمت أن تحركت قوات العجلات استعدادا للمعركة ، ثم انقضت قوات منها على بعض الأماكن المحصنة الأمامية فتطايرت السهام وصهلت الخيل وصرخ المتقاتلون ، وتدافعت قوات أخرى فاشتبكت مع الرماة المصريين وبعض العجلات المصرية فى قتال عنيف ، فصاح سيكننرع :

— الآن تبدأ معركة طيبة .

فقال بيبى بصوت قوى النبرات :

ــ نعم يا مولاى ، وقد بدأ جنودنا بدءا حسنا .

وصوبت الأبصار جميعا الى الميدان تشاهد سير المعركة ، فرأوا عجلات الرعاة تهاجم صفا ثم تتفرق جماعات شتى ، وتهجم على الرماة بعنف وسرعة ، وتنقض على ما يعترض لها من العجلات المصرية ، وكان القتلى يسقطون من الجانبين سراعا فى استبسال وشجاعة ، وبدت قوة الرماة وشدة بأسهم ، فكانوا يثبتون للهاجمين ويصيدون فرسانهم وجيادهم ويفتكون بهم فتكا ذريعا ، حتى صاح ببيى قائلا :

ــ لو دام القتال على هذا النحو ، فسنتفوق على فرقة العجلات فى أيام قلائل .

على أن قوات الرعاة كانت تهجم وتقاتل ، ثم ترتد الى معسكرها وتنقض غيرها كى لا تنهك قواها ، على حين كان المصريون يدافعون دون سكوت أو راحة وهم ثابتون فى مراكزهم ، وكان سيكننرع كلما رأى فارسا من فرسانه يسقط أو عجلة من عجلاته تتعطل ، يصيح غاضبا : وا أسفاه ، ويدرك أتم ادراك ما ينزل بجيشه من الخسارة ، وأخذ عدد الوحدات التى يهجم بها الرعاة يتضاعف ، كانوا يهجمون ثلاثا ثلاثا ، ثم هجموا ستا ستا ، ثم عشرا عشرا . واشتد القتال وحمى وطيسه ، واطرد عدد عجلات الهكسوس فى الزيادة ، حتى ساور سيكننرع القلق ، وقال لببيى :

ــ لابد من مواجهة زيادة قوات العدو بما يعيد الى الميدان اتزانه .

ــ ولكن يا مولاى ينبغى الاحتفاظ بعجلاتنا الاحتياطية حتى آخر الموقعة .

ــ الا ترى أن العدو يكر علينا كل فترة يسيرة بقوات جديدة متحفزة للقتال ؟ ..

ــ انى أدرك الخطة يا مولاى ، ولكننا لا يمكن أن نجاريه فيها لوفرة عجلاته الاحتياطية وقلة عجلاتنا ..

فصر الملك بأسنانه وقال :

— لم نكن نتوقع قط أن تكون له هـذه الغلبة فى العجـلات ، ومهما يكن فلا يمكننى أن اترك الرماة بلا نجدة ، فليس فى جيشى رماة سواهم ..

وامر الملك بهجوم عشرين عجـلة فى خمس وحدات ، فانقضت كالنسور الكواسر ، وبعثت فى الميدان حياة جديدة ، ولكن أبو فيس اراد أن يرد على حملة سيكننرع الجديدة ردا قاسيا ، فأرسل الى الميدان عشرين وحدة قوام كل وحدة خمس عجلات ، فزلزلت الأرض بصلصلتها ، وملأت الفراغ بجبال من غبار ثائر ، واستطارت المعركة وجرت الدماء كالنهر .. وتقـدم الوقت وهى لا تهدأ أو تخف وطأتها حتى توسطت الشمس كبد السـماء . وجاء بعد ذاك بعض رجال الكشافة وآذنوا الملك بارتداد أسطول الرعاة بعـد أن فقد فى الأسر سفينتين ، وغرقت له سفينة أخرى ، فجاء نبأ النصر فى وقته ليشد من عزيمة المصريين ويثبت قلوبهم ، وأذاعه الضباط فى الفرق المقاتلة والتى تنتظر أن يجىء دورها فى الكفاح ، فكان له صـدى فرح فى الصدور ، وفورة حماس فى القلوب ، ولكن صك ذاك الخبر آذان أبو فيس كذلك فاستولى عليه الغضب ، وغير خطته البطيئة فى الحال ، واصدر أمره الى قوة العجلات بالهجوم والانتقام .. ورأى سيكننرع سيلا عرمرما من العجلات ينقض على رماته البواسـل من كل مكان ، وينشب فيهم أظافره الحادة . وارتاع الملك أيما ارتياع ، وصاح قائلا بغضب شديد :

— ان قواتنا التى نهكها النضال الدائم ، لا يمكن أن تثبت وحدها لهذا السيل من العجلات ..

ثم التفت الى قائد جيشه ، وقال بعزم واصرار :

— سنخوض معركة فاصلة بالقوات التى بين أيدينا ، فمر ضباطنا البواسل بالهجوم بفرقهم ، وبلغهم رجائى أن يقوم كل بواجبه جنديا من جنود طيبة الخالدة .

وكان سيكننرع يدرك الهول الذى ينتظره وجيشه ، ولكنه كان رجلا باسلا عظيم الايمان ، فلم يتردد لحظة ونظر الى السماء وقال بصوت صاف النبرات : « أيها الرب آمون لا تنس أبناءك المخلصين » . ثم أصدر أمره الى قوة العجلات المحيطة به بالهجوم ، واندفع أمامها ليلقى عدوه ..

وبدأت معركة من أشد المعارك هولا ، علا فيها الصراخ والصهيل وتطايرت الخوذ ، وتساقطت الرءوس . وجرت الدماء ولكن لم تجد بسالة المصريين شيئا فى مقاومة العجلات السريعة المدرعة ، ففتكت بهم فتكا ذريعا ، وحصدتهم حصدا كالهشيم ، وقاتل سيكننرع قتالا مجيدا غير يائس ولا متخاذل ، وبدا ساعة كأنه رب الموت يختار له من يشاء من عدوه . واستمرت المعركة حتى الأصيل وهناك بدت الغلبة فى صف الرعاة ، فتحفزوا ليضربوا الضربة القاضية ، وهجمت عجلة كبيرة تحرسها قوة عظيمة يقودها فارس شديد البأس طويل اللحية ناصع البياض ، على عجلة سيكننرع ، وشقت اليه الصفوف ببسالة خارقة . وأدرك الملك غرض الفارس الجســــور ، فهرع نحوه حتى تواجها ، ثم تبادلا ضربتين هائلتين برمحيهما ، فتلقى كل منهما الضربة المواجهة اليه بترسه وتحفز للقتال . ورأى سيكننرع غريمه يسل سيفه ، فعلم أنه لم يقتنع بتجربة حظه ، فسل سيفه واندفع نحوه ، وفى تلك اللحظة الرهيبة استقر سهم فى ساعده ، فارتعشت يده وسقط منها السيف .. وصاح كثير من حرس الملك : « حذار يا مولاى .. حذار » ولكن الغريم كان أسرع اليه من الحذر ، فوجه الى عنقه ضربة هائلة بأقصى قوته ، فأصابت هدفها ، وارتسم على الوجه الأسمر أبلغ الألم ، وتوقف مقهورا عن المقاومة . فقبض عدوه بيمناه على رمح ورشقه بقوة ، فاستقر فى جانب الملك الأيسر ، وترنح على أثره ذاهلا وسقط على الأرض .. وتعالى الصياح من كل جانب ، فقال المصريون : « رباه .. لقد سقط الملك .. دافعوا عن مليككم .. »

وصاح قائد العدو وهو يبتسم ابتسامة الظافر : « أجهزوا على المتمرد العاصى ، ولا تبقوا على أحد من رجاله » . فاشتد القتال حول جسد الملك الملقى ، وانقض عليه فارس حقود . ورفع بلطة حادة ، وهوى بها على رأسه فأطاح عنه تاج مصر المزدوج ، وتفجر منه الدم كالينبوع ، وثنى بضربة أخرى فوق العين اليمنى ، فحطمت العظام وتناثر المخ فى حالة بشعة ، وأراد كثيرون أن يصيبوا من تلك المأدبة الدموية ما يشفون به غلهم ، فتكالبوا على الجثة ووجهوا اليها طعنات مجنونة قاسية ، أصابت العينين والفم والأنف والخدين والصدر ، فمزقت الجثة وأغرقتها فى بحر من الدماء ..

وكان بيبى يقاتل على رأس من بقى من جنوده ، مدافعا قوات العدو المتدفقة على البقعة التى سقط فيها مولاه . واستيأس القوم فى القتال ، وهانت عليهم الحياة ، وعزموا جميعا على الاستشهاد فى المكان الذى ارتوى بدماء مليكهم الباسل ، فما زالوا يسقطون رجلا اثر رجل حتى أدركهم المساء ، ولبس الكون الحداد ، فكف الفريقان عن القتال ، وقد نهكهم التعب وأثخنتهم الجراح ..

١١

وخرج الجنود بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم ، وكان القائد بيبى واقفا الى جوار عجلته بعد أن نال الاعياء منه كل منال ، يتجه قلبه الى الجثة التى خضبت دماؤها الزكية الميدان ، فسمع صوت قائد يقول :

— يا للعجب .. كيف انتهت الموقعة العظيمة بمثل هذه السرعة .. من يصدق أننا فقدنا جل قواتنا فى نهار واحد .. كيف أمكن التغلب على جنود طيبة الأشداء ... ؟!

فقال له صوت آخر كان من الاعياء كالحشرجة :

ــ انها العجلات التى لا تقاوم .. لقد حطمت آمال طيبة جميعا ..

فناداهم القائد بيبى قائلا :

ــ أيها الجنود ... هل أديتم ما عليكم نحو جثة سيكننرع ؟ ... هلموا نبحث عنها بين الجثث ..

فسرت قشعريرة فى نفوسهم المتهالكة ، وأخذ كل منهم مشعلا وتبعوا بيبى صامتين يعقد السنتهم حزن عميق ، وتفرقوا فى البقعة التى سقط فيها الملك ، تصك آذانهم انات الجرحى وهذيان المحمومين ، وكان بيبى لا يكاد يرى ما بين يديه من الحزن والألم ، ولا يكاد يصدق انه يبحث حقا عن جثة سيكننرع ، ويكبر عليه أن يسلم بأن موقعة طيبة قد انتهت هذه النهاية الأسيفة ، وكان يقول والدموع تطفر من عينيه : « اشهدى يا أرض كبتوس واعجبى .. اننا نبحث عن جثة سيكننرع بين كثبانك .. الا رفقا بها ، ولتكونى فراشا وثيرا لأضلعها المصابة ، ألم تسقط فداء لك ولأرض طيبة ! .. واها يا سيدى .. من لطيبة بعدك ؟ .. من لنا غيرك ؟ .. » وظل فى حيرته قليلا ثم سمع صوتا يصيح قائلا : « أيها الرفاق تعالوا .. هاكم جثة مولانا » . فجرى صوبه والمشعل فى يده ، فزعة عيناه من الهول الذى ستراه ، ولما بلغ مكان الجثة فرت من فمه صرخة مدوية ، امتزج فيها الألم بالغضب . رأى ملك طيبة كتلة مشوهة من لحم ممزق وعظام بارزة ودم مسفوح والتاج ملقى الى جانبه ، فصاح غاضبا : « يا للغربان الدنية .. لقد فعلوا ما قد تفعل الذئاب بجثة الأسد الهصور ، ولن يضيرك أن يمزقوا جسدك الطاهر ، فقد حييت كما ينبغى لملك من ملوك طيبة أن يحيا ، ومت ميتة البطل الباسل .. » وصاح فيمن حوله ممن أذهلهم الحزن : « أحضروا الهودج الملكى . هيا يا نيام » . وأتى بعض الضباط بالهودج ، واشتركوا جميعا فى رفع الجثة ووضعوها عليه ، ورفع بيبى تاج مصر المزدوج ووضعه الى جانب

راس الملك ، ثم سجى الجثة ، وحملوا الهودج فى صمت اليم ، وساروا به نحو المعسكر المهيض الجناح ، ووضعوه فى الخيمة التى فقدت حاميها وسيدها الى الأبد ... وكان جميع القواد والضباط الذين نجوا من الموت يقفون حول الهودج منكسى الأذقان ، ترهقهم كآبة ، ويغشى أبصارهم حزن عميق ، فالتفت اليهم بيبى بصوت قوى النبرات :

— افيقوا أيها الرفاق ولا تستسلموا للحزن ، فليس الحزن بمعيد سيكننرع الينا ، ولعله ينسينا واجبنا نخو جثته ونحو أسرته ونحو وطننا الذى قتل من أجله ، لقد وقعت الواقعة ، ولكن المأساة لم تتم فصولها ، فينبغى أن نثبت فى مراكزنا حتى نؤدى واجبنا كاملا .

فرفع الرجال رءوسهم ، وأصروا بأسنانهم صرير العزم والقوة ، ونظروا الى قائدهم نظرة كأنما يعاهدونه بها على الموت ، فقال بيبى :

— ان الشجاع الحق من لا تنسيه الكوارث واجبه ، وقد يكون من الحق أن نقر بأننا خسرنا موقعة طيبة ، ولكن واجبنا لم ينته بعد ، وعلينا أن نثبت أننا أهل للميتة الشريفة ، كما كنا للحياة الشريفة .

فصاحوا جميعا قائلين :

— لقد ضرب لنا مليكنا المثل الأعلى ، وسوف نتبع أثره .

فتهلل وجه بيبى وقال بسرور :

— حييتم من جنود بواسل ، والآن أصغوا الى ؛ لم يبق من جيشنا الا أقله ، ولكننا سنخوض المعركة غدا على رءوسهم حتى آخر رجل ، وسيكون من جراء قتالنا أن نعوق تقدم أبو فيس حتى تتهيأ فرص النجاة لأسرة سيكننرع ، فما دام أفراد هذه الأسرة على قيد الحياة ، فالحرب بيننا وبين الرعاة لن تنتهى ، وان سكنت فى الميادين الى حين . سأفارقكم بعض يوم لأودى واجبى نحو هذه الجثة ونحو ذريتها الباسلة ، ثم أعود اليكم قبل مطلع الفجر ، لنموت معا فى ميدان القتال .

طلب منهم أن يصلوا جميعا أمام جثة سيكننرع ، فجثوا وجثا واستغرقوا فى صلاة حارة ، وختم بيبى صلاته قائلا :

ــ أيها الرب الرحيم ، تغمد مليكنا الباسل برحمتك فى جوار أوزوريس ، واكتب لنا ميتة سعيدة كميتته . كى نلقاه فى العالم الغربى بوجوه لا يخزيها لقاؤه .

ثم نادى بعض الجنود وأمرهم بحمل الهودج الى السفينة الفرعونية ، والتفت نحو رفاقه وقال : « أستودعكم الرب والى اللقاء القريب » . سار خلف الهودج حتى وضعوه فى المقصورة ، ثم قال لهم :

ــ حين تبلغ بكم السفينة طيبة ، سيروا به الى معبد آمون ، وضعوه فى البهو المقدس ، ولا تجيبوا من يسألكم عنه حتى أوافيكم .

وعاد القائد الى عجلته ، وأمر السائق بالمسير الى طيبة ، فانطلقت بهما تنهب الأرض نهبا . .

***

وكانت طيبة تسلم جفونها للنوم ، تحت ستار الظلام الذى يغشى معابدها ومسلاتها وقصورها ، فى غفلة عما يقع خارج أسوارها من الأحداث الجسام . فاتخذ سبيله رأسا الى القصر الفرعونى ، وأعلن الحرس حضوره ، فجاء رئيس الحجاب على عجل ، ورد تحيتـه ، وسأله بقلق :

ــ ماذا وراءك أيها القائد ؟

فقال بيبى بلهجة دلت على الجزع :

ــ ستعلم كل شىء فى حينه أيها الحاجب الأكبر ، والآن استأذن لى فى المثول بين يدى ولى العهد . . .

فغادر الحاجب الحجرة غير مرتاح البال ، ثم عاد بعد زمن قصير وهو يقول : « ان صاحب السمو ينتظرك فى جناحه الخاص » . فمضى القائد الى جناح ولى العهد وادخل عليه فى بهو الاستقبال . وسجد بين يديه ، وقد أدهشت الزيارة غير المتوقعة الأمير . فلما رفع بيبى

راسه وراى الأمير وجهه الشـــاحب ، وعينيه الذابلتين ، وشفتيه المتقعتين ، ساوره القلق ، وسأل كما سأل حاجبه من قبل قائلا :

ــ ماذا وراءك أيها القائد بيبى ؟ ... فلابد من أمر جلل دعاك الى مفارقة الميدان فى هذا الوقت ؟ ..

فقال القائد بصوت دلت لهجته على الحزن والكآبة :

ــ مولاى ، ما تزال الآلهة ــ لأمر تخفى على حكمته ــ غاضبة على مصر واهلها ... !

فوقع هذا الكلام من نفس الأمير موقع اليد القابضة من العنق ، وادرك ما يدل عليه من الأخبار المحزنة فتساءل فى قلق وجزع :

ــ هل أصيب جيشنا بكارثة ؟ ... هل يطلب والدى مددا ؟ .

فأطرق بيبى وقال بصوت خافت :

ــ واأسفاه يا مولاى ، لقد فقدت مصر راعيها مساء هذا اليوم الكئيب .

ففزع الأمير كاموس قائما ، وصاح به :

ــ هل اصيب والدى حقا ؟ .

فقال بيبى بصوته الثقيل الحزين :

ــ سقط مليكنا سيكننرع وهو يقاتل على رأس جنوده قتال الأبطال الجبابرة :

وانطوت تلك الصفحة النبيلة الخالدة من سجل أسرتكم العظيمة .

فقال كاموس وهو يرفع رأسه :

ــ رباه ... كيف تمكن لعدوك من ابنك المخلص ... رباه ما هذه الكارثة التى تنزل بمصر .. ولكن ما جدوى التشكى ؟ ليس هذا وقت البكاء . لقد سقط والدى فينبغى أن أحل محله ... صبرا أيها القائد بيبى حتى أعود اليك فى لباسى الحربى .

ولكن القائد بيبى قال بسرعة :

ــ لم أجىء الى هنا يا مولاى لأدعوك الى القتال ، لقد قضى الأمر واأسفاه ...

فحدجه بنظرة حادة قاسية ، وسأله :

— ماذا تعنى ؟ .

— لا فائدة ترجى من القتال . . .

— هل قضى على جيشنا الباسل ؟ . .

فأطرق بيبى وقال بحزن شديد :

— خسرنا المعركة الفاصلة التى كنا نرجو أن نحرر بها مصر ، وتحطمت قوة جيشنا الأساسية ، ولن ترجى فائدة حقة من القتال ، ولن نقاتل الا لكى نفسح لأسرة مليكنا الشهيد وقتا للنجاة . .

— أتريد أن نقاتل حتى نفر فرار الجبناء ، تاركين جنودنا وبلادنا فريسة للعدو ؟ . . .

— بل فرار الحكماء الذين يقدرون العواقب وينظرون الى المستقبل البعيد ، ويسلمون بالهزيمة اذا وقعت ، ثم ينسحبون من الميدان الى حين ، ثم لا يلبثون أن يجمعوا قواهم المبعثرة ويحملوا على عدوهم عودا على بدء . . . مولاى تفضل وادع ملكات مصر ، وليكن الأمر شورى . . .

ودعا الأمير كاموس حاجبا ، وارسله فى طلب الملكات ، ومضى يتمشى جيئة وذهابا يتناوبه الحزن والغضب ، والقائد واقف بين يديه لا ينبس بكلمة ، وجاءت الملكات : توتيشيرى وأحوتبى فستكيموس مسرعات ، وحين وقعت أبصارهن على القائد بيبى وقد انحنى لهن تحية ، ورأين الكدر مرتسما على وجه كاموس بالرغم من تظاهره بالهدوء ، شعرن بخوف واضطراب ، وزاغت أبصارهن ، وكان كاموس جزعا فدعاهن الى الجلوس ، وقال :

— سيداتى . . دعوتكن لأقص عليكن أنباء أسيفة . . .

وتريث لحظة كى لا يفاجئهن ، ولكنهن فزعن ، وقالت توتيشيرى بقلق :

— ماذا وراءك أيها القائد بيبى ؟ . . كيف حال مولانا سيكننرع ؟ . .

فقال كاموس بصوت متهدج :

— جدتاه ... ان قلبك لذكى الشعور ، صادق الحدس ... فليثبت الله قلوبكن ، ويمنكن على تحمل الخبر الفاجع ... لقد قتل أبى سيكننر فى الميدان ، وخسرنا المعركة ...

وعطف راسه عنهن حتى لا يرى آلامهن ، وقال وكأنه يحادث نفسه المكلومة :

— قتل أبى وهزمت جيوشنا ، وقضى على قومنا أن يعانوا الآلام جميعا ، من ادنى الجنوب الى أقصى الشمال ...

ولم تتمالك توتيشيرى فزفرت زفرة حرى كأنما مجت بها فتات كبدها ، ووضعت يدها على قلبها وهى تقول :

— ما أشد جرح هذا القلب العجوز ...

أما أحوتبى وستكيموس فقد ثقل راساهما ، ووكفت أعينهما دمعا ساخنا ، ولولا وجود القائد بينهما لانتحبتا انتحابا عاليا .

ووقف بيبى وسط ذاك الحزن الشامل صامتا ، مجروح الصدر مضعضع الحواس جميعا ، وكان يحزنه أن يضيع الوقت سدى ، وخشى أن تفلت من أسرة مولاه فرصة الهرب فقال :

— يا ملكات أسرة مولاى كاموس ، تجلدن وتصبرن ، فانه وان كان الخطب أكبر من العزاء ، فان الساعة أولى بالحكمة وعدم الاستسلام للحزن ، أستحلفكن بذكرى مولاى الشهيد أن تكفكفن دموعكن ، بالصبر وتحزمن أمتعتكن ، فليست طيبة بالمثوى الأمين غدا ...

فسألته توتيشيرى قائلة :

— وجثة سيكننرع ؟

— فلتطمئن نفسك يا مولاتى ، سأؤدى واجبى نحوها كاملا ...

فسألته مرة أخرى :

— والى أين تريد أن نذهب ؟

— مولاتى ، ستقع مملكة طيبة بين يد الغزاة الى حين ، ولكن لنا وطن آخر أمين فى بلاد النوبة ، ولن يطمع الرعاة فى النوبة لأن الحياة فيها

جهاد يشق على نفوسهم المترفة ، فلتكن لكم مهجرا آمنا ، لكم فيه أنصار من قومنا وأتباع من جيراننا ، وهنالك بعاودكم التفكير فى هدوء ، فترعون نل المستقبل الجديد ، وتتعهدونه بالصبر والبسالة ، حتى يأذن الرب فيشق سنا النور البهيج ظلمات هذا الليل الدامس ..

وكان كاموس يصغى اليه فى هدوء وسكينة ، فقال له :

— فلتهاجر الأسرة الى بلاد النوبة ، أما أنا فأوثر أن أسير على رأس جيشى اقاسمه حظه فى الحياة أو الموت .

فساور القلق القائد ، ونظر الى مولاه بعين رجاء وتوسل ، وقال :

— مولاى ، لن أستطيع أن أثنيك عن ارادة تريدها ، فلأكل الأمر ، حكمتك ، ولا أسألك الا أن تصغى الى قليلا ...

مولاى ، ان القتال اليوم عبث ضائع ، ومعناه الهلاك المبين ، ومصر تنتفع بموتك ، ولا موتك بمخفف عنها بعض آلامها ، ولكنها بغير شك سر بفقدان حياتك خسارة لا تعوض ... ان كل أمل فى النجاة منوط ياتك ، فلا تحرم مصر الأمل بعد أن حرمت السعادة ... فاجعلوا نباتا » هدفكم ، وشدوا اليها الرحال ، وهناك يتسع لكم المجال تفكير والتدبير واعداد وسائل الدفاع والكفاح . ولن تنتهى هذه الحرب ما يتمنى أبو فيس . فلا يتسنى لشعب كشعبنا عاش سيدا كريما ، ن يطرق على الذل طويلا . ولسوف تحرر طيبة يا مولاى فى تاريخ ريب : ولن تقف بك الحماسة عند حد ، فتطارد الرعاة القذرين حتى طردهم من وطنك .. ان سنا ذاك اليوم الأغر يتخايل لعينى فى ظلمات الحاضر الكئيب ، فلا تتردد واعزم عزمة الحكمة . والآن وقد بينت لك نهج الحق ، فأقض بما أنت قاض ..

وكف بيبى عن الكلام ، وما كفت عيناه عن التوسل والرجاء ، وتحولت توتيشيرى الى كاموس ، وقالت بصوت خافت :

— لقد نطق القائد بالحق فاتبع قوله .

فأحس القائد البائس بندى الأمل ، وانتعش فؤاده بالفرح ،

ووجم كاموس ولم ينبس بكلمة ، فقال بيبى وكان يكذب أول مرة فى حياته :

— أما أنا يا مولاى فسألحق بكم بعد حين .. فأمامى واجبان مقدسان : أن أعنى بجثة مولاى ، وأن أشرف على تحصين أسوار طيبة ، لعلها بالمقاومة الناجحة تساوم على التسليم بأحسن الشروط .

ولم تتمالك الملكات فأجهشن بالبكاء ، وغلب التأثر بيبى فقال :

— ينبغى أن نواجه محنتنا بشجاعة ، وليكن لنا فى سيكننرع أسوة حسنة ، ولنتذكر دائما يا مولاى أن العجلات الحربية هى سبب هزيمتنا ، فاذا كررت يوما على العدو ، فلتكن العجلات عتادك . والآن سأذهب لأدعو العبيد الى حمل الثمين الغالى من ذهب القصر وسلاحه ، مما لا غنى عنه ..

نطق القائد بيبى بهذه الكلمات ، ثم ذهب ..

١٢

وانبعثت فى القصر حركة نشاط شاملة . وأضيئت حجراته جميعا ، ومضى العبيد يحملون الثياب والسلاح وصناديق الذهب والفضة ، ويذهبون بها الى السفينة الفرعونية فى سكون محزن ، تحت رقابة رئيس الحجاب ، وكانت الأسرة الفرعونية فى أثناء ذلك تنتظر فى حجرة الملك كاموس ، تشملها الكآبة والصمت ، ينكس أفرادها النبلاء رءوسهم ، مظلمة أعينهم من اليأس والحزن ، ولبثوا على حالهم ما لبثوا ، حتى دخل عليهم الحاجب حور ، وقال بصوت خافت : « انتهى كل شىء يا مولاى » .

ووقعت كلمة الحاجب من آذانهم موقع السهم من العنق ، فخفقت قلوبهم ، ورفعوا وجوههم ذاهلين ، وتبادلوا نظرات القنوط والكمد .

احقا انتهى كل شيء .. وهل أزفت ساعة الوداع ؟ .. أهذا آخر العهد بالقصر الفرعوني ، وطيبة المجيدة ، ومصر الخالدة ؟ .. وهل يحرم عليهم غدا أن يروا مسلة امنمحعت ، ومعبد آمون ، والسور ذا الأبواب المائة ؟ .. أتضيق بهم طيبة اليوم ، وتفتح أبوابها غدا لأبو فيس يعتلى عرشها ويتحكم فى الرقاب ؟!. كيف يغدو الهداة ضالين ، والسادة فارين ، وأصحاب الدار مهاجرين ؟ .

ورآهم كاموس لا يتحركون ، فقام فى تثاقل وتمتم قائلا بصوت خافت : « هلموا نودع حجرة أبى » . فقاموا قومته ، وسارت الأسرة فى خطى ثقيلة متخاذلة الى حجرة الملك الراحل ، ووقفوا أمام بابها المغلق متهيبين لا يدرون كيف يقتحمونه دون اذن ، ولا كيف يلقونها مهجورة . وتقدم حور خطوة وفتح الباب ، فدخلوا تسبقهم أنفاسهم المترددة وزفراتهم الحارة ، وعلقت أبصارهم فى رفق وحنان بالديوان العظيم ، والمقاعد الوثيرة ، والمناضد الأنيقة ، وهامت أرواحهم حول مصلى الملك ، والمحراب الجميل الطاهر وقد نحتت عليه صورته جاثيا أمام الرب آمون ، فخالوه جميعا جالسا على ديوانه ، متكئا على وسادته ، يبتسم اليهم ابتسامته الحلوة ، ويدعوهم الى الجلوس ، واحسوا جميعا روحه تغمرهم وتطوف بهم ، فحلقت أرواحهم الحزينة فى سماء الذكريات ، ذكريات الأمومة والزوجية والبنوة ، اختلطت آثارها بتنهدهم العميق ودمعهم المسيل ..

ثم تنبه كاموس الى القلوب المنصهرة من حوله ، فدنا من صورة أبيه وانحنى لها باجلال ، ولثم جبينها ، وتنحى جانبا ، فتقدمت توتيشيرى ومالت على الصورة الحبيبة ، وقبلتها قبلة أودعتها آلام قلبها الثاكل المحزون ، وودعت الأسرة جميعا صورة ربها المفقود ، ثم مضوا الى الخارج فى صمت حزين كما دخلوا ..

ورأى كاموس الحاجب حور فى انتظارهم ، فسأله قائلا :

— وأنت يا حور ؟ ..

— ان واجبى يا مولاى أن اتبعكم كالكلب الأمين ..

فوضع الملك يده على كتفه شاكرا ، وتقدموا جميعا فى الردهات ذات الأعمدة ، يسير بين أيديهم القائد بيبى ، ويمشى كاموس فى طليعة أسرته ، يتبعه الأميران الصغيران أحمس ونيفرتارى ، فتوتيشيرى ، فالملكة أحوتبى ، ثم الملكة ستكيموس ، ويتبع الجميع الحاجب حور . وهبطوا الأدراج الى ممر الأعمدة ، وانتهوا الى الحديقة ، فسايرهم على الجانبين عبيد يحملون المشاعل ويضيئون لهم السبيل ، فبلغوا السفينة ، وانتقلوا اليها واحدا اثر واحد حتى شملتهم جميعا . وحم الفراق ، فالقوا نظرة الوداع ، وتاهت أعينهم فى الظلام المخيم على طيبة كأنه يلفها فى ثوب حداد ، فتقطعت قلوبهم ، وتصدعت صدورهم وعصر الم الحنين قلوبهم الكسيرة وشملهم الصمت فكأنهم ذابوا فى الظلام ووقف بيبى بين أيديهم لا ينبس بكلمة ، ولا يجرؤ على خرق هذا الصمت الحزين ، حتى تنبه الملك لوجوده ، فتنهد وقال له :

— ازفت ساعة الوداع .

فقال بيبى بصوت متهدج حزين ، وهو يغالب عواطفه مغالبة شديدة :

— مولاى ، وددت لو أدركنى الموت قبل أن أقف موقفى هذا ، فليكن عزائى أنكم تسيرون فى سبيل الرب آمون وطيبة المجيدة ، وأرى أن ساعة الوداع قد أزفت حقا كما تقول يا مولاى ، فسيروا يحفظكم الرب برحمته ، ويكلأكم بعين رعايته ، وانى أرجو أن يمتد بى العمر حتى أشهد يوم عودتكم كما شهدت يوم هجرتكم ، كى يسعد قلبى برؤية طيبة العزيزة مرة أخرى .. الوداع يا مولاى .. الوداع يا مولاى ..

— بل قل الى الملتقى ..

— نعم الى الملتقى يا مولاى ..

واقترب من مولاه وقبل يده ، وكان ما يزال يغالب عواطفه

كى لا يبل يدا كريمة بدمعه . وقبل يد توتيشيرى ، والملكة أحوتبى ، والملكة ستكيموس ، وولى العهد أحمس ، وشقيقته الأميرة نيفرتارى ، ثم شد على يد الحاجب حور بمودة ، وحنى رأســه للجميع ، وغادر السفينة فى سكون وذهول ..

وعلى أدراج الحديقة وقف يشاهد بدء تحركها وقد ضربت المجاديف فى الماء ، وأخذت تبتعد عن الشاطىء على مهل وتؤدة كأنها تحس وطأة حزن من عليها ، وقد تجمعوا على حائطها ، تودع أرواحهم الخافقة طيبة .. وأفلت منه زمام نفسه فبكى .. واستســلم للبكاء حتى انتفض جسمه . وما زال يتبع السفينة العزيزة وهى تغوص فى الظلمة حتى ابتلعهــا الليل .. ثم تنهــد من أعماق صــدره ، ولبث على حاله لا يدرى كيف يبرح الشاطىء ، وقد أحس وحشة كأنه هوى حيا الى قبر عميق . ثم تحول عن موقفه ببطء وعاد الى القصر بخطى بطيئة متثاقلة ، وكان يتمتم قائلا : مولاى .. مولاى .. أين أنت ؟ أين أنتم يا ســادتى ؟ . أين أنتم يا حماة طيبة ؟ أتقع هذه الأحداث ولا تثور الزلازل ؟ يا أهل طيبة ، كيف تهجعون والموت يحلق فوق رقابكم ؟ . هبوا .. لقد قتل سيكننرع وهاجرت أسرته الى أقصى الأرض وأنتم نيام .. هبوا .. لقد خلا القصر من سادته .. وودع طيبة ملوكها .. وسيعتلى عرشكم غدا عدو لكم . كيف تنامون ؟. هبوا .. ان الذل وراء الأسوار ..

ثم أخذ القائد مشعلا ، وسار فى ردهات القصر حزينا واجما يتنقل من جناح الى جناح ، فوجد نفسه أمام بهو العــرش ، واتجه نحوه واجتاز عتبته وهو يقول : « معذرة يا مولاى عن دخولى دون اذن » وتقدم بخطى متخاذلة على ضوء مشعله بين صفى المقاعد التى كانت تعقد عليها الأمور وتبرم ، الى ان انتهى الى عرش طيبة ، وجثا على ركبته ، ثم سجد وقبل الأرض بين يديه ، ثم وقف أمامه حزينا ، وضوء المشعل يعكس على وجهه أحمر مرتعشا ، وقال بصوت جهير :

— حقا لقد انطوت صفحة جميلة خالدة ، وسنكون نحن الموتى غدا أسعد أهل هذا الوادى الذى لم يعرف الليل أبدا ، أيها العرش .. يحزننى ان أبلغك ان صاحبك لن يعود اليك ، وأن وريثك مضى الى بلد بعيـــد ، وأما أنا فلن أســـمح بأن تكون منزل وحى الكلمات التى تشـــقى مصر غدا ، فلن يجلس عليـــك أبو فيس ، ولتطو كما انطوى سيدك ..

وكان بيبى قد اعتزم أن يدعو جنودا من حرس القصر ، ليحملوا العرش الى حيث يريد .

١٣

وحمل الجنود العرش كما أمروا ، ووضعوه على عربة كبيرة . وتقدمهم القائد الى معبد آمون ، وهناك حملوا العرش مرة أخرى ، وساروا وراء قائدهم تسبقهم بعض الكهنة الى البهو المقدس . وفى المثوى المقدس ، قريبا من قدس الأقداس ، رأوا الهودج الفرعونى محاطا بالجنود والكهنة ، فوضعوا العـــرش الى جانبه ، وقد علت الدهشة وجوه الكهنة الذين لم يعرفوا من الأمر شيئا . وأمر بيبى الجنود بالانصراف ، وطلب حضور الكاهن الأكبر ، وغاب الكاهن زمنا يسيرا ، ثم عاد يتبع كاهن آمون الذى قدر خطر الزيارة الليلية فأتى مسرعا ومد يده للقائد وهو يقول بصوته الهادىء :

— طاب مساؤك أيها القائد .

فقال بيبى بلهجة دلت على الاهتمام والجزع :

— وطابت لياليك يا صاحب القداسة .. هل تأذن لى بالانفراد بقداستك ؟ وسمع الكهنة قوله فانسحبوا سريعا على تطلعهم وقلقهم حتى خلا المكان ، وتنبه الكاهن الأكبر للهودج والعربة ، فبدا الانزعاج على وجهه ، وقال للقائد :

ـ ما الذى أتى بالعربة الى هنا ؟ .. وما هذا الهودج ؟ .. وكيف تركت الميدان فى هذه الساعة من الليل ؟ ..

فقال بيبى :

ـ اصغ الى يا صاحب القداسة ، فما من فائدة ترجى من التأنى ، أو من تهوين شأن ما نحن فيه ، ولكن ينبغى الاصغاء الى حتى النهاية لأفضى الى قداستكم بما عنــدى ، وأمضى الى واجبى : لقد وقعت واقعة ستتذكر الى الأبد ، مصحوبة بالألم والفخار معا ، ولا عجب فقد خسرنا موقعة مصر ، وقتل مليكنا وهو يدافع عن وطنــه ، ومزقت الأيدى الغادرة جثته الطاهرة ، واضــطرت أسرتنا الملكية الى هجر طيبة . وسيصحو أهل طيبة فلا يجدون أثرا لملوكهم ولا لمجدهم ..

مهلا يا صاحب القداسة مهلا .. لقد انتصف الليل أو كاد ، وواجبى يهيب بى أن أعجل . ان هذا الهودج يحمل جثــة مليكنا ،سيكننرع وتاجه ، واليك عرشه . هذا تراثنا القومى أعهد به اليك يا كاهن آمون ، لكى تحفظ الجثة وتودعها مكانا أمينا ، وتحفظ هذه المخلفات فى مستقر حريز .. والآن أستودعك الرب يا كاهن طيبة ، التى لن تموت وان أثخنتها الجراح .

وكان الكاهن قد هم أن يقاطع القائد من فرط انزعاجه ، ولكن القائد لم يمكنه ، فصمت صمتا ثقيلا ، وجمد جمودا مطلقا ، فكأنه فقد حواســه جميعا . وأدرك بيبى ما يعانيــه الرجل من الذهول والألم ، فقال :

ـ انى أســتودعك الرب يا صــاحب القداســة ، مطمئنا الى أنك ستقوم بواجبك كاملا نحو المخلفات العزيزة المقدسة ..

وتحول القائد عنه الى الهودج . وانحنى اجلالا حتى لثم غطاءه ، وأدى له التحية العسكرية ، ثم تقهقر الى الوراء وقد حجبت مدامعه الهودج عن عينيه ، حتى بلغ السلم المؤدى الى بهو الأعمدة ، فأدار ظهره وسار مسرعا لا يلوي على شيء الى خارج المعبد ، وشعر بأنه قد

آن له أن يلحق بضـــباطه وجنوده ، ليهجم معهم الهجــوم الأخـــير كما عاهدهم .

على أن استغراقه فى واجباته لم ينسه أمرا ما تخايل لذاكرته حتى أحس له غمزا على قلبه لا يسكن ، ذكر أسرته ، ابانا زوجه وابنه الصغير أحمس ، وأهله جميعا الذين تضمهم مزرعته فى ضواحى طيبة . ما أطول السفر .. انه لا يستطيع قطع الطريق الى مزرعته فى الليل ؛ ولو فعل ما استطاع أن يفى بعهده لجنوده ولظنوه هاربا . فسيلقى حتفه دون أن يلقى نظرة وداع على وجه ابانا وأحمس .. وكان هنالك ما هو أثقل على قلبه من هذا ، وكان يتساءل محزونا : هل يترك الرعاة صاحب أرض فى أرضه ، أو صاحب مال لماله ؟ ، سيشرد السادة غدا أو يقتلون فى ديارهم ، وستغدو ابانا وأحمس بلا نصير .. وضاق الرجل ، ونازعه قلبه طويلا الى بيته وآله ، ولكن قلبه كان فى سبيل ، وارادته الحديدية فى سبيل سواه .. وتنهد آسفا وهو يقول : « فلأكتب لها كتابا .. » وبسط على عجلته ورقة وكتب الى السيدة ابانة يقرئها السلام ويستودعها الرب ، ويدعو لابنه بالخلاص والسعادة ، ثم قص عليها ما وقع من أحداث ، وما صار اليه الجيش ومليكه . واخبرها بهجرة الأسرة المالكة الى مكان مجهـــول — ولم يذكر النوبة لحكمة يريدها — ونصح لها أن تجمع ما تستطيع من ماله ، وتفر وابنها ومن يتبعها من الأهل والجيران الى خارج طيبة ، أو الى الأحياء الفقيرة ؛ حيث يختلطون بعامة الشعب ويشاركونهم مصـــائرهم . ثم باركها وبارك ابنه ، وختم كتابه بقوله : « سنلتقى حتما يا ابانا هنا أو فى العالم السفلى » وأعطى الكتاب سائقه ، وكلفه أن يذهب به الى قصره الريفى ويسلمه الى زوجه ، ثم قفز الى عجلته والقى نظرة أخيرة على معبد آمون والمدينة الهاجعة الغارقة فى الظلام ، وهتف من صميم قلبه : « رباه .. احفظ بلدك .. الوداع يا طيبة .. » .

ثم أرخى العنان لجواديه ، فانطلقا به يعدوان فى طريق الشمال .

١٤

وبلغ القائد المعسكر بعد منتصف الليل ، وكان الجيش الجريح نائما ، فمضى الى خيمته وارتمى على سريره فى أعياء وهو يقـــول : « فلنستجم قليلا لنموت ميتة تليق بقائد قوات سيكننرع » . وأغمض جفنيه ، ولكن بعض أخيلة قامت غشاء كثيفا بين رأسه وبين النوم ، فتخايلت له أشباح الأهوال التى ابتلى بها فى نهاره وليله ، فرأى الرماة وهم يلقون العجلات المنصبة عليهم كالسيل ، ومولاه سيكننرع يسقط صريعا والرمح فى جانبه ، وكاموس يثور غاضبا ، ثم يسلم محزونا ، وتوتيشيرى تئن من جرح قلبها العجوز ، ووداع ابانا وأحمس الصغير ، وتلك السحب المتبلدة التى تتجمع فى أفق الجنوب .. ثم اختلطت الأخيلة فيما يشبه الموج ، ورقت وتهافتت بغير شعور منه ، فانساب النوم الى جفونه .

واستيقظ حين الفجر على صوت النفير ، فقام يحس نشاطا غريبا لا يتفق وما لاقاه من ارهاق ونصب ونوم خفيف ، وبرح خيمته الى الخارج ، فسمع فى سكون الفجر حركة تنتفض فى أنحاء المعسكر ، ورأى أشباح رجال تقبل نحوه عرف من أصواتهم ضباطه البواسل المخلصين ، فاستقبلهم استقبالا حارا ، وكانوا قد قاموا فى أثناء غيبته بعمل عظيم ، فقال رجل منهم :

ــ ارسلنا الجرحى فى قوارب الى طيبة ، وكذلك المصابين اصابات خفيفة ، لكى ينضموا الى قوات الدفاع عن أسوار طيبة . وما من شك فى أن طيبة ستحسن الدفاع عن نفسها حتى تنال أحسن الشروط .

وقال له ضابط آخر شديد الحماسة :

ــ اننا ــ معشر أهل الجنوب ــ تهون علينا الحياة فى أرقات المحن ،

فما من رجل منا الا نفد صبره فى انتظار المعركة الأخيرة .

وقال ثالث :

— ما أشهى الاستشهاد الى نفوسنا فى هذه البقعة المقدسة ، التى ارتوت بدماء مليكنا الزكية . .

فأثنى بيبى عليهم جميل الثناء ، وقص عليهم ما وقع فى طيبة من هجرة الأسرة الفرعونية ، ولكنه لم يذكر لأحد المكان الذى قصدت اليه . وقد بلغ التأثر بالضباط مبلغا عظيما ، وهتفوا لكاموس الملك ، وأحمس ولى عهده ، والأم المقدسة توتيشيرى . .

وولت ظلال الظلام ، وانعكس الضياء الوضاح على سماء الأفق ، فانتظمت صفوف الجنود تأهبا لمعركة الموت ، وكان ملك الرعاة يدرك ما حل بجيش المصريين بعد مقتل مليكهم ، فأراد أن يصعقهم بقوات تشل فيهم كل مقاومة فتأهب على رأس قواته من العجلات والرماة ، ليقضى بضربة واحدة على الجيش الصغير الذى يعترض سبيله . . وحين تراءى الجمعان ، بدأ القتال واتصل البحر المتلاطم بالجدول الصافى ، وأطبق جيش أبو فيس على الجيش المصرى ، ودارت عجلة الموت ، وبذل المصريون كل ما فى طاقة البشرية من بسالة وبطولة ، لكنهم تساقطوا سريعا بطلا فى اثر بطل ، وداستهم أرجل الخيل بقساوة ، وبدا لعينى بيبى أن المعركة تنتهى سريعا ، ولا سيما لما شاهده من مصارع كثير من القواد والضباط ، ورأى جناحه الأيمن يفنى فناء عاجلا ، والعدو يوشك أن يحيط بهم ، وكان يقاتل قتالا مروعا ، ويصد هجمات بالغة العنف ، فأراد أن يختم حياته أكرم الختام ، وجال بنظره فى جيش عدوه ، فثبت على قلبه حيث يرفرف علم الهكسوس على أبو فيس وكبار قواده — وبينهم قاتل سيكننرع بغير شك — فجعله هدفه ، وأمر حرسه أن يتبعه ليدافع عن ظهره . ثم أمر سائقه بالاندفاع ، وكانت حركة مفاجئة لم يتوقعها العدو الحذر نفسه ، وتفادت عجلته مما تعرض لها من عجلات ، وأرسلت سهامها إلى قلوب الرماة ، ومضت

تدنو من أبو فيس حتى فطن الأكثرون الى غرضها ؛ فتصايحوا غضبا وخوفا ، وقاتل بيبى ومن معه قتال من جن بحب الموت ، فتدلل عليهم الموت طويلا حتى شقوا الصفوف الى جبهة أبو فيس وقواده ، وهنالك وجد بيبى نفسه محاطا بفرسان العدو من كل جانب ، ورأى مئات من الرجال يحولون بين عجلته وبين الملك ، فقاتل قتالا عنيفا والدماء تسيل من وجهه وعنقه وساقيه ؛ حتى ظن عدوه أنه شيء لا يموت ؛ وتكالبت عليه السهام والرماح ، والسيوف والخناجر ، فسـقط كما سقط سيكننرع لاحقا بحرسه البواسل ، وقد ضج الجيش من هجمته الهائلة . وكان القتال — فى الميدان — فى نهايته ، والمصريون يلفظون آخر أنفاسهم . فأمر أبو فيس بالابتعاد عن جثة الرجل الذى انقض عليه خلال صفوفه المتراصة ؛ ونزل من عجلته وترجل دانيا منه ، حتى وقف على رأس جثته ، وجعل يتأمل السهام المنغرسة فى كل قطعة منه كشعر القنفذ ؛ ثم هز رأسه الكبير ضاحكا ؛ وقال لمن حوله :

— لقد مات ميتة جديرة بأشجع رجالنا . .

١٥

واستيقظت طيبة كعادتها لا تدرى عما سطر لها فى لوح الأقدار شيئا ، واذا بالقرويين يحملون الجرحى آتين من الميدان ، فتجمع الناس حولهم ، وتكاثروا بالأسئلة عليهم ، وروى لهم هؤلاء الأنباء على حقيقتها فقالوا لهم ان الجيش هزم وفرعون قتل ، وهاجرت أسرته الى مكان مجهول ، وذهل الناس وتبادلوا نظرات الانكار والانزعاج ، وذاع الخبر فى المدينة فأشاع فيها الاضطراب والتقلقل ، ففارق الناس ديارهم ، وهرعوا الى الطرق والأسواق ، وتجمعوا فى دور الحكومة ومعبد آمون ليأنسوا بالجماعة ويستمعوا الى زعمائهم . أما أصحاب الضياع والقصور من النبلاء والأغنياء فقد هجروا ضياعهم وقصورهم مذعورين . وفروا جماعات الى الجنوب أو اختفوا فى ثنايا الأحياء الفقيرة ..

وجاءت أخبار اسيفة أخرى عن سقوط قسى وشنهور ، وأن جيوش الرعاة تتقدم نحو طيبة لضرب الحصار حولها ، واجبارها على التسليم . فاجتمع الوزراء والكهنة والقضاة الثلاثون فى بهو الأعمدة بمعبد آمون ، وتشاوروا فى الأمر ، وكانوا جميعا يدركون خطر الحال ويحسون دنو النهاية وعبث المقاومة . ولكنهم لم يميلوا الى التسليم دون شرط أو قيد ، ورأوا أن يقوموا خلف أسوارهم المنيعة حتى ينالوا وعدا بحقن دماء الأهالى ، الا أوسر آمون فكان شديد الحماسة ثائر الغضب ، فقال لهم :

— لا تسلموا طيبة أبدا ، ولنقاوم حتى نموت كمليكنا سيكننرع ؛ ان أسوار طيبة لا تقتحم ، واذا هددت حقا فلنخرب المدينة ونشعل فيها النيران ، ولا نترك لأبو فيس شيئا منها ينتفع به .

وكان أوسر آمون يهدر غاضبا ، ويلوح بيديه كأنه يخطب ، ولكن الرجال لم يتحمسوا لفكرته ، وقال له نوفر آمون :

ـ نحن مسئولون عن حياة أهل طيبة ، وتدميرها يعرض الآلاف منهم للتشرد والجوع والبؤس ، فليكن هدفنا وقد خسرنا الموقعة أن نخفف الآلام ونحصر الدمار ..

وفى أثناء ذلك كان الرعاة يهاجمون السور الشمالى بغير هوادة ، والحراس يقاتلون عنه بثبات وبسالة ، والقتلى تسقط من الجانبين . وتفقد الوزراء الأسوار فاطمأنوا الى المقاومة ، ولكن أسطول العدو هجم على الأسطول المصرى بعد أن جاءه مدد جديد ، ودارت معركة حامية انتهت بتحطيم الأسطول المصرى . وحاصر أسطول الرعاة غرب طيبة ، وأنزل جنودا كثيرين فى جنوبها ، فضرب حصاره الكامل حول المدينة ، وهجم عليها من الشمال والجنوب والشرق هجوما عنيفا ، وجاءت هزيمة الأسطول ضربة قاضية على كل أمل فى اطالة المقاومة ، وهددت المدينة العظيمة بالمجاعة والظمأ ؛ فلم ير الزعماء بدا من التسليم تفاديا من الكارثة العظمى ، وأوفدوا ضابطا يعلن وقف القتال ، ويستأذن فى قدوم رسول عن المدينة للتحدث فى شروط التسليم النهائية . وعاد الضابط بالموافقة ، فوقف القتال فى جميع الأسوار ، واختار الزعماء نوفر آمون كاهن آمون الأكبر ليكون رسولا .

وقبل الكاهن على غضاضة ، وركب عربته فسارت به نحو معسكر الرعاة مثقل الرأس كسير الفؤاد ، ومر فى طريقه بالفرق المختلفة متراصة الصفوف فى قوة وصلف وزهو ، تخفق عليها الأعلام من كل لون . ثم وقفت العربة فترجل فى سكون ، ووجد فى استقباله بعض الضباط يتقدمهم رجل قصير القامة بدين كثيف اللحية ، عرفه من النظرة الأولى ، فهو الرسول خيان نذير الشؤم الذى حل بحلوله

الدمار بمملكة طيبة ، ولم يغب عنه ما فى اســتقباله من الشــماتة المقصودة . وبدا الرجل صلفا متعجرفا مزهوا ، فنظر الى نوفر آمون بمؤخر عينه ، وقال دون تحية :

— أرايت أيها الكاهن الى أى مصير انتهى بكم رأى أميركم ؟ ... انكم تتحمسون كثيرا وتحسنون الكلام ، ولكن لا قبل لكم بالقتال ... ولقد قضى على مملكتكم بالزوال الى الأبد ...

ولم ينتظر الحاجب كلاما فسار أمامه نحو خيمة الملك ، ورأى نوفر آمون الخيمة كالسرادق مسـدلة عليها الستائر ، يقف أمامها الحراس البيض الغلاظ ذوو اللحى الطويلة .. ثم أذن له فدخل ، ورأى فى الصدر الملك أبو فيس فى زى الفراعين وعلى رأسه تاج مصر المزدوج ، وكان مهيب الطلعــة حاد البصر أبيض مشربا بحمرة ، مسترسل اللحية جميلها ، وسط هالة من قواده وحجابه ومستشاريه ، فانحنى له الكاهن فى اجلال ، ووقف صامتا ينتظر أمره ، فقال الملك بلهجة ساخرة :

— أهلا بكاهن آمون الذى لن يعبد بعد اليوم بأرض مصر .

فأغضى الكاهن ولم ينبس بكلمة ، فضحك الملك ضـحكة عالية وسأله بتهكم :

— أجئت تملى علينا شروطا ؟

فقال نوفر آمون :

— بل جئت أيها الملك لأستمع الى شروطك ، كما ينبغى لزعيم قوم خسروا معركتهم وفقدوا مليكهم ، وليس لى سوى رجاء واحد أن تحقنوا دماء شعب ما شهر سلاحه الا ذودا عن كيانه ..

فهز الملك رأسه الكبير وقال :

— يحسن بك أيها الكاهن أن تصغى الى ، ان قانوس الهكسوس لا يتغير على مدى الأيام والأجيال ، وهو سنة الحرب والقوة الى الأبد . نحن بيض وأنتم سمر ، ونحن سادة وأنتم فلاحون ، فالعرش والحكومة

والامارة والأرض لنا ، فقل لقومك : من يعمل فى أرضنا عبدا فله اجره ، ومن تأب عليه نفسه فليول نفسه وجهة يرضاها فى غير هذه الأرض ، وقل لهم : انى أهدر دم بلد كامل اذا أمتدت يد بسوء الى أحد من رجالى . واذا أردت أن أحقن دماء الناس — فيما عدا أسرة سيكننرع — فليأت الى سادتكم بمفاتيح طيبة سجدا .. أما أنتم أيها الكهنة فعودوا الى معبدكم وأغلقوا عليكم ابوابه الى الابد ...

ولم يرد أبو فيس أن تمتد المقابلة الى أكثر من هذا ، فقام واقفا ايذانا بانتهائها ، فانحنى الكاهن مرة أخرى وفارق المكان .

وشربت طيبة الكأس حتى ثمالتها ، فحمل الوزراء والقضاة مفاتيحها وذهبوا بها الى أبو فيس وسجدوا له .. وفتحت طيبة أبوابها ودخلها أبو فيس على رأس جيوشه الغازية الظافرة ..

وفى ذلك اليوم أهدر الملك دماء أسرة حاكم طيبة ، وأمر باغلاق الحدود بين مصر والنوبة ، ثم احتفل بالنصر احتفالا عظيما اشتركت فيه الجيوش جميعا ، وقسم الأرض والأموال بين رجاله . فصار الجنوب ملك يده ارضا ورجالا .

بعد عشرة أعوام

١

انقشعت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة ، فتبدت صفحة النيل تتنفس نسائم الغسق ، تنحدر عليها قافلة من السفن تولى وجهها شطر حدود مصر شمالا . كان بحارتها نوبيين ، أما قائداها ــ اللذان جلسا بمقصورة السفينة المتقدمة ــ فكانا مصريين كما يدل لون بشرتهما الأسمر ، وقسماتهما الواضحة . وكان أولهما شابا لا يكاد يبلغ العشرين من عمره ، حبته الطبيعة طولا فارعا ، وقدا نحيلا دقيقا ، وصدرا عريضا متينا ، ينطق وجهه المستطيل بالنضارة والجمال الفائق ، وعيناه السوداوان بالصفاء والحسن ، وأنفه المستقيم الأشم بالقوة والتناسق ، فهو من الوجوه التى أودعتها الطبيعة جلالها وجمالها معا ، يرتدى لباس التجار الأثرياء ، ويلف جسمه الرشيق فى عباءة ثمينة ، قدت على صورة جسمه . وكان صاحبه شيخا فى الستين ، يميل الى النحافة والقصر ، بارز الجبهة فى استواء وارتفاع ، تدل جلسته على الهدوء الذى يلازم الشيخوخة غالبا ، وأما نظرة عينيه فتنفذ الى الأعماق .. وكان يبدو أن همه منصرف الى العناية بالشاب ، أكثر مما هو منصرف الى التجارة التى تحملها السفن ، فلما دنت القافلة من منطقة الحدود ، برحا المقصورة ومضيا الى مقدمة السفينة ، يتطلعان بعينين مشوقتين جرى فيهما الحنين ، ثم سأل الشاب بحماس وجزع :

ــ هل ترى تطأ أقدامنا أرض مصر ؟ . قل ماذا نحن فاعلون الآن ؟ ..

فقال الشيخ :

ـــ نرسى القافلة على هذا الشاطىء ، ونبعث فى قارب رسولا الى الحدود ، يبتغى لنفسه سبيلا يمهده بقطع الذهب ..

ـــ ان اعتمادنا كله على ما عرف به القوم من طاعة الرشوة وتلبية نداء الذهب .. اما لو خاب ظننا ..

وسكت الشاب عن الكلام وقد لاح فى عينيه القلق ، فقال الشيخ :

ـــ ما دام الظن سوءا فانه لا يخيب مع هؤلاء القوم ...

وعدلت السفينة الى الشاطىء ، فتبعتها القافلة والقت مرساتها .. واختار الشاب أن يكون هو مبعوث القافلة الى الحدود ، وكان عظيم الحماسة قوى التصميم ، فلم يعترض الشيخ سبيله ؛ وانتقل الى قارب وجدف بساعديه المفتولتين مفارقا القافلة نحو الحدود ، وتبعه الشيخ بعينيه وهو يقول برجاء مؤثر : « أيها الرب المعبود آمون .. هذا ابنك الصغير يسعى الى وطنه وراء غرض نبيل ؛ أن يعز سلطانك ، ويرفع ذكرك ، ويحرر أبناءك ، فأيده يارب وانصره واحفظه .. » .

ومضى الشاب يجدف فى قوة ، وظهره الى هدفه ، يستدير لينظر وراءه كل هنيهة وقد اضطرم صدره بالحنين ، وأحس لهواء الوطن وهو يدنو من جوه لذة جديدة ، خفق لها قلبه أيما خفقان ، ثم رأى فى احدى التفاتاته سفينة حربية صغيرة تصعد نحوه معترضة سبيله ، فأيقن أن حراس الحدود تنبهوا له ، وجاءوا يتحققون من أمره . ودنا بقاربه من السفينة حتى سمع صوت الضابط الواقف فى مقدمها يصيح به : « كيف تدنو يا هذا من المنطقة الحرام ؟ .. » .

فصمت الشاب حتى شارف القارب السفينة ، ثم حيا الضابط ذا اللحية تحية اجلال وتعظيم ، وقال متبالها :

ـــ باركك الرب ست أيها الضابط الباسل ، انى قاصد وطنكم المجيد بتجارة ثمينة .

فقطب الضابط جبينه وقال بفظاظة :

ـــ خسئت أيها الأحمق ، الا تدرى أن هذا الطريق مغلق منذ عشرة أعوام ؟ ..

فأبدى الشاب الجميل دهشة ، وقال :

ـــ وماذا يصنع انسان مثلى جمع متاعا ثمينا ليتقرب به من فرعون مصر المعبود ورجال مملكته ؟ ... هلا أذنت لى بمقابلة حاكم جزيرة بيجة النبيل ؟ .

فقال الضابط بوحشية :

ـــ بل ستعود من حيث أتيت حيا ، ان لم ترغب فى أن تدفن حيث تثرثر ...

فأخرج الشاب من صدره حافظة من الجلد ملأى بقطع الذهب ، ورمى بها تحت قدمى الضابط قائلا :

ـــ نحن فى بلادنا نحيى آلهتنـــا بتقديم الهدايا ، فاقبـــل تحيتى ورجائى .

فتناول الضابط الحافظة وفتحها ، وعبثت أنامله بقطع الذهب ، فاختلجت أجفانه ، وردد بصره بينها وبين الشاب بذهول . ثم هز رأسه كأنه لا يخفى حنقه على الفتى الذى ثناه عن رأيه قسراً ، وقال بصوت هادىء :

ـــ ان دخول مصر ممنوع ، ولكن قد تستحق رغبتـــك الشريفة استثناءك من أمر المنع ، فاتبعنى الى حاكم الجزيرة .

وابتهج الشاب ، واتخذ مجلسه مرة أخرى فى القارب ، وشـــد على المجداف بقوة ونشاط ، وانحدر متتبعا السفينة صوب شاطىء بيجة : ورست السفينة ثم القارب ، ووضع الشاب قدميه على الأرض فى حذر واشـــفاق ، كأنما يدوس شـــيئا طاهرا مقدسا . وقال له الضـــابط مرة أخرى : « اتبعنى » . فتبعه على الأثر . وبالرغم من تشدده فى التسلط على أعصابه ، أفلت زمامه وتمشت فى حواســـه نشـــوة ؛ وعصر قلبه حنين ســـماوى ، فخفق قلبه خفقانا شـــديدا متواليا ؛ وجعل من شدة اضـــطرام عواطفه يذهل سريعاً . انه فى أرض مصر . مصر التى يحفظ لها أجمل الذكريات ، وأفتن الصور

وابهج الآثار . انه يود لو يترك وحيدا فيملأ صدره من نسيمها العليل ، ويمرغ خديه بثراها .. انه فى أرض مصر .

واستيقظ من حلمه على صوت الضابط الغريب وهو يقول له ثالث مرة « اتبعنى » . فنظر فرأى قصرا جميلا يقف أمامه رجال مسلحون ، فأدرك أنه أمام قصر حاكم الجزيرة . ودخل الضابط ، فتبعه غير مبال لنظرات القوم الحادة التى تصوب نحوه من كل جانب .

٢

وأذن له بالدخول الى بهو الاستقبال بعد أن سبقه الضابط اليه ، كان الحاكم يستقبل فيه من لا يحتاج النظر فى مظالمهم لغير الذهب ، وألقى الشاب نظرة على الحاكم وهو يمضى نحوه ، فلفتت نظره لحيته الطويلة الكثة ، وعيناه اللوزيتان الحادتان ، وأنفه البارز الأقنى كأنه شراع قارب . وكان الرجل يرمق الداخل بعين فاحصة ، ونظرة تدل على الحذر والريبة ، فانحنى الشاب بين يديه باجلال عظيم ، وقال بأدب بالغ :

— ندى الرب صباحك أيها الحاكم الجليل .

وكان الضابط حدثه عن القادم الغريب الذى يرمى فى غير مبالاة بحافظة ملأى بقطع الذهب الوهاج ، ويسوق قافلة محملة بالهدايا ليتقرب بها من سادة مصر ، فرد تحيته باشارة من يده ، وسأله بصوت غليظ أجوف :

— من أنت ؟ ومن أى البلاد ؟

— أدعى يا مولاى اسفينيس ، من بلدة نباتا من بلاد النوبة .

فهز الرجل رأسه بارتياب ، وقال :

— ولكنى أرى أنك لست نوبيا ، وان صدق نظرى فأنت فلاح ..

فخفق قلب اسفينيس لهذا الوصف الذى نطق به الحاكم بلهجة لم تخل من الاحتقار ، وقال :

— صدقت فراسة مولاى ، فأنا حقا .. فلاح . من أسرة مصرية هاجرت الى بلاد النوبة منذ أجيال ، واشتغلت بالتجارة عهدا طويلا حتى أغلقت الحدود بين مصر والنوبة ، فانقطع رزقها .

— وماذا تريد ؟ ..

— لدى قافلة محملة بخيرات البلاد التى قدمت منها ، أرجو بها التقرب والزلفى من سادة مصر ..

فعبث الحاكم بلحيته ، وحدجه بنظراته المرتابة ، وقال :

— أتعنى أنك تجشمت مشاق السفر ، لمحض التقرب والزلفى ؟ .

— سيدى الحاكم الجليل ، نحن نعيش فى بلاد ملأى بالوحوش والكنوز ، الحياة فيها جد قاسية ، والجوع والجدب ينشبان أظفارهما فى الرقاب ، نجيد صياغة الذهب ، ونضنى فى الحصول على قدح من الحبوب ، فاذا تقبل سادتى هداياى ، وأذنوا لى بالمسير بالتجارة بين الجنوب والشمال ، ملأت أسواقكم بالنفيس من الجواهر والحيوان ، وبدلت بؤس قومى انعما ..

فضحك الحاكم ضحكة عالية ، وقال :

— أرى الأحلام تطيح برأسك .. أوليست تبدأ بالسؤال والتضرع ؟ ولكنك ترجو أن يكلل مسعاك باصدار أوامر فرعونية لمصلحتك .. حسنا .. الحمقى كثيرون .. ولكن ماذا تحمل قافلتك من النفائس يا هذا ؟ ..

فحنى اسفنيس رأسه اجلالا ، وقال باغراء التاجر الأريب :

— هلا تفضل مولاى بزورة قافلتى ليطلع بنفسه على نفائسها ، ويختار ما يعجبه من كرائم جواهرها ؟

وتحركت لواعج النهم والجشع فى نفس الحاكم ، فاستطاب الفكرة ، فقال لاسفنيس وهو يهم بالقيام للذهاب معه : « سـأمنحك هذا

الشرف » . وتقدمه الى السفينة الحربية ، ثم الى القافلة ؛ وعرضت لناظريه الحلى والجواهر والحيوان العجيب ، فشاهد النفائس بعين يلتمع فيها نور الجشع الخاطف . وأهدى اليه اسفنيس صولجانا من العاج ذا رأس من خالص الذهب المحلى بالزمرد والياقوت فتقبله بلا كلمة شكر ، وأخذ بنفسه أساور وخواتيم وأقراطا ثمينة ، وانشأ يقول لنفسه . لماذا لا أسمح لهذا التاجر بالدخول الى مصر ؟.. ليست هذه تجارة ، ولكنها هدايا تسبى العقول ، وسيرحب بها فرعون بغير جدال ، فان حقق لصاحبها أمنيته نال ما تمنى . أو رفض مطلبه فلا شأن لى به .. وأمامى فرصة سانحة ينبغى أن أنتهزها ، ان خنزر حاكم الجنوب مغرم بكل نفيس ، فلأبعث بالتاجر اليه فيذكر لى صنيعى على ما أهديت اليه من كنز ، وما أتحت له من فرصة يزداد بها قربا الى مولاه .. فاذا أراد يوما أن يختار لولاية من الولايات الكبرى حاكما ذكرنى بلا ريب :

وتحول نحو اسفينيس وقال :

ـ سأعطيك فرصة لتجرب حظك ، فسر توا الى طيبة ؛ وهاك كتابا الى حاكم الجنوب تذهب به اليه لتعرض نفائسك ، وتسأله الشفاعة فى رجائك ..

واستخف الفرح اسفينيس ، فانحنى للحاكم شكرا وارتياحا .

٣

وكان أول كلمة نطق بها اسفينيس على اثر مبارحة الحاكم لسفينته ، أن قال للشيخ الذى يلازمه :

— منذ هذه الساعة لا أحمس هناك ولا حور ، ولكن اسفينيس التاجر ووكيله لاتو ..

فابتسم الشيخ وقال : « نطقت بالحكمة أيها التاجر اسفينيس .. » .

ونشرت القافلة شراعها ، وتحركت مجاديفها ، فانحدرت مع الموج صوب حدود مصر واجتازتها فى أمان وسلام . وكان اسفينيس ولاتو يقفان عند مقدم السفينة يكابدان شوقا واحدا . تكاد عيناهما تشرقان بالدمع . قال اسفينيس : « بدء حسن » . فقال لاتو : « نعم فلنصل للرب آمون شكرا ، ونسأله أن يسدد خطانا ويكلل مسعانا بالفوز المبين » . وجثوا على سطح السفينة وصليا معا ، ثم عادا الى وقفتهما . وقال اسفينيس :

— اذا ظفرنا باعادة الروابط مع النوبة الى سابق عهدها ، فقد ظفرنا بنصف النجاح ، فنعطيهم ذهبا ونأخذ رجالا ..

— اطمئن فهم لا قبل لهم بمقاومة اغراء الذهب . الم يفتح لنا الحدود المغلقة منذ عشرة أعوام ؟ .. ان الرجل من الرعاة عظيم العنجهية والصلف شديد البأس ؛ ولكنه كسلان يستخدم غيره ، ويتعالى على التجارة ، ولا يحتمل الحياة فى النوبة ؛ فلا سبيل الى ذهبها الا بمن يتطوع مثل التاجر اسفينيس بحمله اليه ..

ومضيا معا يلقيان ببصرهما الى مجاهل الأفق البعيد الغارق فى مجرى النيل ، يقلبان الطرف فى خضرة ناضرة تكتنف القرى والدساكر ، تحلق فوقها الأطيار ، وترعاها الثيران والبقر نشاوى ؛ والفلاحون يعملون هنا وهنالك عراة لا يرفعون رءوسهم عن الأرض ، فأثار

منظرهم فى صدر الشاب الحب والغضب ، واستمر قلبه حنانا وحنقا ، فقال :

— انظر الى جنود أمنمحيت ، كيف يعملون عبيدا للبيض الحمقى المتعجرفين ذوى اللحى القذرة ..

وتقدم المسير بالقافلة ، فمرت بأمبوس وسلسليس ومجنا ونخب وترت ، فلم يبق دون طيبة سوى ساعة ، وتساءل اسفينيس : أين ينبغى أن ترسو السفينة ؟ فقال لاتو مبتسما : « فى الجنوب من طيبة حيث توجد أحياء الفقراء والصيادين ، وجميعهم مصريون خلص » ، فأمن الشاب على قوله ، ولاحت منه نظرة الى الأمام فرأى على البعد سفينة تسير نحوهم فعلق بصره بها وهى تدنو رويدا رويدا ، حتى استطاع أن يتنورها ؛ فرأى سفينة فخمة جميلة التركيب بادية الأناقة ، تعلو وسطها مقصورة حسناء يتألق فى جوانبها الفن الجميل ، فخال أنه رأى مثلها من قبل . ولكز لاتو فى ذراعه متمتما : « انظر » . فنظر الرجل وقال بسرعة : « رباه ! هذه سفينة فرعونية » ، ثم استدرك : « انها تسير بغير حرس ، فلعل راكبها أحد رجال القصر ، أو أمير يطلب الخلوة .. » ودنت السفينة فكادت تلتقى بالقافلة : وأثار منظر القافلة الغريب تطلع أصحابها ، فبرزت من المقصورة امرأة يتبعها سرب من الجوارى ، تقدمتهن فى أناة كأنها شعاع من النور الساطع يغشى العيون ، شقراء يعبث النسيم بحاشية ثوبها الأبيض ، ويراقص ذؤاباتها الرقيقة الذهبية ، فأيقنا أن صاحبتها أميرة من قصر طيبة تنتجع النسيم ..

ورأياها تشير بأنملتها الى سفينة متأخرة وقد فغرت من الدهشة فاها ، وارتسم العجب كذلك على وجوه الجوارى الحسان . فالتفت اسفينيس الى الوراء ، فرأى قزما من الأقزام التى أتى بها يسير على ظهر السفينة ، فأدرك سر دهشة الأميرة الجميلة . ونظر الى لاتو مبتسما أن لاقت احدى الهدايا ما تستحق من التقدير . ولكن لاتو

كان يرمق المرأة بعينين جامدتين ووجه مكتئب . ونادى النسوة نوتيا ، فتقــدم من حافة الســفينة ، وصــاح موجها خطابه الى لاتو بلهجة أمر لا يرد :

— قف أيها النوبى وألق مرساتك ..

وأذعن اسفينيس للأمر ، وأصــدر أمره الى القافلة بالتوقف . ودنت السفينة الفرعونية من السفينة التى ظهر بســطحها القزم ، وسأل النوتى اسفينيس :

— ما هذه القافلة ؟ ..

— قافلة تجارة يا سيدى .

فأشار بيده الى القزم ، وكان يفر الى باطن السفينة ، وقال :

— هل يؤذى هذا المخلوق ؟

— كلا يا سيدى ..

— ان صاحبة السمو الفرعونى ترغب فى مشاهدة هذا المخلوق عن كثب .

فهمس لاتو قائلا : « هذا لقب ابنة فرعون .. » أما اسفينيس فخفض رأسه باحترام وقال :

— حبا وكرامة ..

وسارع الى مفارقة السفينة الى قارب سار به الى الســفينة الأخرى ، وصعد الى سطحها ليكون فى استقبال الأميرة ، وكانت الأميرة وحاشيتها يقتربن بقاربهن من الســفينة حتى بلغنها ، فصــعدن الى السطح تتقدمهن الأميرة ، فانحنى الشاب بين يديها فى اجلال ظاهر ، وكان يقاوم شــعوره بالاستهانة ، ويتظاهر بالارتباك والاضــطراب ، فقال بتلعثم :

— لقد أوليت قافلتى شرفا رفيعا يا صاحبة السمو ..

ثم رفع رأسه فشاهدها عن كثب بعين خاطفة ، رأى وجها تجسم

فيه الحسن والكبرياء ، ففيه من دواعى الفتنة بقدر ما فيه من نوازع الهيبة ، ورأى عينين زرقاوين يتجلى فى صفائهما التعالى والاقدام . فلم تلق الى تحيته بالا ، ودارت بعينيها فى المكان تبحث دون ريب عن القزم ، وسألته بصوت رخيم يبعث الطرب فى آذان سامعيه :

ـ أين ذهب المخلوق العجيب الذى كان هنا ؟

فقال الشاب :

ـ سيكون بين يديك ..

وذهب الى كوة تطل على باطن السفينة ، ونادى قائلا : « زولو » . وما لبث أن ظهر رأس القزم من الكوة ، وتبعه جسمه ، ثم أقبل على صاحبه ، فأخذه من يده الى حيث تقف الأميرة وجواريها وكان يسير ملقيا بصدره الى الأمام فى خيلاء مضحكة ، وبرأسه الكبير الى الوراء ، ولا يزيد طوله على أربعة أشبار ؛ أما لونه فشديد السواد ، وأما ساقاه فمقوستان . قال له أسفينيس :

ـ حى مولاتك يا زولو .

فانحنى القزم حتى مس شعره المفلفل الأرض ، فاطمأنت الأميرة وسألت وعيناها لا تفارقان القزم :

ـ أحيوان هو أم انسان ؟

ـ هو انسان يا صاحبة السمو .

ـ ولماذا لا نعده حيوانا ؟

ـ له لغته ودينه .

ـ يا عجبا ، وهل يوجد مثله كثيرون ؟

ـ نعم يا مولاتى ، انه ينتمى الى شعب وافر العدد ، فيهم نساء ورجال وأطفال ولهم ملك وسهام مسمومة يسددونها نحو الحيوان المفترس والانسان المغير ؛ ولكن قوم زولو يأنسون الى الناس سريعا ، ويخلصون المودة لمن يصادقهم ، ويتبعونه كالكلب الأمين .

فهزت رأسها المكلل بخصلات الذهب عجبا ، وافتر ثغرها عن در نضيد ، وتساءلت :

ـــ وأين يعيش قوم زولو ؟

ـــ فى أقاصى غابات النوبة ، حيث يرقد النيل المعبود ..

ـــ دعه يحدثنى ان استطعت .

ـــ انه لا يستطيع أن يتكلم لغتنا ، وقصارى جهده أن يفهم بعض الأوامر ، ولكنه سيحيى مولاته بلغته .

وقال اسفينيس للقزم : « ادع لمولاتك دعاء طيبا » .

فاهتزت رأس القزم الكبير كأنه يرعش ، ثم نطق بكلمات غريبة بصوت أدنى الى الخوار ، فلم تملك الأميرة الا أن تضحك ضحكة عذبة ، ثم قالت :

ـــ حقا انه غريب ، ولكنه قبيح لا يسرنى أن أقتنيه ..

فبدا الأسف على وجه الشاب ، وقال بلباقة التاجر الماكر :

ـــ ليس زولو يا صاحبة السمو خير ما فى قافلتى .. اليك دررا تفتن النفوس وتسلب الألباب .

فتحولت فى استهانة عن زولو الى المتباهى بنفائسه ، والقت عليه نظرة فاحصة لأول مرة ، فهالها طوله الفارع ونضارة شبابه ، وعجبت أن يكون هذا المظهر لتاجر من عامة الشعب ، وسألته :

ـــ هل لديك حقا حلى تستحق الاعجاب ؟ ..

ـــ نعم يا مولاتى ..

ـــ اذا أرنى عينة .. أمثلة مما عندك .

وصفق اسفينيس ، فجاءه عبد فألقى اليه كلمات بصوت خافت ، فغاب الرجل هنيهة ، ثم عاد يحمل صندوقا من العاج بمعاونة رجل آخر ، فوضعاه أمام الأميرة وفتحاه ، وتنحيا جانبا . ونظرت الأميرة فى داخل الصندوق ، واشرأبت أعناق الجوارى ، فرأت ما يسر القلب من لآلىء لامعة ، واقراط واساور . وتفحصتها بعين واعية ، ثم مدت يدها البضة الرخصة الى عقد آية فى السذاجة والكمال ، قلب من الزمرد فى سلسلة من خالص الذهب ، وأمسكت القلب بأناملها وتمتمت :

ـــ من أين لك بهذا الحجر النفيس ؟.. ليس فى مصر نظيره ؟
فقال الشاب بابتهاج :
ـــ انه درة كنوز النوبة .
فتمتمت قائلة :
ـــ النوبة . . بلاد زولو . . ما أجمله !
فابتسم اسفينيس وهو ينعم النظر الى أناملها ، وقال :
ـــ أما وقد حاز اعجاب سموك ، فلا يجوز أن يرد الى صندوقه .
فقالت فى سهولة : « نعم . . ولكن ليس لدى ثمنه . . هل أنت ذاهب الى طيبة ؟ . . » .
فقال : « نعم يا مولاتى » .
فقالت : ما عليك الا أن تقصد القصر فتقبض ثمنه .
فانحنى الشاب اجلالا ، والقت الأميرة نظرة وداع على زولو ، ثم تحولت ماضية بقوامها اللدن الرشيق ، يتبعها الجوارى . وتعلقت بها عينا الشاب حتى غيبها عنه حائط السفينة ، ثم تنبه الى نفسه ، فعاد الى سفينته حيث كان لاتو ينتظره على جزع ، وقد بادره :
ـــ ما وراءك ؟ . .
فأجمل له أقوال الأميرة ، وتساءل ضاحكا :
ـــ ترى هل هى حقا ابنة أبو فيس ؟
فقال لاتو بامتعاض :
ـــ هى الشيطانة ابنة الشيطان .
وأيقظته لهجة لاتو الخشنة ونظراته الغاضبة من سباته ، وادرك أن التى أثارت اعجابه ابنة مذل شعبه وقاتل جده ، وأنه لم يشعر فى محضرها بما هى أهل له من المقت والكراهية . وتضايق وخشى أن تكون لهجته وهو يروى قولها نمت عن اعجاب ساء الشيخ الأمين ، وقال لنفسه : ينبغى أن أكون أهلا للواجب الذى جئت هنا من أجله . ولذلك لم يلتفت الى سفينة الأميرة وأطال النظر الى الأفق ، وحاول أن يحقد على الأميرة ، واحس أنها قوة حقيقة بكل مقاومة .. لقد

ذهبت من سبيله الى الأبد ، ولكن .. رباه .. انها جمال يجرى فى أعطافه السحر ، ولا يسع من يبتلى برؤيته الا أن يغمض جفنيه من قوة نوره ..

وذكر فى تلك اللحظة زوجه الصغيرة نيفرتارى ، بقوامها المعتدل ، ووجهها الأسمر الخمرى ، وعينيها السوداوين الساحرتين ، فلم يزد على أن تمتم قائلا : « يا لهما من صورتين متناقضتين جميلتين .. » .

٤

وبدا سور طيبة الجنوبى وأبوابها الرائعات تتصاعد من ورائه الهياكل والمسلات ، فبدا الجلال مجسما يروع الناظرين . ورنا الرجلان الى المدينة بعينين لاح فيهما الحنين والحزن ، وقال لاتو : « حياك الرب يا طيبة المجيدة .. » . وقال اسفينيس : « واخيرا يا طيبة .. بعد أعوام طوال فى المنفى .. » وانعطفت السفينة نحو الشاطىء ، تتبعها على الأثر سفن القافلة ، وقد ضمت الشرع ورفعت المجاديف ، فشقت طريقها بين عدد وافر من زوارق الصيد ملأى بالسمك ، منه ما تزال تدب فيه الحياة ، ويقف فى أوساطها الصيادون بأجسادهم العارية النحاسية وعضلاتهم المفتولة ؛ فانبعث فى نفس اسفينيس نشوة طرب لرؤيتهم ، وقال لرفيقه :

— عجل بنا ، فنفسى مشوقة الى محادثة أى من المصريين ..

وكان الجو معتدلا لطيفا ، والسماء صافية الزرقة ، والشمس مشرقة تغمر أشعتها النيل والشطئان والحقول والمدن ، فنزلا الى الشاطىء يلتفان فى عباءتيهما ، ويضعان على رأسيهما قلنسوتين مصريتين ككبار التجار . وتقدما خطوات نحو حى الصيادين ، وكانت جماعات منهم تقف على الشاطىء ، وأيديها آخذة بحبال الشباك التى ترميها الزوارق فى لجة النيل ، يغنون وينشدون . وكان غيرهم يملأ

العربات بالسمك ، ويلهبون ظهور الثيران المشدودة اليها صوب الأسواق . وعلى مسير دقائق من الشاطىء أقيمت أكواخ صغيرة أو متوسطة الحجم من الآجر ، مسقوفة بجذوع النخيل ، يدل مظهرها على السذاجة والفقر ..

وكان اسفينيس ينتقل من مكان الى مكان ، مرهف الحواس ، مفتوح العينين ، يتفحص الصيادين ويتتبع حركاتهم ويصغى الى اناشيدهم ، وكان يشعر نحوهم بالحنان والحزن المقرونين بالاعجاب والاكبار . وخالط قلبه وهو يشق جموعهم احساس ألفة وطمأنينة ومحبة ، فتمنى لو يستطيع أن يعترض سبيلهم ويضمهم الى صدره ويقبل وجوههم السمر المعناة بالكفاح والفقر . وذكر ما حدثته به عنهم توتيشيرى ؛ فقال لصاحبه :

— يا لهم من رجال أشداء صابرين ..

فقال لاتو ، وكان يشارك الشاب جل عواطفه :

— أحسب هؤلاء الصيادين أسعد حالا من الفلاحين . لأن الرعاة يترفعون عن النزول الى حيهم ، فيعفونهم من غير قصد من صلف أخلاقهم وسوء صنيعهم .

وقطب الشاب غضبا وتألما ولم يتكلم ، وجدا فى السير يلفتان الأنظار بوجاهة منظرهما وفخامة لباسهما . ورأى اسفينيس عن كثب شابا يافعا يتجه نحوهما يحمل سلة ، وكان يرتدى وزرة قصيرة فى خاصرته ، أما بقية جسمه فعار ، وقد بدا طويلا رشيقا ووجهه حسنا ، فقال اسفينيس :

— انظر يا لاتو الى هذا الشاب ، ألم يخلق ليكون فارسا فى فرقة العجلات لولا أن خانه زمانه ؟.

واقترب الشاب منهما ، فرغب فى الحديث اليه ، وحياه بيده وقال :

— حياك الرب أيها الشاب .. هل تدلنا على مكان نستريح فيه ولك الشكر ؟

فوقف الشاب عن المسير وهم بالرد عليه ، ولكنه حين وقعت عيناه عليهما أغلق فمه ، والقى عليهما نظــرة غريبة تفصـــح عن الغضب والاحتقار ، وولاهما ظهره ومضى . فتبادل الرجلان نظرة دهشـــة وانكار ، وتبعه اسفينيس على الأثر واعترض سبيله قائلا :

— أيها الأخ ، ما الذى جعلك تزهد الرد علينا وتولينا ظهرك غاضبا ؟

فصاح به الشاب مزمجرا :

— اليك عنى يا عبد الرعاة .

وابتعد غاضبا وهو يوسع الخطى ، تاركا الشاب فى ذهول وحيرة . ولحقه لاتو وهو يقول :

— انه لمجنون بلا ريب .

— ليس مجنونا يا لاتو ... ولكن لماذا يدعونى عبد الرعاة ؟

— انه لدعاء يثير الضحك .

— نعم ... نعم ... ولكن هبنا صنائع الرعاة ، فكيف تؤاتيه شجاعته فيتحدانا ؟ ... انه لشاب جسور حقا يا لاتو ، ويدل سلوكه معنا على أن عشرة أعوام من حكم الرعاة الخانق لم تستطع أن تستأصل الغضب من النفوس الكريمة .

واستأنفا المسير حتى جذب انتباههما ضجيج عال ، فنظرا يمنة فرأيا بناء كبيرا ذا مدخل صغير فى أعلى حائطه كوات ضيقة ، يدخل اليه جماعات ويخرج منه جماعات ، فســأل الشـــاب صــاحبه : « ما هذا البناء ؟ » . فقال لاتو :

— هذه حانة .

— هلم نشاهدها .

فابتسم لاتو وقال :

— هلم .

٥

ودخلا الحانة معاً ، فوجدا نفسيهما فى مكان متسع حوائطه عالية ، يتدلى من سقفه مصباح يعلوه الغبار ، وفى وسطه وضعت الدنان ، يحيط بها سور طوله ذراعان وعرضـــه ذراع ، اصطفت عليه أكواب الفخار وأحاط به الشاربون . ويقف فى دائرته صاحب الحانة فيملأ الأقداح للملتفين به ، أو يرسلها مع ساق يافع الى الجلوس فى الأركان على أرض الحان . وكان لا يكاد يرفع رأسه عن دنانه فاذا آذاه أحد الشـــاربين بنكتة أو دعابة انتهـــره بخشـــونة وسب وقذف . فجال الرجلان ببصرهما فى المكان ، وأراد اسفينيس أن يزحم الوقوف حول الساقى ، فأخذ صاحبه من يده ، وشق بمنكبيه طريقا الى السور حتى ارتقاه وسط الأعين المحدقة فيهما دهشة وانكارا . وكان أحس شيئاً من التعب ، فقال للخمار مسترسلا :

ــ أيها الرجل الطيب هل نجد عندك مقعدين ؟

فازداد انكار من حوله للهجته وغرابة طلبه ، أما الخمار فرد عليه دون أن يعيره التفاتا :

ــ عفوا أيها الأمير .. ان رواد حانتى ممن يقنعون باقتعاد الغبراء .

وضحك منه ومن صاحبه قوم السكارى ، ودنا منهما رجل قصير القامة غليظ الوجه والرقبة عظيم الكرش ، فانحنى لهما فى هزء ، وقال بتلعثم الثمل :

ــ أيها السيدان ، انى أنزل لكما عن كرشى تقتعدانه .

وأدرك اسفينيس خطأه الذى اساء به الى نفسه والى صاحبه ، فقال يصلح منه :

ــ اننا نتقبل هديتك شاكرين ، ولكن كيف يمكن أن تشرب خمرك المعتقة بغير هذا الكرش ؟

وسر السكارى بسؤال الشاب ، وصاح بعضهم بالرجل الأكرش : « أجب يا طونا .. أجب .. كيف تشرب أقداحك اذا نزلت للسيدين عن كرشك ؟ » .

وقطب الرجل مفكرا ، وهرش رأسه متحيرا وقد تدلت شفته السفلى كقطعة كبد دامية ، ثم أضاءت عيناه المحمرتان كأنما وجد الحل السعيد ، وقال : « أشرب خمراً مهضومة ... » .

فضحك الرجال ، وسر اسفينيس لاجابته ، وقال له متلطفا :

— انى أعفيتك من النزول عن هذا الكرش العظيم ، الذى خلق ليكون زق خمر لا مقعد جلوس ..

ثم نظر اسفينيس الى الخمار وقال له :

— أيها الرجل الطيب املأ ثلاثة أقداح لنا وللظريف طونا ..

وملأ الرجل الأقداح وقدمها الى اسفينيس ، فخطف طونا قدحه وأفرغه فى فمه دفعة واحدة وهو لا يصدق ، ثم مسح فمه بكفه ، وقال لاسفينيس :

— أنت غنى بلا شك أيها السيد الكريم .

فقال اسفينيس مبتسما : « حمدا للرب على نعمائه » .

فقال طونا : « ولكنكما كما أرى من مشابه وجهيكما مصريان ؟ . » .

— صدقت فراستك ، وهل من تناقض بين أن نكون مصريين وغنيين ؟

— نعم ، الا أن تكونا من المقربين الى الحاكمين ..

وهنا قال رجل آخر : « وهؤلاء يقلدون سادتهم فلا ينزلون الى مخالطتنا » .

فتجهم وجه اسفينيس ، وعاودته صورة الشاب الذى صاح به غاضبا منذ حين قائلا : « يا عبد الرعاة » . ثم قال :

— نحن من مصريى النوبة ، وجئنا مصر حديثا ..

وساد الصمت ، ودوت كلمة النوبة فى الآذان دويا غريبا ، ولكن كان القوم سكارى لا يملك هذيان الخمر ناصية عقولهم ، فلا يقدرون

على جمع شتات أفكارهم ، فنظر أحد الرجال الى كأسى الرجلين اللذين لم يقرباهما ، وقال بلسان ثقيل :

ـــ لماذا لا تشربان ، سقاكما الرب أطيب خمر الجنان ؟

فقال لاتو : « قليلا ما نشرب ، واذا ما شربنا فعلى مهل .. » .

فقال طونا : « نعم ما تفعلان ، فما جدوى الفرار من حياة سعيدة ؟ أما أنا فشقائى بمهنتى جلل ، وشقائى بأسرتى وأولادى أجل ، وشقائى بنفسى أفدح ومناى الا أرفع القدح عن شفتى » .

فصفق ثمل مسرورا بقول طونا ، وقال وهو يهز رأسه طربا :

ـــ هذه الحانة مهجر البائسين ، مهجر من يقدمون موائد الطعام الشـــهية وهم جياع ، ومن ينسجون فاخر اللباس وهم عراة ، ومن يهرجون فى افراح السادة وهم جرحى قلوب ،صرعى نفوس ..

فقال رجل غير هذين :

ـــ اسمعا يا رجلى النوبة ، لن تطيب الحياة لشارب حتى تخذله ساقاه ، فيهوى فاقد الوعى ، ولأضرب لكما مثلا بنفسى ، فما من ليلة أعود الى كوخى الا محمولا ..

وانتفض اسفينيس ، وأدرك أنه بين جماعة من مبتئسى البشر ، وسألهم :

ـــ هل أنتم صيادون ؟

فقال طونا : « جلنا صيادون .. » .

وهز صاحب الحانة كتفيه استهانة ، وقال دون أن يحول رأسه عن عمله : « أما أنا فخمار يا سيدى » .

فقهقه طونا ، ثم أشـــار بأصبع غليظ الى رجل قصير القامة ، نحيف القد ، دقيق الأطراف ، واسع العينين براقهما ، ثم قال :

« وان أردت التدقيق فهذا الرجل لص .. » فنظر اسفينيس الى الرجل بغرابة وانكار ، فارتبك ، وأراد أن يطمئنه فقال :

« لا يساورك القلق يا سيدى ، فأنا لا أسرق فى هذا الحى جميعه » .

وعلق طونا على قول الرجل بقوله :

ـ يعنى أنه لما كان لا يوجد فى حينا ما يستحق مشقة السرقة ، فهو يعاشرنا كأحدنا ، ويمارس فنه فى أطراف طيبة ، حيث المال موفور ، والسعادة وارفة الظلال ..

وكان اللص نفسه ثملا ، فقال بلهجة الاعتذار :

ـ لست لصا يا سيدى ، ولكننى سائح يضرب الأرض ويشرق ويغرب كما تسوقه قدماه ، فاذا عثرت فى سبيلى بأوزة ضالة أو دجاجة تائهة ، هديتها الى مأوى ، وهو كوخى فى الغالب ..

ـ وهل تأكلها ؟

ـ معاذ الرب يا سيدى ، ان الطعام الحسن يسمم بطنى ، ولكنى أبيعها لمن يشترى .

ـ ألا تخشى الخفراء ؟

ـ أخشاهم أكبر خشية يا سيدى ، لأنه غير مسموح بالسرقة فى هذا البلد لغير الأغنياء والحكام ..

فأمن طونا على قول اللص قائلا :

ـ القاعدة المتبعة فى مصر أن يسرق الأغنياء الفقراء ، ولكن لا يجوز أن يسرق الفقراء الأغنياء .

وكان يتكلم وعيناه تحدقان فى القدحين المترعين بنهم وجشع ، فغير مجرى الحديث وقال باستياء :

ـ لماذا تتركان قدحيكما فتنة للشاربين ؟

فابتسم اسفينيس وقال مسترسلا : « هما لك يا طونا .. » .

فتحلب ريقه وقبض على القدحين بيديه الغليظتين ، مرسلا لمن حوله نظرات وعيد ، ثم أفرغهما فى جوفه قدحا اثر قدح ، وتنهد بارتياح . وأدرك اسفينيس معنى الوعيد الذى يهدد به ، فطلب للقريبين منه جعة ونبيذا مما يشتهون ، فشرب الجميع وضجوا فرحين ، وانطلقوا فى الأحاديث والغناء والضحك . وكان الشقاء والفقر يرتسمان على وجوههم جميعا ، ولكنهم بدوا فى تلك الساعة سعداء ضاحكين لا يحسبون

حسابا للغد . واندمج اسفينيس فى جوهم جذلا مسرورا ، تعتاده الكآبة بين الحين والحين . وقضى بينهم زمنا ليس بالقصير ، حتى دخل الحانة رجل تدل هيئته على أنه منهم ، فحياهم بايماءة وطلب قدحا من الجعة ، ثم قال لمن حوله بلهجة لا تدل على شىء :

ــ قبضوا على السيدة ابانا وساقوها الى المحكمة ..

ولم يعره الأكثرون التفاتا لما أذهل الشراب من عقولهم ، وسأله آخرون :

ــ ولم ؟

ــ يقال ان ضابطا كبيرا من الرعاة اعترض سبيلها على شاطىء النيل ، ورغب فى أن يضمها الى نسائه ، فقاومته ودفعته عنها .

فزمجر الكثيرون ، وسأله اسفينيس :

ــ وما عسى أن تصنع بها المحكمة ؟ .

فحدجه الرجل بنظرة انكار ، وقال :

ــ ستحكم عليها بدفع غرامة لا قبل لها بها حتى تعجزها ، فتأمر بجلدها بالسياط ، والزج بها فى السجن .

فتجهم وجه اسفينيس وامتقع ، وقال للرجل :

ــ هل لك أن تدلنا على طريق المحكمة ؟

فقال له طونا بتلعثم : « الشراب أولى بذهبك ، لأن من يدفع عن هذه المرأة يغضب الضابط الكبير ، ويعرض نفسه لعاقبة غير مأمونة » .

وسأله الرجل الذى أذاع الخبر : « هل أنت غريب يا سيدى ؟ . »

فقال اسفينيس :

ــ نعم ، وأرغب فى حضور هذه المحاكمة ..

ــ اكون دليلك الى المحكمة اذا شئت .

وفى أثناء مفارقتهم للحانة مال لاتو على أذنه ، وقال هامسا :

ــ اياك والتورط فى أمر يفسد علينا مهمتنا الخطيرة .

فلم يجب اسفينيس ، واقتفى من فوره أثر الرجل .

٦

كانت المحكمة مكتظة بذوى الحاجات وأصحاب القضايا والشهود ، وامتلأت مقاعد القاعة بالحاضرين من جميع الطبقات ، وفى الصدر جلس القضاة ذوو اللحى المرسلة والوجوه البيض ، وقد تدلى على صدر رئيسهم تمثال صغير لربة العدالة ثمى . فاتخذ الرفيقان مقعدين متقاربين ، وقال لاتو لاسفينيس همسا : « انهم يقلدون أنظمتنا فى ظاهرها » . وتفرسا فى الوجوه ، فأدركا أن أغلب الحاضرين من الهكسوس . وكان القضاة يستدعون المتهمين ويستجوبونهم على عجل ، ويصدرون الأحكام بسرعة وبلا رحمة ، وأصوات الشكوى والعويل تتصاعد من العراة ذوى الأجسام النحاسية والوجوه السمر . وجاء دور السيدة المنشودة ، فنادى المنادى قائلا : « السيدة ابانا » . وتطلع الرجلان فى لهفة ، فرأيا سيدة تقترب من المنصة فى خطى متزنة ، يدل مظهرها على الوقار والحزن ، وتتجلى قسماتها عن حسن بالرغم من بلوغها الأربعين . وتبعها رجل من الهكسوس يرتدى لباسا فخما ، فانحنى للقاضى باحترام وقال :

ــ سيدى القاضى الجليل ، أنا وكيل القائد رخ ــ الذى اعتدت عليه هذه المرأة ــ وأدعى خم ، وسأنوب عن عظمته أمام القضاء .

فهز القاضى رأسه موافقا ، مما أثار دهشة لاتو واسفينيس ، ثم قال :

ــ بماذا يتهم مولاك هذه المرأة ؟

فقال الرجل بانكار وامتعاض :

ــ يقول مولاى انه التقى بهذه المرأة صباح اليوم ، فرغب فى أن يضمها الى جواريه ، فقابلت صنيعه بالانكار والجحود ، ودفعته بوقاحة عدها اعتداء على شرفه العسكرى ..

فأثار حديث الرجل ضـــجة بين الحاضرين واســتياء ، وتقاربت الرءوس فى همس واستنكار . وأشـــار القاضى للقوم بصـــولجانه ، فساد السكون ، ثم وجه سؤاله الى المرأة قائلا :

ـــ ما قولك يا امرأة ؟

وكانت المرأة محافظة على هدوئها ، كان اليأس من الانصـــاف هذا اكسبها أمانا من الخوف ، فقالت بهدوء :

ـــ ان قول هذا الرجل لا ينطبق على الحقيقة ..

فغضب القاضى ، وقال منتهرا اياها :

ـــ حاذرى أن تقولى قولا ينال من مقام المشتكى العظيم فتضاعف جريمتك ، قصى ودعى الحكم لنا ..

فاحمر وجه المرأة ارتباكا ، وقالت وهى ما تزال تحـــافظ على هدوئها :

ـــ كنت أسير فى طريقى الى حى الصيادين ، فاذا عربة تعترض سبيلى وينزل منها ضابط فيدعونى الى الركوب دون امهال ولا سابق معرفة . فارتعت وأردت أن أتحاماه ، ولكنه أمسك بيدى وقال لى انه يشرفنى بضمى الى نسائه فقلت له انى أرفض ما يعرضه على .. ولكنه سخر منى ، وقال لى ان رفض المرأة الظاهرى عين القبول ..

وأشار اليها القاضى اشارة أسكتتها ، وكأنما ساءه أن تأتى على تفاصيل تحرج مقام الضابط ، فسألها :

ـــ أجيبى هل اعتديت عليه ؟

ـــ كلا يا سيدى ، لقد أصررت على رفضى ، وحاولت التملص من يده ، ولكنى لم أعتد عليه لا بيدى ولا بلسانى ، ويشهد على قولى هذا جمع غفير من أهل الحى .

ـــ أتعنين الصيادين ؟

ـــ نعم يا سيدى .

ـــ هؤلاء لا تقبل شهادتهم فى هذا المكان المقدس .

فسكتت المرأة ، ولاحت فى عينيها نظرة حيرة وارتباك ، فسألها القاضى :

— أليس لديك ما تقولينه غير ذلك ؟

— كلا يا سيدى ، واقسم انى ما آذيته بقول أو فعل ..

— ان المدعى عليك شخص كبير ، وقائد من قواد الحرس الفرعونى ، وقوله حق حتى تقيمى الدليل على نقضه .

— وكيف لى بنقضه ، وقد رفضت المحكمة الاصغاء الى شهودى ؟ .

فقال القاضى بغضب :

— ان الصيادين لا يدخلون هذا المكان ، الا اذا سيقوا اليه متهمين ..

وأعرض الرجل عنها ، وعدل الى رفاقه القضاة وتبادل معهم الرأى حينا ، ثم اعتدل فى جلسته وقال موجها كلامه الى السيدة ابانا :

— أيتها المرأة ، لقد أراد بك القائد خيرا فجازيته أسوأ الجزاء ، والمحكمة تخيرك بين دفع خمسين قطعة من الذهب ، أو السجن ثلاثة اعوام والجلد ..

وأصغى الحاضرون الى الحكم فبدا الرضى على الوجوه جميعا ، الا واحدا صاح بصوت ثائر كأنما أفلت منه الزمام :

— سيدى القاضى .. هذه السيدة مظلومة بريئة .. فأطلق سراحها .. اعف عنها انها مظلومة ..

ولكن القاضى استولى عليه الغضب ، وحدج الصارخ بنظرة أسكتته ، وتوجهت اليه الأنظار من كل صوب فعرفه اسفينيس ، وقال لصاحبه دهشا : « انه الشاب الذى أغضبه حديثنا معه ، واتهمنا بأننا عبيد الرعاة .. » وكان اسفينيس مغضبا متألما ، فاستدرك يقول :

— لن أدع هذا القاضى الأحمق يزج بهذه السيدة فى السجن .

فقال لاتو بقلق : « ان مهمتنا أكبر من نصرة امرأة مظلومة ، فاحذر ان ينقلب علينا عملك .. » .

ولكنه لم يصغ الى صاحبه ، وتريث حتى سمع القاضى يسأل المرأة قائلا :

ـــ هل تدفعين ما يطلب اليك دفعه ؟

فقام واقفا ، وقال بصوت جميل عذب النبرات :

ـــ نعم يا سيدى القاضى ..

وانعطفت نحوه الرءوس تتفحص الكريم الجسور الذى تقدم لانقاذ المرأة فى آخر لحظة ، ونظرت اليه المرأة فى ذهول ، وكذلك الشاب الذى دافع عنها بالبكاء والاستعطاف . أما وكيل القائد فصوب نحوه نظرة نارية برق فيها الوعيد ، ولكن الشاب لم يبال أحدا وسار نحو منصة القضاة بقامته الطويلة الرشيقة ، ومحياه الجميل الفاتن ، وأدى الغرم المطلوب الى المحكمة ..

وتفكر القاضى مرتبكا ، وهو يسائل نفسه من أين لهذا الفلاح بالذهب ؟ ومن أين له هذه الشجاعة ؟.. ولم يجد بدا مما ليس منه ، فأقبل على المرأة قائلا :

ـــ يا امرأة .. اذهبى طليقة .. وليكن لك مما كدت تتردين فيه موعظة ودرسا .

٧

وغادروا المحكمة جميعا ، لاتو واسفينيس والسيدة ابانا والشاب الغريب ، وفى الطريق نظرت المرأة الى اسفينيس ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

— سيدى ، لقد انقذتنى مروءتك من ظلمات السجون ، فملكت عنقى بجميل صنيعك ، وحملتنى دينا لا استطيع الوفاء به .

وخطف الشاب الغريب يده فقبلها وعيناه مغرورقتان بالدمع ، وقال بصوت متهدج :

— فليعف الرب عما سلف من سوء ظنى ، وليجزك أجمل الجزاء على ما أوليتنا من خير بانقاذك أمى من غيابات السجن وآلام الجلد .

فغلب التأثر اسفينيس وقال برقة :

— لا عليكما من هذا ، لقد ابتليت ايتها السيدة بظلم قبيح ، والظلم وان وقع على نفس بعينها يسىء الى النفوس العادلة جميعا ، وما فعلت الا أن غضبت فنفست عن غضبى ، فلا دين هناك ولا وفاء ..

ولم يقنع هذا القول السيدة ابانا ، فظلت على تأثرها تتعثر فى ارتباكها وتقول : « يا له من عمل نبيل .. يا له من عمل يجل عن الوصف ويعلو على المديح » . وأما ابنها فكان لا يقل عنها تأثراً ، ورأى اسفينيس ينظر اليه فقال كالمعتذر :

— ظننت حين التقينا أنكما من صنائع الرعاة ، لما يبدو عليكما من مظاهر الثراء ، فاذا بكما مصريان كريمان لا أدرى من أين جئتما . وقد اقسمت الا افارقكما حتى تتفضلا بزورة كوخنا الصغير ، لنشرب معا قدحا من الجعة احتفالا بتشرفنا بمعرفتكما ، فماذا تقولان ؟ ..

وراقت الدعوة اسفينيس الذى كان يرغب فى الاختلاط ببنى جلدته ، وكانت شهامة الشباب وجماله يجذبانه اليه ، فقال :

ــ اننا نقبل هذه الدعوة ببالغ السرور .

وابتهج الشاب كما ابتهجت أمه ، ولكنها قالت : « أرجو المعذرة لأنكما لن تجدا كوخنا يليق بمقامكما الرفيع » . فقال لاتو بلباقة :

ــ ان فى صاحبى الكوخ غنى عن كل شىء ، ومع هذا فنحن تجار متعودون شظف العيش ووعثاء الطريق .

ثم ساروا جميعا يشملهم شعور واحد بالمودة ، كأنهم أصدقاء من عهد قديم . وفى أثناء الطريق قال اسفينيس لابن ابانا : « كيف ندعوك يا صاحبى ؟ . اما أنا فاسفينيس ، وأما صاحبى فيدعى لاتو » . فحنى الشاب رأسه اكراما ، مبتسما : « وقال ادعونى أحمس » . فخيل الى اسفينيس كأن أحدا يناديه ، ونظر الى الشاب نظرة غريبة ..

وبلغوا الكوخ بعد مسـير نصف ساعة ، وكان ساذجا كأكواخ الصيادين ، يتكون من ردهة خارجية وحجرتين صغيرتين متداخلتين ، ولكنه كان على سذاجة أثاثه وفقره الواضح نظيفا حسن الترتيب . فجلس أحمس وضيفاه فى الردهة ، وفتحا الباب على مصراعيه ليخلص لهم نسيم النيل ومنظره ، على حين ذهبت ابانا لتعد الشراب ، ولبثوا هنيهة صامتين يتبادلون النظرات ، ثم قال أحمس بعد تردد :

ــ انه من العجب أن يجد الانسـان مصريين فى مثل مظهركما الوجيه ، فكيف ترككما الرعاة تثريان ولستما من صنائعهم ؟

فقال اسفينيس : « نحن من مصريى النوبة ، ودخلنـا طيبة اليوم .. » .

فصفق الشاب بيديه دهشة وسرورا ، وقال : « النوبة .. لقد فر اليها كثيرون فى أثنـاء غزو الرعاة لبـلادنا ، فهـل أنتما من المهاجرين ؟ .. » .

وكان لاتو بطبعه شـديد الحذر ، فقال بسرعة قبل أن يجيب اسفينيس : « بل نحن من الذين هاجروا قبل ذلك للتجارة ... » .

وكيف استطعتما الدخول الى مصر ، وقد اغلق الرعاة الحدود ؟ فأدرك الرجلان ان أحمس على حداثة سنه يعرف أشياء كثيرة ،

وكان اسفينيس يشـعر نحوه بمودة واطمئنان ، فقص عليه قصة دخولهما مصر . وفى أثناء حديثه عادت ابانا تحمل أقداح الجعة ، وسمكا مشويا ، فوضعت الشراب والطعام أمامهم ، وجلست تصغى الى قصة اسفينيس حتى ختمها بقوله : « ان الذهب يذهل القوم عن نفوسهم ويخلب البابهم ، وسوف نمضى الى حاكم الجنوب ونعرض عليه نفائس ما نحمل ، وأملنا أن يوافق أو ينال لنا الموافقة على تبادل التجارة بين مصر والنوبة ، لنعود الى سابق عملنا وتجارتنا » ..
فقدمت ابانا لهما أقداح الجعة والسمك ، وقالت :
— اذا وفقتما الى غرضكما فستقومان بأعباء عملكما منفردين ، فلا الرعاة يرضون بالعمل فى التجارة ، ولا المصريون فى حالتهم الراهنة من الفقر والبؤس بقادرين على المشاركة فيها ..

وكان لدى التاجرين ما يقولان فى ذلك ، ولكنهما آثرا السكوت عليه . وأقبلا على السمك يأكلان وعلى الجعة ينهلان ، واثنيا على السيدة أجمل الثناء ، وأطريا مائدتها الساذجة ، فتورد وجهها ، ولهج لسانها بشكر الشاب على جميل صنيعه . وبلغ منها التأثر مبلغا عظيما فقالت :
— لقد مددت الى يدك الكريمة فى الوقت المناسب ، وكم من مصريين بائسين تطحنهم رحى الظلم فى الصباح والمساء دون أن يظفروا بمعين ..
وبدا أحمس سريع التأثر . فما كاد يسمع أمه تقول هذا القول حتى تضرج وجهه باحمرار الغضب ، وقال بحدة :
— المصريون عبيد ، يلقى اليهم بالفتات ويضربون بالسياط . أما الملك والوزراء والقواد والقضاة والموظفون والملاك جميعاً فمن الرعاة . السلطان اليوم للبيض ذوى اللحى القذرة ، والمصريون عبيد فى الأراضى التى كانوا بالأمس أصحابها ..

وكان اسفينيس يرمق أحمس فى أثناء تدفقه بالكلام بعينين يلوح

فيهما الاعجاب والعطف ، على حين ظل لاتو خافضا عينيه ليخفى تأثره ، وسأله اسفينيس :

— وهل يوجد مثلك كثيرون يغضبون لهذه المظالم ؟

— نعم ، ولكننا جميعاً نكظم الغضب ونحتمل الاساءة ، شأن الضعيف الذى لا حيلة له . وانى لأتساءل أما لهذا الليل من آخر ؟ فقد انقضت عشرة أعوام منذ رضى الرب الغاضب علينا أن يسقط التاج عن رأس مليكنا سيكننرع ..

وخفق قلب الرجلان خفقة عنيفة ، وامتقع اسفينيس . ونظر لاتو الى الشاب دهشا ثم سأله :

— كيف تعرف هذا التاريخ على حداثة سنك ؟

— تحفظ ذاكرتى صورا قليلة قاتمة ، ولكنها واضحة لا تزول ، لأيام الشقاء الأولى . ولكنى أدين لأمى بمعرفة تاريخ قصة طيبة الأسيفة التى لا تفتأ ترددها على مسمعى ...

فنظر لاتو الى ابانا نظرة غريبة اضطربت لها المرأة ، فأراد أن يسرى عنها فقال لها :

— أنت سيدة فاضلة وابنك شاب نبيل ..

وقال لاتو لنفسه ان السيدة ما تزال تحاذر بالرغم من كل شىء ، وكان فى نيته أن يسأل عن بعض أمور تهمه ، فعدل عن هذا الى المستقبل . وغير الشيخ مجرى الحديث بلباقة وصرفه الى وجوه تافهة ، فأعاد الطمأنينة الى النفوس ، وشملهم الصفاء وتبادلوا جميعا شعور المودة الخالصة ، وحين هم التاجران بمبارحة الدار قال أحمس لاسفينيس :

— متى تذهب يا سيدى الى حاكم الجنوب ؟

فقال اسفينيس وهو يعجب للسؤال :

— ربما ذهبت غداً .

— لى رجاء .

— ما هو ؟

— أن أصحبك الى ضيعته .

فسر اسفينيس لذلك ، وقال للشاب : « أتعرف الطريق اليها ؟ » .

— حق المعرفة .

وحاولت ابانا الاعتراض على ابنها ، ولكنه أسكتها باشارة عصبية من يده ، فابتسم اسفينيس وقال :

— اذا لم يكن عندك مانع ، فستكون الدليل اليها ..

٨

وانقضى النصف الأول من اليوم الثانى فى الاعداد لزورة الحاكم ، وكان اسفينيس يقدر قيمة هذه الزورة حق قدرها ، ويعلم أن حياة آماله جميعا رهينة ببعض عواقبها ، وكذلك آمال من خلفهم وراءه فى نباتا يعترك فى نفوسهم الكبيرة اليأس والأمل . فشحن سفينته بصناديق التحف واللآلىء ، وأقفاص الحيوان الغريب والقزم زولو ، وعدد كبير من العبيد . وقبيل الأصـــيل وافاهما أحمس ، فحياهما بفرح وقال :

— أنا منذ الساعة من عبيدكما ..

فتأبط اسفينيس ذراعه ، ومضوا ثلاثتهم الى المقصورة . ثم أبحرت السفينة صوب الشمال فى جو رائق وريح مؤاتية ، وقد صمت من فى المقصورة ، واستغرق كل منهم فى تأملاته ، مرسلا بناظريه الى شاطىء طيبة . وعبرت السفينة أحياء الفقراء ، واقبلت على القصور الشم الغارقة بين أدواح النخيل وأشجار الجميز ، تهفو عليها الأطيار من كل نوع ولون ، وتفصل بينها وتترامى وراءها الحقول ذات الخضرة النضرة ، تشقها الجداول الفضية والوديان والنخيل والكروم ، وترعاها الثيران والبقر ، وينعكف عليها الفلاحون العراة الصـــابرون . وعلى الشاطىء أقيمت المنازف تعزف من النيل على أنغام الأناشيد الرقيقة .

وكانت النســائم تعابث الأشجار حاملة فى حناياها هسيس النبات وزقزقة العصافير وخوار الثيران ، وشذا الأزهار والرياحين ، فأحس اسفينيس أن أنامل الذكريات تداعب جبينــه المحترق ، وذكر أيام الربيع حين كان يخرج الى الحقول محمولا على هودجه الملكى ، يسير بين يديه العبيد والحرس والفلاحون يحيونه فرحين بطفولته الطاهرة ، ناثرين الورد فى طريقه السعيد .

وأيقظه صوت أحمس وهو يقول : « ها هو ذا قصر الحاكم » . فتنهد اسفينيس ونظر الى حيث يشير الشاب ، ونظر معهما لاتو وقد لاحت فى عينى الشيخ نظرة دهشة وانكار .

وعرجت السفينة نحو القصر وقد سكنت مجاديفها ، فاعترض سبيلها زورق حربى غاص بالجنود ، وصــاح بهم ضــابط فى عنفة وعجرفة :

— ابتعد بسفينتك القذرة أيها الفلاح .

فقفز اسفينيس من المقصورة ، ودنا من حائط الســفينة وحيا الضابط باحترام وقال :

— معى رسالة خاصة الى صاحب العظمة حاكم الجنوب .

فحدجه الضابط بنظرة حادة وحشية ، وقال :

— أعطنيها وانتظر .

فأخرج الشاب الكتاب من جيب عباءته واعطاه للضابط . وتفحصه هذا بأناة ، ثم أمر رجاله فوجهوا الزورق نحو درج الحديقة ، ونادى حارسا فناوله الرسالة . فأخذها الحارس ومضى ناحية القصر ، وغاب زمنا يســيرا وعاد مسرعا الى الضابط وأسر اليه كلمات ، فأشــار الضابط الى اسفينيس أن يدنو بســفينته ، فأمر الشــاب ملاحيه بالجدف حتى رست السفينة فى مرفأ القصر ، وقال له الضابط :

— ان صاحب العظمة ينتظرك ، فاحمل اليه بضاعتك ..

واصدر الشاب امره الى النوبيين ، فحملوا الصـــناديق وبينهم أحمس ، ورفع آخرون أقفاص الحيوان وهودج زولو . وقال لاتو للشاب وهو يودعه :

ـــ فليكتب الرب لك التوفيق .

ولحق اسفينيس بالقافلة ، يقطعون جميعا أرض الحديقة المعشوشبة في سكون شامل .

٩

مضى التاجر لمقابلة الحاكم ، فقاده خادم الى بهو الاستقبال ، وتبعه عبيده بأثقالهم . ووجد الشاب نفسه فى بهو فائق الترف عظيم الأناقة ، يتجلى الفن فى أرضه وحوائطه وسقفه ، وفى الصـــدر منه جلس الحاكم على متكأ وثير ، فى جلباب فضفاض كأنه كتلة من بنيان متين . وكانت ملامح وجهه الكبير قوية واضـــحة ، أما نظرة عينيه الحادتين فتدل على الشجاعة والبسالة والصفاء . فأشار اسفينيس الى رجاله فوضعوا الصناديق والأقفاص أمامهم ، واقترب من وسط البهو خطوات ، ثم انحنى اجلالا للحاكم وقال :

ـــ حياك الرب المعبود ست أيها الحاكم الأجل .

فألقى عليه الحاكم نظرة من نظراته القوية النافذة ، فراقه منظره النبيل وطوله الفارع ، وبدا على وجهه الارتياح لرؤيته ، وسأله :

ـــ أقادم أنت حقا من بلاد النوبة ؟

ـــ نعم يا مولاى .

ـــ وماذا تبغى من وراء رحلتك هذه ؟

ـــ أطمع أن أهدى الى سادة مصر تحفا مما يوجد فى بلاد النوبة ، آملا أن تروقهم فيطلبوا المزيد منها .

ـــ وماذا تطلب أنت لقاء ذلك ؟

— بعض ما يفيض عن حاجة مصر من الغلال .

فهز الحاكم رأسه الكبير ، وقد لاحت فى عينيه نظرة ساخرة ، وقال بصراحة :

— أراك حديث السن ولكنك جسور مغامر ، ومن حسن طالعك انى أحب المغامرين ... والآن أرنى ما تحمل من التحف ..

ودعا اسفينيس أحمس فاقترب الشاب من الحاكم ووضع عند موضع قدميه صندوقه ، وفتحه التاجر فبدا ما بداخله من الياقوت صيغ حلياً مختلفة أشكالها ، فتفحصها الحاكم بعينين لاح فيهما الجشع والطمع والاعجاب ، ومضى يقلبها بين يديه ، ثم سأل الشاب قائلا :

— هل يوجد من هذه الحلى كثير فى النوبة ؟

فأجاب اسفينيس بلباقة ، وكان أعد الجواب من قبل أن يدخل مصر :

— انه لمن أعجب الأمور يا مولاى أن توجد هذه الاحجار الكريمة فى أقاصى ادغال النوبة ، حيث تأوى الوحوش الضارية وتنتشر الأوبئة الفتاكة ..

ثم عرض على الحاكم صندوقا من الزمرد ، وثانيا من المرجان ، وثالثا من الذهب ، ورابعا من اللؤلؤ . وتفحصها الرجل على مهل مبهورا حتى بدا فى النهاية كالثمل النشوان ، وعرض عليه بعد ذلك أقفاص الغزلان والزرائف والقرود وهو يقول :

— ما أجمل هذا الحيوان فى حديقة القصر .

فابتسم الحاكم وهو يقول لنفسه : « يا له من شاب كالشيطان لا يقاوم .. » وبلغت دهشة الحاكم نهايتها حين رفع الستار عن الهودج ، وبدا زولو بخلقه الغريب ، فلم يتمالك الحاكم أن قام واقفا ، ودنا من الهودج ودار حوله وهو يتساءل :

— يا للعجب .. أحيوان هو ام انسان ؟ .

فقال اسفينيس مبتسما :

ـــ بل انسان يا مولاى من شعب جم العدد .

ـــ هذا اعجب ما رأيت وما سمعت . .

ونادى الرجل عبدا وقال له :

ـــ ادع الأميرة أمنريدس وزوجى وأخى .

١٠

وجاء الذين دعاهم الحـــاكم ، ورأى اسفينيس أن يخفض بصره تأدباً ، ولكنه سمع صوتاً رخيما زلزلت له نفسه زلزالا شديداً يقول : « لماذا ازعجت مجلسنا أيها الحاكم ؟ . . » فاختلس نظرة الى الداخلين ، فرأى فى مقـــدمتهم الأميرة التى زارت بالأمس قافلته وانتقت القلب الزمردى ، وكان منظرها كما عهده يغشى العيون ، ويفعل بها ما يفعله الوهج الشـــديد ، فأيقن الشـــاب أن الحاكم خنزر وزوجه من الأسرة الفرعونية لا محالة . على أنه رأى وجها آخر ليس بالجـــديد عليه ، وهو وجه الرجل الذى تبع الأميرة وزوج الحاكم ، فقد كان القاضى الذى حكم على ابانا بالأمس ، وقد وضح له ما بينه وبين الحاكم من شبه قريب وما من شك فى أن الأميرة والقاضى عرفاه كذلك ؛ لأنهما القيا عليه نظرة ذات معنى . وكان الحاكم يجهل ما يحدث حوله من التعارف الصامت ، فانحنى للأميرة وقال :

ـــ تعالى يا صاحبة السمو انظرى الى أنفس ما حوت بطون الأرض واغرب ما حمل ســـطحها . ودار على الصـــناديق المحملة بالأحجار الكريمة واقفاص الحيوان وهودج زولو ، فأقبلوا عليها فى شغف ودهشة واعجاب . ونال القزم قسطه من الانكار والغرابة ؛ وكانت زوج الحاكم اكبرهم دهشـــة واعجابا ، وكانت مغـــرمة بالجواهر غراما يضرب به المثل ، فأقبلت على صناديق العاج أيما اقبال . أما القاضى فتحول الى اسفينيس وقال له :

ـــ كنت بالأمس أسائل نفسى عن مصـــدر ثروتك ؛ وقد عرفت اليوم كل شيء ..

فقلب الحاكم وجهه فيهما ، وقال لشقيقه :

ـــ ماذا تعنى أيها القاضى سنموت ؟ .. هل عرفت هذا الشاب قبل الآن ؟

ـــ نعم يا سيدى الحاكم ، رأيته بالأمس فى المحكمة ، والظاهر انه عظيم الاعتداد بنفسه وبثروته ، فقد تبرع بخمسين قطعة من الذهب لينقذ فلاحة متهمة باهانة القـــائد رخ من الســـجن والجلد ، فترى يا سيدى أن القائد أصيب فى يوم واحد بفلاحة تتطاول عليه وبفلاح يتحدى غضبه ..

فضحكت الأميرة أمنريدس ضحكة رقيقة ساخرة ، وقالت وهى تلقى نظرة على وجه الشاب :

ـــ وما وجه العجب فى ذلك أيها القاضى سنموت ؟ .. أليس من الطبيعى أن يشمر فلاح للدفاع عن فلاحة ؟ ..

ـــ الحق يا مولاتى ان الفلاحين لا يقوون على شيء ، ولكنه الذهب وسحره . وقد صدق من قال انك اذا رغبت فى أن تنتفع بالفلاح فأفقره ثم اضربه بالسوط .

أما الحاكم فكان بطبعه عظيم الاعجاب بأعمال الجسارة والبسالة ، فقال :

ـــ ان التاجر شاب جسور ، وما اقتحامه حدود بلادنا الا آية من آى شجاعته . مرحى .. مرحى .. ليته كان رجل قتال لأقاتله ، فقد صدىء سيفى من طول انزوائه فى غمده ..

فقالت الأميرة أمنريدس بلهجتها الساخرة :

ـــ كيف لا تأخذك به الرحمة أيها القاضى سنموت وهو يديننى ؟

ـــ لتقولين يدينك يا صاحبة السمو ؟ .. يا لها من كلمة ..

وضحكت من دهشة الحاكم ، وقصت عليه كيف رأت القاتلة ،

وكيف جذبها زولو الى السفينة حيث انتقت العقد الجميل ، وكانت تروى قصتها بلهجة دلت على ما تتمتع به من حرية وجسارة ، وميل الى السخرية والفكاهة ، فزالت دهشـــة الحاكم خنزر ، وقال لها مداعباً :

ــ لماذا اخترت قلبا أخضر يا صاحبة السمو ؟ .. فانا نعلم معنى القلب الأبيض والقلب الأسود ، ولكن ما معنى القلب الأخضر ؟

فقالت الأميرة ضاحكة :

ــ وجه سؤالك الى بائع القلب ؟

وكان اسفينيس صامتا منصتا تعلوه الكآبة ، فقال :

ــ القلب الأخضر يا صاحبة العظمة رمز الخصب والحنان ..

فقالت الأميرة :

ــ ما أشد حاجتى الى هذا القلب ، لأنى أحس أحيانا أنى قاسية حتى ليلذ لى أن أقسو على نفسى ..

وكان القاضى سنموت يطيل النظر فى تلك الأثناء الى زولو ، وحاول ان يحول انتباه زوج شقيقه اليه ، ولكنها أبت أن تتحول عن صناديق الأحجار الكريمة ، فقال القاضى وقد تأفف من منظر القزم ، « يا له من مخلوق قبيح » .

فقال اسفينيس : « انه من شعب من الأقزام ، لا تروقهم صورتنا ، ويعتقدون أن الخالق شوه ملامحها وقبح أطرافها .. » .

فضحك الحاكم خنزر ضحكة عظيمة ، وقال :

ــ ان قولك هذا أعجب من زولو نفسه ، ومن كل ما تحمل من غريب الحيوان والنفائس .

وقال سنموت وهو يحدج اسفينيس بنظرة ارتياب :

ــ أرى هذا الشاب يدع أفكارنا تضطرب بأخيلته ، فمن المؤكد ان أولئك الأقزام لا يمكن أن يدركوا معنى للحسن أو القبيح ..

ورنت الأميرة امنريدس الى القزم كالمعتذرة ، وقالت :

— هل تستقبح النظر الى وجهى يا زولو ؟

فعاد خنزر الى قهقهته ، واختلج قلب اسفينيس لما رآه من روعة حسنها وفتنة دلالها ، وقد تمنى فى تلك اللحظة أن يديم اليها النظر . وساد الصمت بعد ذلك ، فأدرك الشاب أنه قد آن وقت الانصراف ، وخشى أن يصرفه الحاكم دون أن يطرق الموضوع الذى يهمه ، فقال للحاكم :

— هل من الممكن أيها الحاكم الجليل أن أطمع فى تحقيق آمالى فى ظل رعايتك الكريمة ؟

ففكر الحاكم وعبثت يده بلحيته الغزيرة السوداء ، ثم قال :

— لقد مل قومنا الحرب والغزو ومالوا الى الترف والنعيم ، وانهم ليترفعون بطبعهم عن التجارة ، فلا سـبيل الى هذه الدرر الثمينة الا بالمغامرين من أمثالك . ولكنى لا أحب أن أعطيـك كلمتى الآن ، فينبغى أن أحدث قبل ذلك مولاى الملك . وسأرفع الى ذاته العليا أجمل هذه النفائس عسى أن يوافقنى على رأيى .

فانشرح صدر اسفينيس وقال :

— سيدى الحاكم ، انى احتفظ لمولانا فرعون بهدية نفيسة صنعت خاصة لذاته العليا .

فتفرس الحاكم فى وجهه مليا ، وخطرت له فكرة يتقرب بها الى مولاه فقال :

— فى ختام هذا الشهر يحتفل فرعون بعيد النصر كعادته منذ عشرة أعوام ومن الممكن أن أجعل منك ومن أقزامك مفاجأة سارة للمليك ، فتتقدم اليه هديتك التى لاشك أنها لائقة بالمقام الأعلى .. فأخبرنى عن اسمك ومقامك ..

— أدعى يا مولاى اسفينيس ، وأقيم حيث ترسو قافلتى على شاطىء حى الصيادين جنوب طيبة .

— سيأتيك رسولى فى يوم قريب .

وانحنى الشـــاب فى اجلال عظيم ، وبرح المكان يتبعه عبيـده .
وكانت الأميرة تنظر فى وجهه وهو يحدث الحاكم عن آماله ، ويصغى
اليه ، وتبعته بنظرها وهو يبرح المكان ، فعجبت لآى النبل والحسن
البادية على وجهه وقامته ، واسفت ان يكون حظه من الدنيا التجارة
وحمل الأقزام . اواه .. كم تمنت أن تجد هذه القامة فى جسم واحد
من قومها الميالين الى البدانة والقصر ، ولكنها وجدتها فى جسم مصرى
اسمر يتجر فى الأقزام .. واحست أن صـــورة هذا الفتى الجميل
تحرك عاطفة فى نفسها .. فبدت كالغاضبة ، وولت الحاكم وآله ظهرها
وفارقت البهو ..

١١

وعاد اسفينيس والعبيد فى اثر مرشدهم الى الحديقة ، فتنسم نسمة من ريح طيبة هدأت من وجدانه الثائر ، وتنفس تنفسة عميقة امتلأ بها صدره ، وكان يعد نتيجة رحلته هذه توفيقا عظيما . ولكنه كان يفكر فى الأميرة أمنريدس ويتمثل وجهها النورانى وشعرها الذهبى وشفتيها القرمزيتين ، والقلب الزمردى المدلى على صدرها الناهد .. رباه ! .. ينبغى أن يتعامى عن المطالبة بثمنه ليظل قلبه وقلبها معا .. وقال لنفسه : انها ربيبة النعيم والحب ، تظن على غير شك ان الدنيا ما فيها رهن اشارة من أصبعها ، جسورا ضحوكا : ولكنه ضحك مترف لا يخلو من القسـوة ، تضاحك الحاكم وتهـزأ بتاجر غريب ولما تبلغ الثامنة عشرة ، ولو رأيتها غدا على متن جواد تريش سهما ما حق لى العجب ..

ثم نصح نفسه الا يستسلم للتفكير فيها ، ولكى يعمل بنصيحته عاود التفكير فى توفيقه فأثنى على الحاكم خنزر . انه حاكم جبار قوى عظيم الشجاعة ، ولكنه طيب القلب ، وربما كان عظيم الغباوة أيضا . وان نزوعه الى الذهب عظيم كعامة قومه ، وقد هضمت معدته الهدايا الكثيرة من الذهب واللؤلؤ والزمرد والياقوت والحيوان والمسكين زولو بغير كلمة شكر .. ولكن هذا الجشع هو الذى فتح له أبواب مصر ، وبلغ به قصر الحاكم ، وسينتهى به قريبا الى قصر فرعون . وكان أحمس يسير على مقربة منه ، فسمعه يهمس بصوت لا يكاد يسمع قائلا : « شارف » فظنه يخاطبه . فالتفت اليه فوجده ينظر الى شيخ هرم يحمل سلة أزهار ويضرب فى الحديقة بخطى واهنة ، وسمع الشيخ الصوت الذى يناديه ، فتلفت فيما حوله يبحث ببصره الضعيف عمن

يناديه .. ولكن أحمس تحاماه وولاه قفاه ، فدهش اسفينيس والقى عليه نظرة متسائلة ، ولكن الفتى خفض نظره ولم ينبس بكلمة .

وبلغوا السفينة وصعدوا اليها فوجدوا لاتو فى انتظارهم ، يلوح على وجهه الذابل الاهتمام الشديد . فابتسم اسفينيس وقال له : « وفقنا بفضل الرب آمون » . ثم رفعت المرساة وتحركت المجاديف ، فأقبل الشاب عليه يحدثه حديث المقابلة ، حتى قطع عليهما الحديث صوت بكاء . فالتفتا الى مصدره فرأيا أحمس متكئا على حائط السفينة ينتحب كالأطفال ، فراعهما منظره ، وتذكر اسفينيس ما غمض عليه من سلوكه فى الحديقة ، فدنا منه يتبعه لاتو ، ووضع يده على منكبه وقال له :

— أحمس ما الذى يبكيك ؟

ولكن الفتى لم يجبه ولم يع مما قال شيئا ، واستبسلم للبكاء فى حزن عميق غلبه على أمره وأفقده وعيه فانزعج الرجلان وأحاطا به ، وأخذاه الى المقصورة وأجلساه بينهما ، وأحضر اسفينيس له قدحا من الماء وقال له :

— ما الذى يبكيك يا أحمس ؟ .. هل تعرف ذاك الشيخ الهرم الذى دعوته شارف ؟

فقال أحمس وهو يرتجف من حرارة البكاء : « كيف لا أعرفه ؟ . كيف لا أعرفه ؟ . » .

فسأله فى غرابة : « من هو ؟ . ولماذا تبكى هذا البكاء ؟ » .

وأخرجه الحزن عن صمته ، فباح بما فى صدره قائلا :

— آه يا سيدى اسفينيس ، ان هذا القصر الذى دخلته خادما من خدمك هو قصر والدى ..

فبدت الدهشـــة على وجه اسفينيس ، وتفرس لاتو فى وجهـــه باهتمام شـــديد ، أما الشــــاب فاستدرك قائلا وهو فى غيبوبة الحزن الشديد :

— هذا القصر الذى اغتصبه الحاكم خنزر هو مهد طفولتى ومرتع صباى ، وبين جدرانه العالية قضت أمى البائسة عهد الشباب والنعيم فى كنف والدى قبل أن تقع القارعة فى أرض مصر ، وتطأ أرض طيبة المقدسة أقدام الغزاة .

— ومن كان أبوك يا أحمس ؟

— كان أبى قائد جيش مليكنا الشهيد سيكننرع .

فقال لاتو : « القائد بيبى ؟ .. يا الهى .. حقا هذا قصر القائد الباسل » .

فنظر احمس الى لاتو بدهشة وسأله :

— هل كنت تعرف أبى أيها السيد لاتو ؟

— وهل وجد فى جيلنا من يجهله ؟

— ان قلبى يحدثنى بأنك من السادة الذين شردهم الغزو ..

فسكت لاتو رغبة عن أن يكذب على ابن القائد بيبى وسأله :

— وكيف انتهت حياة القائد الباسل ؟

— استشهد يا سيدى فى الدفاع الأخير عن طيبة ، أما والدتى فعملت بوصيته وفرت بى فى جمع من السادة الى حى الفقراء حيث نعيش الآن ، لقد تشتت سادة طيبة الأقدمون . وتخفى قوم منهم فى أسمال بالية وهاجروا الى حى الصيادين ، وركبت أسرة مليكنا البحر الى مكان مجهول ، وأغلق معبد آمون أبوابه على كهنته فانقطع ما بينهم وبين العالم ، وخلا الجو للبيض الغرباء ذوى اللحى يمشون فى الأرض مرحا ، ويملكون كل شىء . وكان خنزر أسعد القوم حظا فزوجه الملك أخته ، ووهبه ضيعة أبى وقصره ، ونصبه حاكما على الجنوب جزاء ما اقترفت يداه الأثيمتان ..

فسأله لاتو : « وأى ذنب اقترفه الحاكم ؟ » .

وكان أحمس سكت عن البكاء ، فقال بلهجة تنطوى على الغضب الشديد :

— يده الأثيمة التى أردت مليكنا سيكننرع .

وانتفض اسفينيس كمن مسته نار حامية ، ولم يطق قعودا فانتصب واقفا متوعدا وقد ارتسم الغضب على وجهه بصورة مروعة تبعث الرعب فى الأفئدة ، فى حين أغضى لاتو الطرف ممتقع الوجه لاهث الأنفاس ، وردد أحمس بصره بينهما فوجد أخيرا من يشاركه عواطفه المضطرمة ، فرفع رأسه الى السماء وتمتم قائلا : « ألا فليبارك الرب هذا الغضب القدسى .. » .

وبلغت السفينة مرفأها ، وكانت الشمس تنغمس فى النيل والشفق يخضب الأفق ، فقصدوا الى بيت ابانا ، ووجدوا السيدة تشعل مصباحها . فلما شعرت بمقدمهم تحولت اليهم وعلى فمها ابتسامة ترحيب ، فتقدم منها لاتو واسفينيس وانحنيا لها فى اجلال ، وقال الشيخ فى صوت رزين :

— طيب الرب مساء أرملة قائدنا العظيم بيبى ...

فغاصت الابتسامة من شفتيها ، واتسعت حدقتاها دهشة وانزعاجا ، وحدجت ابنها بنظرة لوم وتأنيب ، وأرادت الكلام فامتنع عليها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، فدنا منها أحمس ووضع يدها بين راحتيه ، وقال لها بحنان :

— أماه لا تخافى ولا تحزنى ، وقد علمت ما أولانى هذان السيدان من الجميل ، واعلمى الى هذا أنهما كما ظننت من سادة طيبة الأقدمين الذى شردهم الطغيان ، نازعهما الشوق الى اجتلاء وجه الوطن مرة أخرى ..

فسكنت نفس المرأة ومدت لهما يدها فطالعاها بوجهين ينطقان بالصفاء والاخلاص ، وجلسوا جميعا متقاربين ، وقال اسفينيس :

— ان فخرنا العظيم بالجلوس الى أرملة قائدنا الباسل بيبى ، الذى قضى فى الدفاع عن طيبة ولحق بمولاه من أنبل السبل ، والى ابنه الشاب المتحمس أحمس ..

فقالت ابانا : « وانى لجد سعيدة أن تلقى الى المصادفات السعيدة رجلين كريمين من رجال العهد القديم ، فنتذاكر معا أيامنا الخوالى ، ونشعر بحاضرنا شعورا واحدا . اما أحمس فهو شاب عظيم الحماسة جدير باسمه ، وقد دعاه به أبوه تيمنا باسم أحمس حفيد مليكنا سيكننرع وابن ملكنا كاموس — وقد ولدا فى يوم واحد — طيب الرب مساءه حيثما كان .. » .

وبسط لاتو كفيه مؤمنا على قولها ، وقال بصدق واخلاص :

— ليحفظ الرب صديقنا أحمس ، وليحفظ سميه العظيم حيثما كان ...

١٢

وتوطدت المودة بين التاجرين وأسرة ابانا ، فعاشوا جميعا أسرة واحدة لا يفترقون الا فى الثلث الأول من الليل ؛ وعلم الرجلان أن حى الصيادين مكتظ بالسادة المختفين من تجار طيبة وأصحاب ضياعها ومزارعها السابقين ، فسر لذلك الرجلان ، وأرادا أن يتعرفا الى بعض البارزين منهم ، وافضيا برغبتهما الى أحمس بعد أن استوثقا من اخلاص القوم ، ورحب الفتى برغبتهما ، واختار أربعة من اقرب المقربين الى والدته هم : سنب وهام وكوم وديب ، وأسر اليهم بحقيقة التاجرين ، ودعاهم يوما الى داره حيث وافاهم لاتو واسفينيس . وكان الرجال يرتدون لباس الفقراء ، وزرة وسترة من الكتان بالية ، فرحبوا جميعا بالتاجرين وتبادلوا التحيات بحرارة دلت على الصدق والمودة ، قال أحمس :

— ان من ترون مثلكما من سادة مصر الأقدمين ، وجميعهم يعيشون عيشة الصيادين المنبوذة البائسة ، على حين يستأثر بأرضهم الرعاة الملعونون ..

وسأل هام التاجرين : « هل أنتما من طيبة أيها السيدان ؟ » .

فقال لاتو : « كلا يا سيدى . ولكنا كنا يوما من ملاك أمبوس .. » .

فقال سنب : « وهل هاجر الى النوبة كثيرون مثلكما ؟ ... » .

فقال لاتو : « نعم يا سيدى ، وفى نباتا خاصـــة يوجد مئات من المصريين ، ومن امبوس وسيين وهابو ومن طيبة نفسها .. » .

فتبادل الرجال النظرات ، ولم يكن يرتاب منهم أحد فى التاجرين بعد ما قص عليهم أحمس ما صنع اسفينيس لأمه فى المحكمة ، فتساءل هام :

— وكيف تعيشون فى نباتا أيها السيد لاتو ؟

— عيشة الضنك كالنوبيين أنفسهم ، ففى النوبة تجود الأرض بالذهب وتشح بالغلال ...

— ولكنكم سعداء ما دمتم لا تمتد اليكم أيدى الرعاة .

— دون شك ، ولذلك لا نفتأ نذكر مصر وأهلها الأسرى المستعبدين .

— الا يوجد لنا فى الجنوب قوة حربية ؟

— بلى ، ولكنها قوة صغيرة يستعين بها رؤوم حاكم الجنوب المصرى على حفظ الأمن فى البلاد .

— وما عسى أن يكون شعور النوبيين نحونا بعد الغزو ؟

— ان النوبيين يحبوننا ويرضون بحكمنا طائعين ، ولذلك لا يلقى رؤوم أية مشقة فى حكم البلاد بقوة صغيرة لا يعتد بها ، ولو شقوا عصا الطاعة ما وجدوا قوة تؤدبهم ...

فلاحت الأحلام فى أعين الرجال ، وكان أحمس قص عليهم كيف تمكن التاجران من اجتياز الحدود وزيارة الحاكم ، وكيف أن اسفينيس سيقدم الى أبو فيس هدية يوم الاحتفال بعيد النصر ، فتساءل هام بامتعاض :

— وما تبغى من وراء تقديم هديتك الى أبو فيس ؟

فقال اسفينيس : « أن أثير جشعه ، فيأذن لى بالاتجار بين النوبة ومصر وتبادل الذهب بالحبوب ... » .

فسكت الرجال ، وسكت اسفينيس ساعة يفكر ، وبدا له أن يخطو خطوة جديدة فى سبيل مشروعه ، فقال باهتمام :

ـــ اصغوا لى أيها السادة ، ليس هدفنا الذى نرمى اليه التجارة ، وما ينبغى أن تكون التجارة هدف قوم قدموا اليكم فى بيت أرملة قائدنا العظيم بيبى ، ولكنا نأمل أن تصل قافلتنا مصر بالنوبة ، وأن نستعين بقوم منكم كعمال فى الظاهر فنحملكم الى اخواننا فى الجنوب . سنحمل الذهب الى مصر ونعود بالحبوب والرجال ، وربما كررنا يوما بالرجال فقط ...

فاستمع الجميع فى دهشة ممزوجة بفرح ، وأشعت أعينهم نورا خاطفا ، وصاحت ابانا قائلة :

ـــ رباه ! . ما هذا الصوت الجميل الذى يحيى فى أنفسنا هامد الأمل . !

وصاح هام قائلا : « يا الهى ... ان الحياة تدب فى مقبرة طيبة » .

وهتف كوم قائلا : « أيها الشاب الذى يبعث صوته القلوب الميتة ، لقد كنا نعيش حتى الساعة بلا أمل ولا مستقبل ، يئودنا شقاء حاضرنا فلا نجد منه مهربا الا فى تذكر الماضى المجيد والتحسر عليه ، وها أنت ذا تزيح لنا الستار عن مستقبل باهر ... » .

فانشرح صدر اسفينيس وأفعم قلبه أملا ، وقال بصوته الجميل المثير :

ـــ لا ينفع البكاء يا أيها السادة ، فان الماضى المجيد يوغل فى القدم والفناء ما دمتم تقنعون بالتحسر عليه ، وما يلبث مجده أن يصبح قريبا اذا توثبتم للعمل له . فلا يحزنكم أن تكونوا اليوم تجارا ، فانكم فى الغد القريب تصيرون جنودا تضيق بهم الأرض وتذل لهم الحصون ، ولكن أصدقونى هل تثقون باخوانكم جميعا ؟

فقالوا فى نفس واحد : « ثقتنا بأنفسنا .. » .

ـــ الا تخشون العيون ؟

ـــ ان الرعاة جبابرة بغير عقول ، وقد اطمأنوا بقوتهم الى استعبادنا عشر سنين فهم لا يحاذرون .

فصفق اسفينيس بيديه فرحا وقال :

ـــ اذهبوا الى اخوانكم المخلصين وبشروا بالأمل الجديد ، واجمعوا بيننا وبينهم فى كل حين لنتبادل الراى والشورى ولنبلغهم رسالة الجنوب ، واذا كان مصريو نباتا الآمنون غاضبين ، فأولى بكم الغضب .

فأمن الرجال على قوله متحمسين ، وقال نايب : « نحن غاضبون ايها الشاب النبيل ، سيثبت لك كفاحنا أننا أشد غضبا من اخوان نباتا ... » .

وحيوا التاجرين ومضوا وقد داخلتهم ثورة غضب وتحفز لا تهدأ ولا تسكن ، وسمع الرجلان ابانا تتنهد وتقول :

ـــ رباه ! .. من يدلنا على أسرة مليكنا الشهيد ؟ .. وفى أى ركن من الأرض هو ؟ ..

ومضت أسابيع وكان اسفينيس وزميله الشيخ لا يذوقان طعم الراحة . كانا يجتمعان برجال طيبة المتخفين فى بيت ابانا ، وكانا يكاشفانهم بآمال المصريين المهاجرين فيبثان فى نفوسهم الأمل والحياة ، ويصبان فى عزائمهم القوة والجلاد ، حتى بات حى الصيادين جميعه ينتظر على لهفة وجزع الساعة التى يدعى فيها اسفينيس الى القصر الفرعونى .

وتوالت الأيام حتى كان يوم جاء حى الصيادين أحد حجاب حاكم الجنوب يسأل عن قافلة المدعو اسفينيس ، ثم سلمه كتابا من الحاكم يجيز له دخول القصر الفرعونى فى ساعة سماها من يوم العيد ، ورأى كثيرون الرسول فابتهجوا وشملهم السرور ، وأشرق فى نفوسهم الأمل ..

وفى ذلك المساء نامت القافلة ، ولبث اسفينيس منفردا على ظهر السفينة فى هداة الليل وجلال السكون ، يغمره نور القمر ويسيل على وجهه النبيل دررا ولؤلؤا لامعا متوهجا ، فدخلته رقة ، واثلج

صدره الرضـــا ؛ وطاب لخياله أن يتردد بين الماضى القريب والحاضر الغريب . فتمثل ساعة الوداع فى نباتا ، وجدته توتيشيرى تبشره بأن روح آمون أوحت اليها أن ترسـلـه الى مصر ، وقد وقف أبوه كاموس قريبا منه يوصـيه بصوته الجهورى المؤثر ، وذكر أمه الملكة ستكيموس وهى تلثم جبينه ، وزوجه نيفرتارى وهى تلقى عليه نظرة الوداع من خلال أهدابها المبتلة .. فلاحت فى عينيه نظرة حنان كنور القمر فى صفائه وحيائه .. ونفذت قطرات من الحسن المنبث ما بين السماء وماء النيل الى قلبه . فانتعش وانتشى بخمر الهيبة . ولكن طرقت مخيلته خلسة صـــورة من النور والبهاء ، فاقشعر بدنه ؛ واغمض جفنيه كأنما يفر منهـا فرارا ، وهمس لنفســه بامتعاض : « يا الهى .. انى أذكرها أكثر مما ينبغى .. وما ينبغى لى أن أذكرها بتاتا .. » .

وجاء يوم العيد ، فلبث اسفينيس فى السفينة نهار اليوم ؛ وعند المســاء لبس أجمل ما عنده من الثياب ، ورجل جمته ومس طيبا ، وبرح السفينة يتبعه عبيده يحملون صــندوقا من العاج ، وهودجا مسدل الستائر ، وساروا فى طريق القصر . وكانت طيبة ســاهرة تضج أجواؤها بنقر الدفوف وسجع الأغانى ، وينير القمر منها سبلا اكتظت بجماعات الجنود السكارى المنشدين ، وعربات الأعيان والنبلاء تقطع الطريق صوب القصر الفرعونى يتقدمها الخدم حاملين المشاعل ، فتولت الشــاب كآبة ثقيلة ، وقال لنفســه محزنا : « قضى على أن أشــارك القوم عيدهم الذى يحيون به ذكرى سقوط طيبــة ومقتل سيكننرع » . وصوب نحو الجنود المتهافتين نظرة مغضبة ، وذكر قول الحكيم قاقمنا : « الجنود اذا تعودوا الشراب ، وهنت سواعدهم وعافوا القتال » .

ثم تابع تيار السائرين حتى شارف ميدان القصر ، ولاحت لعينيه أسواره ونوافذه نورا فوق نور ، فشقت عليه الرؤية وخفق قلبــه بعنف ، ونسمت على رأسه المحموم ريح عبقة عاطرة من ذكريات الصبا ، وجدت قلبه حزينا ونفسه والهة . ومضى تزداد شجونه كلما أدناه المسير من مهد الطفولة ومرتع الصبا .

واقترب الشاب من أحد الحجاب وأبرز له كتاب خنزر . فنظر فيه بامعان ، ثم نادى أحد الحراس وأمره أن يقود التاجر وقافلته الى مكان الانتظار بالحديقة . فتبعه الشاب وعرج وراءه الى أحد ممرات الفناء الجانبية لازدحام الممر الوسيط بالمدعوين والحجاب والحراس . وكان اسفينيس يذكر المكان جيد الذكرى ، وكأنما فارقه أمس آخر مرة . وحين بلغوا ممر الأعمدة الكبير المؤدى الى الحديقة ، اشــتد

وجيب قلبه وعض على شفته السفلى من شدة التأثر ، وذكر كيف كان يلعب فى هذا الممر مع نيفرتارى ، فيشد على عينيه حتى تخفى نفسها وراء أحد الأعمدة الهائلة ، ثم يحل العصابة ويجد فى البحث عنها حتى يظفر بها . وخال فى اللحظة أنه يسمع وقع قدميها الصغيرتين ، ويسمع رجع ضحكتها الحلوة . وكانا يحفران اسميهما على بعض العمد ، ترى هل تحتفظ بآثار اسميهما حتى الآن ؟ .. وقد ود لو يغافل حارسه ويعاين أثر الماضى الجميل ، ولكن الرجل كان يوسع الخطى غير شاعر بالقلب المنصهر على قيد ذراع منه .. فبلغوا الحديقة ، وأشار الحارس الى أريكة وقال للشاب : « انتظر ها هنا حتى يأتيك الرسول » . وكانت الحديقة مضاءة بالمصابيح الوهاجة ، والنسيم يهب من أنحائها بشذى الريحان وريا الزهور ، فبحثت عيناه عن الموضع الذى كان يقوم فيه تمثال سيكننرع عند نهاية الممر المعشب الذى يشق الحديقة نصفين ، فوجد مكانه تمثالاً جديداً لا روح فيه ؛ يمثل شخصاً ربعة ضخم الهيكل كبير الرأس مقوس الأنف ذا لحية طويلة وعينين واسعتين جاحظتين ، فلم يشك فى أنه أمام أبو فيس ملك الرعاة . فأدام اليه النظر شزرا ، ثم ألقى على الحراس نظرة قاسية يستعر فيها الغضب والحنق ، وكان كل شيء من القصر والحديقة كعهده به . ولاحت لعينيه الحجرة الصيفية على هضبة عالية ، تحنو عليها أدواح النخيل بقاماتها الرشيقة الطويلة ، فذكر أيامها السعيدة ، حين كانت تهرع اليها الأسرة جميعاً فى فصلى الصيف والربيع ، فينهمك جده وأبوه فى لعب الشطرنج ، وتجلس نيفرتارى بين الملكة ستكيموس وجدتها الملكة أحوتبى ، أما هو فيقعد فى حجر توتيشيرى ، ثم تمضى الساعات وهم فى شغل عنها بالسمر الرقيق ومطالعة الأشعار وأكل الفاكهة الناضجة ، جلس اسفينيس فترة غير قصيرة من الليل يطالع ذكرياته على صفحات الحديقة والممرات والأروقة ، فلم يتململ ولم يجزع ، حتى جاءه الرسول وسأله :

« هل أنت مسـتعد ؟ .. » . فقام واقفا وهو يقول : « على تمام الاستعداد يا سيدى . » فقال وهو يهم بالعودة : « اتبعنى » . فتبعه ورجاله على الأثر ، وارتقوا أدراج السلم ، وقطعوا الرواق الفرعونى حتى شارفوا باب البهو الملكى ، فلبثوا ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول ، وبلغ سمعيه أصوات ضحك عالية ، ووقع الأقدام الراقصة ، وسجع الموسيقى العنيف ، وشاهد زرافات السقاة يحملون الأباريق والأقداح والأزهار ، فأدرك أن القوم لا يتحرجون فى لهوهم ولا يعتدلون فى أعيادهم ، وأن الملك يعفيهم من الوقار والتأدب ليعودوا الى فطرتهم الوحشية الأولى . ثم نادى باسمه أحد العبيد ، وتقدم بخطى متئدة ، ورأى وسط البهو خاليا ، والقوم جلوسا حوله فى ثيابهم الرسمية الفاخرة يتطلعون اليه باهتمام ، فدخله شىء من الارتبـاك ، وأيقن أن الحاكم عرف كيف يثير اهتمام القوم بما حدثهم عنه وعن هداياه لتعظم مآثره فى عين الملك ، واستبشر بذلك خيرا . ولما جاوز منتصف البهو أمر أتباعه بالوقوف ، ودنا وحـده من العـرش وحنى هامتـه اجلالا ، وقال بصوت الخضوع والعبودية :

— مولاى الرب المعبود ، سيد النيل ، فرعون مصر العليا والسفلى وأمير المشرقين .

فقال له الملك بصوت جهورى قوى النبرات :

— انى أمنحك السلام أيها العبد .

واعتدلت قامة اسفينيس ، واستطاع أن يختلس نظرة سريعة الى الرجل المتربع على عرش آبائه وأجداده ، فعرف فيه صاحب تمثال الحديقة بلا شك .

ولكنه أدرك من شدة احمرار وجهه ونظرة عينيه وكأس الخمر الموضوعة امامه انه ثمل . وكانت الملكة تجلس الى يمينه ، والأميرة أمنريدس الى شـماله ، وقد لحظها الشاب فرآها فى لباسها الملكى كالكوكب المتألق ، وكانت تنظر اليه فى هدوء وكبرياء ..

والقى الملك عليه نظرة فاحصة فراقه منظره وابتسم قائلا بصوته الغليظ :

ــ وحق الرب ان هذا الوجه لجدير بأحد رجالنا النبلاء ..

فأحنى اسفينيس رأسه وقال :

ــ شاء الرب أن يجعله لمولى من موالى فرعون .

فقهقه الملك ضاحكا وقال :

ــ أراك تحسن القول ، وبالقول الحسن يستجلب قومك عطفنا ونقودنا . وهى حكمة سبت أن يعطى السيف للسيد القوى ، وحسن البيان للعبد الضعيف . ولكن لا عليك من هذا فقد قال لى صديقنا خنزر انك تحمل لنا هدية من بلاد النوبة .. ارنا هديتك .

فحنى الشاب رأسه وانتحى جانبا ، ثم أشار الى رجاله فتقدم اثنان منهم بالصندوق العاجى ووضعاه أمام العرش ، ودنا الشاب منه وفتحه واستخرج منه تاجا فرعونيا مزدوجا من الذهب الخالص مرصعا بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والمرجان ، ورفعه بين يديه فخطف الأبصار ، وانبهر له القوم جميعا وضجوا بالدهشة والاستحسان .. وأما أبو فيس فقد حملق فيه بعينين جاحظتين جشعتين ، وخلع تاجه دون شعور منه ، وتناول التاج الجديد بين يدبه الكبيرتين ووضعه على رأسه الأصلع ، فتبدى صورة جديدة من الجلال . واغتبط الملك ولاح فى وجهه الرضا ، فقال للشاب :

ــ أيها التاجر ، ان هديتك قد حازت القبول .

فانحنى اسفينيس اجلالا ، والتفت الى رجاله واشار اليهم اشارة خاصة فأزاحوا الستار المسدل على الهودج ، ورئى الأقزام الثلاثة جالسين متلاصقين . وقد أثار ظهورهم دهشة عظيمة فى نفوس القوم جميعا ، فقام أكثرهم واقفين ، واشرأبت الأعناق ، وصاح بهم التاجر الشاب أن حيوا مولاكم فرعون ، فقفز الأقزام الثلاثة قفزة واحدة فصاروا صفا ، ثم اقتربوا من العرش فى خطى ثابتة وئيدة ،

وسجدوا بين يدى فرعون ثلاثا ، ووقفوا ساكنين لا تبين وجوههم عن شيء . وهتف الملك قائلا :

— أيها التاجر ، ما عسى أن تكون هذه المخلوقات ؟

— هى أناس يا مولاى تعيش قبائلها فى أقاصى النوبة الجنوبية ، ولا يصدقون أن العالم يشتمل على أقوام سواهم . فاذا رأوا واحدا منا عقدت الدهشة السنتهم وتنادو متعجبين . وقد ربيت هؤلاء الثلاث فأحسنت تربيتهم ، وسيجدهم مولاى مثالا للطاعة والعبودية ، ونوعا من التسلية والتلهية .

فهز الملك رأسه الكبير ، وضحك ضحكته العظيمة ثم قال :

— جهل من يدعى العلم كله ، أما أنت أيها الشاب فقد أدخلت السرور على قلوبنا ، وانى أمنحك رضاى . .

وحنى اسفينيس هامته ، ثم ارتد بظهره راجعا . وعند منتصف البهو اعترض سبيله انسان ما ، فقبض على ذراعه . والتفت اسفينيس الى صاحب اليد الغليظة ، فرأى رجلا فى الثياب العسكرية الفخمة ، جميل العثنون غليظ الشاربين منتفخ الأوداج . دل احتقان الدم بوجهه وبريق الجنون فى نظرة عينيه على شدة سكره ، وقد حيا مولاه وقال :

— انه ليسر مولاى من غير شك أن يشاهد فنون القتال الباسل فى الحفلات القومية ، كما تقضى به تقاليدنا المقدسة . وانى أدخر لذات مولاى المقدسة مبارزة دموية تسر الناظرين .

فقال الملك وهو يرفع كأسه الى شفتيه الغليظتين :

— ما أجمل أن تراق دماء الفرسان على أرض هذا البهو لتنفض عن النفوس ما ران عليها من سأم ، ولكن من السعيد الذى شرفته بعداوتك أيها القائد رخ ؟

فأشار القائد الثمل الى اسفينيس وقال :

— هذا غريمى يا مولاى .

فعجب الملك وعجب كثيرون من النبلاء ، وسأله الملك :

— كيف استجلب غضبك هذا التاجر النوبى ؟

— أنقذ امرأة فلاحة — تجاسرت على توجيه الاهانة الى شخصى — من العقاب ، بدفعه خمسين قطعة من الذهب بدلا منها .

فضحك الملك ضحكته العظيمة المجلجلة ، وسأل القائد :

— ولكن أترضى أن يكون غريمك فلاحا ؟

— أراه يا مولاى متين البنيان مفتول العضلات ، فاذا لم يكن قلبه من قلوب الطير فانى أغضى عن وضاعة جنسه ، مرضاة لمولاى ومشاركة فى سرور العيد .

ولكن الحاكم خنزر لم يرض عن المبارزة ، وقد رمق شقيقه القاضى سنموت بنظرة لوم ، لأنه أدرك أنه هو الذى دل القائد على اسفينيس دون تقدير منه للموقف ، وأشفق من أن يضيع سيف رخ عليه كنوز النوبة الثمينة ، فدنا من القائد رخ وقال له بحزم :

— لا يجوز أن تخدش أوسمتك بمنازلة تاجر فلاح أيها القائد .

فقال رخ يقطع على الحاكم سبيله :

— اذا كان من العيب أن أقاتل فلاحا ، فمن العار أن أترك عبدا يتحدانى دون أن أنزل به العقاب الذى يستحقه .. ولما رأيت فرعون يمنح هذا التاجر عطفه ، آثرت أن أنصفه وأن أتيح له فرصة للدفاع عن نفسه ..

وظن من سمع قول القائد أنه حق وعدل ، وتمنوا صادقين أن يقبل التاجر النزال ليشهدوا المبارزة وليتموا سرورهم بالعيد . وكان اسفينيس يكابد حيرة شديدة لا يجد لنفسه منها مخرجا ، وكان يشعر بتلهف القوم على استماع كلمته ، ويحس نظرة التحدى والاحتقار التى يصوبها نحوه القائد الثمل العنيد ، فيغلى الدم فى عروقه . ثم يذكر نصائح توتيشيرى ولاتو ، وكيف أن قتله هذا القائد الفظ قد يضيع من يديه الثمرة الدانية القطوف ، ويفوت على

أسرته الفرصة السـانحة ، فيبرد دمه وتخـذله عزيمته . ربّاه ..
لا محيد عن النكوص ، ولا محيص عن الهرب ، سيتهكم به القائد ،
وترمقه الأعين بالاحتقار ، ويفارق المكان منكس الذقن كسير الفؤاد ،
ولكن يظفر بغرضه الأسمى . وهنا سمع القائد يقول له :
— لقد تحديتنى أيها الفلاح ، فهل تستطيع مواجهتى ؟

فسكت اسفينيس شاعرا بانهيار وتخاذل ، وسمع صوتا يقول :
« دعوا الشاب انه لا يعرف القتال » . وقال صوت آخر : « دعوا
الشاب فان الفارس يقاتل بنفسه لا بجسمه .. » فدخله الحنق ،
وأحس يدا توضع على كتفه وصوتا يقول له : « لست فارسا ولا عار
عليك اذا اعتذرت » . فنظر فرأى خنزر . فشعر بقشعريرة تسرى
فى أعضـائه من لمس اليد التى فتكت بجده . ولاحت منه نظرة فى تلك
اللحظة الراهبة نحو العـرش فرأى الأميرة أمنريدس تنظـر نحوه
باهتمام ، فغلبه الغضب وفقد وعيه ، فقال بصوت مسموع :
— انى أشكر القـائد على نزوله لمبارزتى ، وأقبل اليد التى
يمدها لى .

وسرى الفرح فى النفوس ، وضحك الملك وشرب كأسا أخرى ،
وتطلعت الرءوس من كل حدب وصـوب للغريمين . وبدا الارتياح
على وجه القائد وابتسـم ابتسامة التشـفى والانتقام ، ثم سأل
اسفينيس : « هل تضـارب بالسيف ؟ » فحنى رأسـه أن نعم ،
فأعطاه سيفا . ثم خلع اسفينيس عباءته عن سترته وسرواله فبدا
جسمه الطويل القوى يجذب الأبصار برشاقته واعتدال قامته وجمال
وجهه . وأعطى ترسا ، فقبض على السيف بيمناه ، ووضع الترس
على يسراه ، ووقف على بعد أذرع من القائد كأحد التماثيل التى أغلقت
عليها أبواب المعابد ..

وأذن الملك بالقتال ، فشـهر كل منهما سـيفه .. وبدأ القائد
الغاضب الهجوم فسدد نحو خصمه ضربة قاتلة ظنها القاضـية ،

لكن الشاب تفادى منها بخفة عجيبة فضاعت فى الهواء ، ولم يمهله القائد فوجه الى رأسه ضربة أشد من الأولى بسرعة البرق ، فتلقاها الشاب بترسه بحركة خاطفة ، فتعالت أصوات الاعجاب من أنحاء البهو جميعا ، وأدرك القائد أنه يقاتل رجلا يجيد الطعان ، فأخذ حذره ، وعاود القتال متبعا خطة جديدة ، فتصاولا ، واشتبكا وانفصلا ، وكرا وفرا ، القائد فى غضب وعنف ، والشاب فى هدوء عجيب . وكان يصد هجمات عدوه بسهولة ويسر وثقة ، وكان كلما طاش ضربة بمهارته الرائعة زاد غضب عدوه اهتياجا وجنونا . وأدرك الجميع أن اسفينيس يكتفى بالدفاع ولا يكاد يهجم الا اذا أراد بهجومه افساد خطة أو تفويت ضربة ، فتجلى فنــه ، وبرع على خصمه فى الخفة والمهارة بدرجة أشعلت حماسة القوم الذين تنسيهم لذة القتـــال فوارق الأجنـــاس . فجن جنون رخ ، ووالى هجماته عليه بشدة وعنف لا ينى ولا يتوانى ، وصوب نحوه الضربة تلو الضربة ، فصد بترسه ما صــد ، وتفادى بفنه ما تفادى منه ، ولبث سليما مطمئنا ذا ثقة لا حد لها ، لا يغضب ولا يؤخذ ، وكأنه حصن منيع . فأخذ اليأس يستولى على القائد الحانق ، وشعر بدقة موقفه وشـــدة حرجه ، وحثه اليأس على المغامرة ، فرفع ذراعه بالسيف ، وجمع كل ما أعطى من قوة وعزم ليضرب ضربة الموت الزؤام ، وكان مطمئنا الى خطة عدوه المقصورة على الدفاع . فما هو الا ان وجه الى قبضة سيفه ضربة رائعة فجرح سنان السيف كفه ، وارتجفت يده ، فضرب الشاب السيف ضربة أخرى أطاحت به بعيدا ، فسقط قريبا من عرش فرعون . ولبث رخ أعزل والدم يقطر من يده ، لا يكف عن حنقه . فضج القوم مسرورين متعجبين من بسالة التاجر وجميل عفوه ، ثم صاح به القائد :

— لماذا تبطىء فى الاجهاز على أيها الفلاح ؟

فقال اسفينيس بهدوء :

— ليس لدى من الأسباب ما يحملنى على ذلك ..

فصر القائد بنواجذه وانحنى للملك تحية ، ثم دار على عقبيه وبرح البهو ، وعلت ضحكة الملك طويلا حتى اضطرب لها جسمه ، ثم أشار الى اسفينيس فأعطى الشاب سيفه وترسه الى أحد الحجاب ، واقترب من العرش وانحنى للملك ، فقال له :

— ان قتالك لا يقل غرابة عن أقزامك .. كيف تعلمت القتال ؟

— أيها الملك المعبود ، فى بلاد النوبة لا يأمن التاجر على قافلته اذا لم يعرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه ..

فقال الملك :

— يا لها من بلاد .. وقد كنا مقاتلين أشداء رجالا ونساء حين كنا نجوب أطراف الصحراء الشمالية البارذة ، فلما أن احتوتنا القصور وتقلبنا فى ظلال الترف والنعيم ، وشربنا بدل الماء الخمور ، طاب لنا السلام ، ورأيت واحداً من قواد جيشى ينهزم فى قتاله مع تاجر من الفلاحين ..

وكان الملك يتكلم متهلل الوجه ضاحك الفم ، فدنا من عرشه الحاكم خنزر وانحنى له تحية وقال :

— مولاى هذا الشاب باسل وحقيق بالأمان .

فهز فرعون رأسه الثمل وقال :

— صدقت يا خنزر ، كان القتال عادلا شريفا ، وانى أمنحه الأمان .

فوجد الحاكم الفرصة سانحة فقال :

— مولاى .. ان هذا الشاب لعلى استعداد أن يؤدى للعرش اجل الخدمات ، بأن يحمل اليه الثمين المعجب من كنوز النوبة لقاء ما يعود به من حبوب مصر .

فنظر الملك الى الحاكم مليا . وذكر التاج الذى يتوج رأسه ، فقال بلا تردد :

— قد أذنا له فى ذلك .

فانحنى خنزر شاكرا ، وسجد اسفينيس بين يدى فرعون ، ومد يده فلثم حاشية ثوبه الملكى . ثم وقف فى خشوع وهو يقاوم رغبة فى النظر الى شمال العرش ، ورجع القهقرى حتى غيبه باب البهو الكبير . وكان مسرورا مبتهجا ، ولكنه كان يسائل نفســـه : « ترى ماذا يقول لاتو اذا علم بقصة المبارزة ؟ .. » .

وبلغ اسفينيس والعبيد السفينة بعد منتصف الليل ، فوجدوا لاتو ساهرا يترقب ، فأقبل على الشاب قلقا متشوقا الى سماع أخباره ، فقص عليه اسفينيس ما صـــادفه فى القصر من النجـــاح والمتاعب ، فقال لاتو :

— لنحمد الرب آمون على ما أولانا من نجـــاح ، ولكنى أخون واجبى اذا لم أصارحك بأنك اقترفت خطأ كبيرا باستسلامك للغضب والكبرياء ، وما كان ينبغى لك أن تعرض آمالنا الكبار لخطر الانهيار من أجل ثورة غضب . أفما كان من الجائز أن يظفر القائد بك ؟ .. أو ما كان من المتوقع أن يبطش الملك بك ؟ .. ينبغى أن تذكر دائما أننا هنا عبيد وهم سادة ، وأننا طلاب فضل هم أصحابه وذووه ، فليكن رائدك أن تتظاهر بالشكر والاخلاص لهم ، وعلى رأسهم ذلك الحاكم الذى وجه الى جدك العظيم والى مصر جميعا الضربة القاضية . افعـــل هذا من أجل مصر ، ومن أجل من تركنـــاهم وراءنا فى نباتا يخشون ويرجون .

ولم يتمالك الرجل فأجهش فى البكاء ، ثم مضى الى مخدعه فصلى صلاة حارة ..

وفى صباح اليوم التالى قصدا الى كوخ السيدة ابانا كما وعـــدا أصحابهما من قبل ، فاستقبلتهما السيدة وابنها أحمس وبعض الأصدقاء ، بينهم سنب وهاب وديب وكوم ، وكانوا جميعا قلقين متلهفين على سماع الأخبار ، فقال لهما هام :

ــ ان قلوبنا قلقة يعــذبها الخوف ويلهبها الأمل . وقد تركنا وراءنا فى الأكواخ القريبة المئات من الأصدقاء ممن لم يغمض لهم جفن طوال الليلة الماضية .

فابتسم اسفينيس ابتسامة حلوة ، وقال :

ــ أبشروا يا أصــدقاء ، لقد أذن لنــا الملك فى الاتجار بين مصر والنوبة .

فلاح البشر فى وجوههم ، وتألقت أعينهم بنور الرجاء ، وقال لاتو بحزم :

ــ جاء وقت العمل فلا تضيعوا الوقت هباء ، واعلموا أن الطريق طويل فينبغى أن نحمل أكثر ما نستطيع من الرجال . لا تتوانوا عن اغراء العامة بالاشتراك فى رحلتنا ، ومنوهم بالربح الوفير دون أن تصارحوهم بالحقيقة ، حتى نبلغ هدفنا فيما وراء الحدود . وسنجدهم بغير شك من المخلصين كعهدنا برجال طيبة ومصر جميعا .. هلموا جميعا فاحزموا أمتعتكم ..

وانتشرت فى الخفاء حركة واســعة النطاق يضطرم فى جوانبها الحماسة والايمان ، وهرع الرجال المتخفون فى ثياب الصيادين الى السفن ، وشغلوا كل مكان يمكن أن يشغل من أسطحها وبطونها . ثم واجهت اسفينيس مشكلة عسيرة وهى ارجال النساء والأطفال ، وشغلهن أماكن أحق بها الرجال والشبان ، أو تركهن وحدهن على ما فى هذا من ايلام لهن ولذويهن . ورأى الشاب أن يثير المسألة فشاور فيها أصدقاءه الأقربين ، وطال الأخذ والرد ، حتى انبرى أحمس بن ابانا فقال :

ــ أيها السيد اسفينيس ، نحن فى حاجة الى جيش عرمرم من الرجال ، فلا يجوز أن يؤخر النساء تجنيــد هذا الجيش العظيم ، وما يضيرهن أن يمكثن فى طيبة حتى نعود اليهن عودة الظافرين . وانه لأدعى الى حماستنا أن نقاتل وفى البلاد نســاؤنا ، من أن نخلفهن

وراءنا فى النوبة . واذا كان فى هذا الرأى ألم لنا ، فليؤد كل منا نصيبه من ضريبة الألم والتفدية فى سبيل غرضنا الأسمى .

وبلغ التأثر بابانا مبلغا عظيما فقالت :

— نعم الرأى الحكيم ... ان مكاننا هنا ، وسنقاسم أهل طيبة حظهم : ان موت فموت ، وان حياة فحياة ...

ولم يتردد أحـد عن القبول ، ورضى النســاء بفراق الأزواج والأبناء ، وكان جنوب طيبة يذوب من حرارة الوداع وذرف الدموع واضطرام الدعاء والآمال ..

وكان اسفينيس لا يذوق الراحة فى تلك الأيام القلائل الحـافلة بجلائل الأعمال والتفديات الصامتة ، كان يسـتقبل الرجال ويزور الأسر وينظم الراحلين . وكان الى هذا يعلل نفسه بالآمال ، ويذكر الحاضر والمسـتقبل ، ويعالج بالصـبر فورة الغضب والرغبة فى الانتقام . وكان الى هـذا وذاك يكتم أشواقا تضـطرم فى فؤاده . ويغالب لواعج الوجدان التى باتت تأكل صدره وكبده ، ويضنى بما يعترك فى نفسه من أسباب البغضاء وقوى المحبة .. فلشد ما جاهد وتحمل فى تلك الأيام القلائل ، ولشد ما تجلد وتصبر ...

وأذن أخيرا حاكم الجنوب لاسفينيس بالرحيل ، وأعطاه جوازا لعبور الحدود فى أى وقت يشاء . فرفعت القافلة مراسيها وابحرت مع الفجر الرطيب ، وكان اسفينيس ولاتو وأحمس بن ابانا يأخذون مجالسهم فى مقصورة السفينة الأولى وفى قلوبهم شوق وحنين ، وفى عينى أحمس دموع هى آخر ما ودع به أمه . وكان اسفينيس يغرق فى أحلامه ، فذكر طيبة واهل طيبة ، طيبة أعظم مدن الأرض ، المدينة ذات الابواب المائة ، والمسلات التى تناطح الجوزاء ، والمعابد الهائلة والقصور الشم ، والسبل الطويلة والميادين العظيمة ، والأسواق التى لا تهدأ ولا تسكن آناء الليل وأطراف النهار ، طيبة المجيدة ، طيبة آمون الذى قضى أن تغلق أبوابه دون عباده عشرة أعوام من الأسر ، طيبة التى حكمها الهمج أخيرا وجلسوا منها مجلس الوزراء والقضاة والقواد والنبلاء واستعبدوا أهلها فالدهر يمرغ وجوههم فى ثرى من كان بالأمس لهم عبدا . وتنهد الشاب من قلب مكلوم ، ثم ذكر الرجال الجاثمين فى بطون سفنه يحدوهم أمل واحد ، ويدفعهم الى الأهوال حب لمصر مكين توارثوه جيلا بعد جيل . كم يعانون من الم الفراق لمن خلفوا وراءهم بين أيدى أعدائهم من زوجات وبنات وأطفال ، وكأنهم جميعا هذا الفتى الباسل أحمس الذى يكظم أشواقه ويكتم حنينه ويبدو على وجهه العزم والقوة .. ثم طافت بذهنه فى حشد الذكريات صورة ذات بهاء ، فأطرق ليخفى عينيه عن لاتو الثاقب البصر ، ولو علم الرجل فيما يفكر لغضب مرة أخرى ، ولكبر عليه ان يشغل قلبه بابنة الشيطان كما دعاها أول مرة . وعجب لنفسه كيف تحوم حول صورتها ، وكيف لا تنفك تنزع اليها . وتساءل متحيرا : هل يمكن ان يجتمع الحب والكراهية

لشيء واحد ؟ . ولاحت في عينيه نظرة حزينة ، وقال لنفســه : مهما يكن امري فلن تقع عيناي عليها مرة أخرى فلا داعي للقلق ، وهل وجد في الدنيا شيء يعز على النسيان ؟ . وقطع عليه احلامه لاتو وهو يقول بلهجة دلت على القلق :

— انظر الى الشمال ... أرى قافلة قادمة على عجل ...

فنظر الشابان الى الوراء فرأيا قافلة من خمس سفن تشــق عباب الماء بسرعة ، ولم تستطع الأعين رؤية من فيها ولكنها أخذت تدنو بسرعة وتستبين أجزاؤها فعاين اسفينيس رجلا يقف في مقدمة القافلة فعرفه ، وقال بقلق :

— هذا القائد رخ ...

فامتقع لاتو ، وقال وقد تزايد اضطرابه :

— ترى هل يبغى اللحاق بنا ؟

فلم يدر الآخر كيف يجيبه ، وراقبوا القافلة باهتمام وحذر ، وساور لاتو بعض المخاوف فقال بحنق :

— هل يجيء هذا الأحمق ليعوق مسيرنا ؟

وأدرك اسفينيس انه لم يخلص بعــد من عواقب خطئه ، وأن الخطر يوشك أن يحيق بقافلته وقد شارفت بر الأمان والسلامة . وصوب بصره نحو قافلة رخ فرآها تقترب بسرعة حتى جاوزت بعض سفن قافلته . واذا بها خمس سفن حربية يقف على أسطحها فصائل من جند الحرس ، ولم تجيء لخير بلا شك . ثم اتجهت سفينة القيادة نحو سفينته فحاذتها ، ورأى القائد يحدجه بنظرة قاسية ، وسمعه يصيح به بصوته الغليظ :

— قف والق مراسيك .

وغيرت السفن اتجاهها لتحاصر القافلة ، فأمر اسفينيس بحارته ان يكفوا عن التجديف وأن يلقوا المراسي ، فأذعنوا لما أمروا ، وقد تولاهم الخوف لما رأوا سفن الرعاة تحمل الجنود الشاكي السلاح كأنهم

يتأهبون لمعركة حربية . واشتد القلق باسفينيس ، وأشفق من ان ينكل القائد الحقود بقافلته فيئد أمل قومه جميعا ، وقال لرفيقه :

ـــ اذا كان هذا الرجل يريد راسى فلا بأس أن أكون اول صرعى الكفاح الجديد ، وما عليك يا لاتو اذا قضيت الا ان تستأنف المسير ، دون أن تمكن للغضب من نفسك فتقضى على آمالنا جميعا ...

فشد الشيخ على يده وقد اسودت الدنيا فى عينيه ، واستدرك اسفينيس قائلا بحزم :

ـــ انى أوصيك يا لاتو بما أوصيتنى به بالأمس من تجنب الغضب غير الحكيم . دعنى أدفع ثمن خطئى . ولئن تعد غدا الى أبى فتعزيه عن موتى وتهنئه بمن حملت اليه من جنود مصر ، لخير من أن تعود بى اليه وقد خسرنا املنا الى الأبد ...

وسمع القائد رخ يصيح به قائلا : « اخرج الى وسط السفينة أيها الفلاح » ، فشد الشاب على يد لاتو ومضى بقدمين ثابتتين ، فقال له القائد وكان يقف على سطح سفينته :

ـــ لقد اطحت بسيفى أيها العبد المفتون وأنا ثمل اترنح ، وهأنذا انتظرك وقلبى ثابت وساعدى غير مرتعش .

فأدرك الشاب ان القائد ذو طبيعة انتقامية ، وانه يريد أن ينازله ليغسل العار الذى لحقه منه ، فقال له بهدوء وقد دخله شىء من الطمأنينة على قافلته :

ـــ هل ترغب فى أن تعيد الكرة أيها القائد ؟

فقال بقحة :

ـــ نعم أيها العبد ، وسأقتلك بيدى هذه المرة شر قتلة .

فسأله اسفينيس فى هدوء :

ـــ وأنا لا أخشى نزالك ، ولكن هل تعد بألا تمس قافلتى بسوء مهما تكن عاقبة المبارزة ؟ ...

فقال القائد باحتقار :

ـــ سأترك القافلة احتراما لمشيئة مولاى فتسير دون جثتك .
ـــ وأين تريد القتال ؟
ـــ على ظهر سفينتى .

فلم ينبس الشاب بكلمة ، وقفز الى قارب وجدف بساعديه القويين حتى بلغ سفينة القائد ، ثم ارتقى السلم الى سطحها ووقف امام عدوه وجها لوجه . فألقى عليه القائد نظرة قاسية وقد أغضبه ما يبدو على وجهه الجميل من الهدوء والثبات والاستهانة ، واشار الى جندى من الجنود فأعطى الشاب سيفا وترسا ، وقال له القائد وهو يتحفز للقتال : « لا رحمة اليوم فدافع عن نفسك » . ثم هجم عليه كالوحش الضارى فاشتبكا فى قتال عنيف وسط دائرة واسعة من الجنود المدججين بالسلاح ؛ وعلى مقدمة السفينة الأخرى وقف لاتو واحمس يشاهدان المعركة ببصر زائغ ... وتتابعت ضربات القائد فصدها اسفينيس بمهارته الفائقة . ثم وجه الى خصمه ضربة شديدة سقطت على ترسه فصكته بعنف بدأ عليه أثره ، فانتهز الشاب الفرصة وبدأ هجومه عليه بشدة وحذق ، فاضطر القائد الى التقهقر ، وجعل يدفع عن نفسه الضربات التى يسددها له خصمه المقتدر الذى لم يهيئ له فرصة يستريح فيها او يعاود الهجوم ، وتبدى الحنق على وجه الرجل وصر بنواجذه بغضب جنونى ، فارتمى على خصمه يائسا . ولكن الشاب تفادى منه ووجه اليه ضربة رشيقة أصابت عنقه ، فتخاذلت يداه ، وكف عن القتال ، وترنح كالثمل ثم سقط على وجهه يتخبط فى دمه . فصرخ الجنود صرخة غاضبة ، وسلوا سيوفهم الطويلة وتحفزوا للانقضاض على الشاب لدى أول اشارة تصدر من الضابط الذى على رءوسهم . فأيقن اسفينيس بالهلاك وأدرك عبث المقاومة ولا سيما أن كثيرين كانوا يسددون نحو قلبه قسيهم ، فلبث يترقب مذاق الموت مستسلما وعيناه لا تفارقان القائد الطريح امامه . وفى تلك اللحظة المزعجة الراهنة سمع صوتا قريبا يصيح بغضب « أيها الضابط مر جنودك

أن يغمدوا سيوفهم .. » وخيل اليه أنه يعرف الصوت فانخلع قلبه فى صدره ، والتفت الى مصدر الصوت فرأى سفينة فرعونية تكاد تلتصق بسفينة الموت وعلى حائطها تتكىء الأميرة أمنريدس ، تلوح على وجهها الجميل آى الغضب .

***

واغمد الجنود سيوفهم وأدوا التحية ، فحنى اسفينيس هامته اجلالا قبل أن يفيق من دهشته ويصـــدق حقا أنه نجا من الموت ، وسألت الأميرة الضابط قائلة :

ــ هل قتل القائد رخ ؟

فاقترب الضابط من القائد ووضع يده على قلبه وتفحص عنقه ، ثم وقف قائلا :

ــ أرى جرحه شديد الخطر يا صاحبة السمو ، ولكن به نفس يتردد .

فسألته ببرود :

ــ وهل كان القتال عادلا ؟

ــ نعم يا صاحبة السمو .

فقالت الأميرة بغضب :

ــ كيف اذن سولت لكم نفوسكم الهم بقتل رجل أعطـــاه الملك الأمان ؟ ..

ولاح الارتباك فى وجه الضابط ولم ينبس بكلمة ، فقالت الأميرة بلهجة آمرة :

ــ أطلقوا سراح هذا التاجر وعودوا بالقائد الجريح الى أطباء القصر ..

وأذعن الضابط لما أمر فترك اسفينيس حرا ، فهبط الشاب الى قاربه ووجهه الى السفينة الفرعونية ، وهو يقول لنفسه بارتياح :

« كيف جاءت الأميرة فى الوقت المناسب ؟ .. » . ثم صعد الى سطحها فلم يمنعه أحد من الحراس ، وصادف الأميرة قد عادت الى مقصورتها فمضى اليها بقدمين ثابتتين ، وطلب من جارية أن تستأذن له فى الدخول . . فغابت فى الداخل لحظة ثم جاءت بالاذن ، فدخل خافق القلب ، ورأى الأميرة تجلس الى متكأ وثير مسندة ظهرها فى رخاوة الى نمرقة محشوة بالقز ووجهها يشع نورا سنيا ، فانحنى بين يديها فى اجلال صادق ، ورأى وهو يعتدل واقفا عقده ذا القلب الزمردى حول عنقها ، فتورد وجهه . ولم يغب عنها شىء مما ينطق به وجهه وعيناه ، فقالت بصوت رخيم عذب وهى تشير بأنملتها الى العقد :

ـ أجئت تسألنى ثمن هذا العقد ؟

فاطمأن الشاب الى لهجتها العذبة ، وسر بدعابتها وقال باخلاص :

ـ بل جئت يا صاحبة السمو لأشكر سموك مخلصا على ما أوليتنى من نعمة الحياة ، التى سأظل مدينا لك بها ما حييت ..

فابتسمت ابتسامة مشرقة لاحت فى ثغرها كومضة البرق ، وقالت :

ـ نعم أنت مدين لى بحياتك . ولا تعجب اذ أقول هذا فلست ممن يأخذهم الرياء بتصنع الكذب والتواضع ، فلقد علمت صباح اليوم أن القائد أبحر بأسطول صغير ليتعرض لقافلتك ، فلحقت به فى السفينة وشهدت جانبا من قتالكما ، ثم تدخلت فى الوقت المناسب لانقاذ حياتك ..

فوقع هذا المن من قلبه موقع الماء من الصادى ، ووجد فى نظرة عينيها الناعستين وما أعلنت من رغبتها فى انقاذ حياته ، ما جعله ينتشى بخمر السعادة ، وسألها :

ـ هل أطمع فى أن تصارحنى مولاتى ، بما أعهده فيها من كراهية للرياء والتصنع ، بالسبب الذى جعلها تجشم نفسها تعب انقاذ حياتى ؟

فقالت فى استرسال وكأنها تسخر مما ظن انه أحرجها به :

— أن اجعلك تدين لى بحياتك ..

— هو دين يسعدنى ولا يفقرنى ..

فرفعت له عينيها الزرقاوين حتى احس انه على وشك أن يترنح ويقع على قدميها ، وقالت :

— يا لك من مراء كذوب .. أهذا كلام يقوله مدين لدائنه وهو يوليه ظهره لسفرة لا رجعة منها ؟ ..

— كلا يا مولاتى بل لسفرة لها معاد قريب ..

فقالت وكأنها تحدث نفسها :

— انى أسائل نفسى عما عسى أن يكون انتفاعى بهذا الدين ؟ ..

ووجب قلبه ، ونظر الى زرقة عينيها فرأى نظرة استسلام وحنو أعذب من الحياة التى وهبته اياها ، وأحس أن ما بينهما من هواء ينتفض بحرارة عميقة بسحر يجذب اليه روحيهما ليلتقيا ويمتزجا ، ففقد لبه وهوى على قدميها ..

ثم سألته وقد هفت ذؤابات من شعرها الذهبى على جبينها الأغر وأذنيها :

— هل تغيب طويلا ؟

فقال وهو يتنهد :

— شهرا يا مولاتى .

فلاحت فى عينيها نظرة حزن وقالت :

— ولكنك تزمع العودة .. أليس كذلك ؟

— نعم يا مولاتى وحق حياتى التى هى لك .. وحق هذه المقصورة المقدسة ..

فمدت اليه يدها وقالت :

— الى الملتقى ..

فلثم يدها وقال :

ـ الى الملتقى ..

***

واستقبله لاتو بذراعين مفتوحتين وعينين دامعتين وضمه الى صدره ، وتعلق أحمس بعنقه ولثم جبينه ، ورفعت القافلة مراسيها واطلقت لنفسها العنان ، ووقفوا يودعون سفينة الأميرة بأبصارهم وهى توغل فى الشمال وهم يوغلون فى الجنوب ، حتى ارتدت عنها الأبصار كليلة .

وعادوا الى المقصورة وأخذوا مجالسهم وكأن شيئا لم يقع .

وجعل اسفينيس يعلل نفسه بمشاهدة القرى ورجالها الأشداء ذوى الأجسام النحاسية ، ولكن قلبه كان ينزع به الى المقصورة ، هل يداخل لاتو شك ؟ .. ان لاتو رجل كريم شاخ قلبه وزهد كل شىء الا حب مصر ، وهو نفسه لا يخلو من هم يساوره ولا يدرى اخطأ أم أصاب ، ولكن من من بنى الانسان يستطيع أن يبلغ هدفه كما قدر له من قبل دون حسبان لما يجد من الأمور ؟ .. فلرب قاصد الى جبل يجد نفسه منحدرا فى واد عميق ، ولرب مزمع صيد أراش له نبلا يلقى الصيد منقضا عليه ومطارده .

١٦

واجتازت القافلة حدود مصر فى سلام ، فصلى رجالها للرب آمون صلاة جامعة حارة ، وشكروا ربهم على ما هيأ لهم من سبل النجاة ، ودعوه أن يدنى اليهم آمالهم ويحفظ نساءهم من كل سوء . وصعدت القافلة فى النهر اياما وليالى حتى رست عند جزيرة صغيرة للراحة والاستجمام ، فدعا لاتو الرجال الى النزول الى أرض الجزيرة ، ووقف بينهم واسفينيس الى يمينه ثم قال لهم :

— أيها الاخوان ، دعونى اصارحكم بسر أخفيته عنكم لحكمة لن تخفى عليكم ؛ إلا فاعلموا أننا رسولا أسرة مليكنا الشهيد سيكننرع اليكم ، وأن مليككم كاموس ينتظر مقدمكم الآن فى نباتا ...

فلاحت الدهشة فى وجوه الرجال ، وسأل البعض وهم لا يملكون انفسهم من الفرح :

— أحق أيها السيد لاتو أن أسرتنا الفرعونية فى نباتا ؟

فحنى رأسه بالايجاب مبتسما ، فسأله آخرون :

— هل توجد هناك أمنا المقدسة توتيشيرى ؟

— نعم .. وستباركجم فى الغد القريب .

— ومليكنا كاموس بن سيكننرع ؟ .

— نعم وسوف ترونه بأعينكم ، وتسمعون اليه بآذانكم .

— وولى العهد أحمس ؟ ..

فابتسم لاتو واشار الى اسفينيس ، ثم حنى هامته قائلا :

— اليكم أيها السادة ولى عهد المملكة المصرية ، حضرة صاحب السمو الفرعونى الأمير أحمس .

وتصايح كثيرون : « التاجر اسفينيس ولى عهد مصر الأمير أحمس ؟ .. » أما أحمس ابانا فقد سجد بين يدي الأمير وهو يبكى ،

فسجد الجميع وراءه ، منهم من يبكى ومنهم من يهتف فيتصاعد الهتاف من أعماق قلبه . .

واستأنفت القافلة رحلتها والفرح يشمل وحداتها جميعا ، يود رجالها لو تطير بهم طـيرانا الى نباتا حيث ينتظرهم مليكهم المعبود كاموس وأمهم المقدسة توتيشيري . . ومضت أيام وليالى ، ثم لاحت فى الأفق نباتا بأكواخها الساذجة ومبانيها المتواضعة ، وما زالت تقترب وتدنو وتظهر معالمها حتى رست القافلة الى مرفئها . وشعر بالقافلة بعض الجنود فقصدوا الى قصر الحاكم ، وتجمع حشـد النوبيين على الشاطىء ليشاهدوا السفن والقادمين عليها . ونزل المصريون الى الشاطىء يتقدمهم الأمير أحمس والحاجب حور ، ثم جاءت عربة مسرعة ونزل منها حاكم الجنوب رؤوم ، فحيـا الأمير والقادمين معه ، وأبلغهم تحية الملك وأسرته ، وأخبرهم أن جلالته ينتظرهم فى القصر . وهتف الرجال للملك طويلا ، ثم سـاروا فى جموع غفيرة وراء أميرهم يتبعهم جمع غفير من النوبيين . .

وكانت الأسرة الفرعونية تجلس تحت مظلة كبيرة فى فناء قصر الحاكم ، وقد غيرت تلك السنوات العشر منها ما غيرت ، فترك الجد والصرامة والحزن فى نفوس أفرادها جميعا آثارا لا تمحى أبد الدهر ، وكان أكبرهم تأثرا بالدهر : الملكتان توتيشيرى وأحوتبى ، فجف عود الأم المقدسـة ومالت قامتها الى الانحناء قليـلا ، وحفرت الآلام فى جبينها الوضاء تجعداتها ، ولم يبق من توتيشيرى القديمة سـوى بريق عينيها ونظراتها الدالة على الحكمة والصبر ، وأما أحوتبى فقد جلل رأسـها المشيب ، وارتسمت على وجهها الحسن مسحة حزن ووجوم .

ولما رأى الشعب مليكه ، سجد له ، ثم تقدم أحمس من أبيه وقبل يد والدته الملكة ستكيموس وجدته أحوتبى وتوتيشيرى ، وقبل جبين زوجته الأميرة نيفرتارى ، ثم وجه خطابه الى الملك قائلا :

— مولاى لقد تعهد آمون عملنا بالنجاح ، فالى جلالتكم أقدم أول كتائب جيش الخلاص ..

فلاح السرور فى وجه الملك ، وقام واقفا ورفع الصولجان تحية لقومه ، فهتفوا له طويلا ، ثم أقبلوا عليه يقبلون يده رجلا رجلا ، ثم قال لهم كاموس :

— حياكم الرب أيها الطيبيون الشجعان الذين فرق البغى بيننا وبينهم ، فقضى عليهم أن يساموا الخسف ، كما قضى علينا أن نذوق مرارة الغربة عشرة أعوام كاملة . ولكن أراكم رجالا تأبون الضيم وتؤثرون مشقة الاغتراب وتعب الكفاح عن الرضى بالسلامة فى ظل الذل ، كما عهدتكم دائما وكما عهدكم أبى من قبل ، فجئتم تصلون جناحى بعد أن تمزق أو كاد ، وتثبتون قلبى وقد أرعشه جفاء الدهر ، وكان من رحمة الرب آمون أن جاء أطهرنا قلبا وأعظمنا أملا الأم توتيشيرى فى المنام ، وأمرها أن تبعث بابنى أحمس الى أرض الآباء والأجداد ليأتى بالجنود الذين يخلصون مصر من عدوها ومذلها ، فبعثت بابنى كما أمر الرب وأتى بكم ، فمرحبا بكم جنود مصر وجنود كاموس ، وسيأتى غدا آخرون ؛ فلنستوص بالصبر ولنعد الى العمل ؛ وليكن شعارنا الكفاح ، وأملنا مصر ، وايماننا آمون ..

فصاحوا جميعا كرجل واحد : « الكفاح ومصر وآمون .. »
ثم قامت توتيشيرى واقفة وتقدمت خطوات متوكئة على صولجانها ، ثم قالت للرجال بصوت قوى سليم النبرات :

— يا أبناء طيبة المجيدة الحزينة ، تقبلوا تحيات أمكم الكبيرة ، ودعونى أقدم لكم هدية صنعتها بيدى لكم لنعمل جميعا تحت ظلها .

وأشارت الى أحد الجنود بصولجانها ، فاقترب من الرجال وقدم اليهم علما كبيرا عليه صورة معبد آمون يحيط به سور طيبة ذو الأبواب المائة ، فتلقفته الأيدى بحماسة ، ودعوا لأمهم دعاء حارا وهتفوا لها ولطيبة المجيدة ، فابتسمت توتيشيرى وأضاء وجهها نور بهيج ، وقالت :

— يا ابنائى الأعزاء ، أصـارحكم بأنى لم أستسلم الى اليأس ابدا ، وقد أوصانا سيكننرع يوم الوداع بأن نحذر اليأس . وما زلت ادعو الرب أن يمد فى أجلى حتى أرى طيبة مرة أخرى ترفرف على قصرها أعلامنا ، ويجلس على عرشها كاموس فرعون مصر العليـا والسـفلى ، وقد أصبحت اليوم أدنى الى أملى بعد أن ضمت الى سواعدكم الفتية .

فتعالى هتاف القوم مرة أخرى ، وجعل الملك يسأل عن رجالات مصر وكاهن آمون ومعبد الرب ، والحاجب يجيبه بما عرف ، ثم قدم الأمير أحمس الى أبيه أحمس ابانا ابن القائد بيبى ، فرحب به الملك وقال له :

— أرجو أن تكون لى كما كان ابوك لأبى قائدا باسلا ، فعاش لواجبه ومات فى سبيله ..

ثم دعا الملك القادمين الى وليمة غداء ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا ، ثم مضوا جميعا يفكرون فى الغـد القريب والغـد البعيـد ، وباتت نباتا لأول مرة منذ عشرة أعوام فرحة مستبشرة يعمر قلبها الأمل ..

كفـــاح أحمس

١

لم تكن حيـــاة الأسرة الفرعونية فى المهجر حيـــاة دعة وخمول ، ولكنها كانت حياة عمل واعداد للمستقبل البعيـــد ، ومدارها جميعا قلب توتيشيرى الذى لا يعرف اليأس أو الراحة . فطلبت منذ بدء قدومها الى رؤوم حاكم الجنوب أن يدعو الى نباتا مهرة الصـــناع النوبيين والفنيين المصريين المقيمين بالنوبة ، فبعث الرجل برســله الى أرقو وأطلال وغيرهما من بلاد النوبة ، وجاءوه بالصناع والعمال . واوجبت الملكة الكبيرة على ابنها أن يعهـــد اليهم بصـــنع الســلاح والخوذات والثياب الحربية ، وبناء السفن وعجلات القتال ، وقالت له تشجعه : « ستعمد يوما الى الهجوم على العدو الذى اغتصب عرشك وامتلك بلادك ، فينبغى اذا جاء هذا اليوم أن تهجم بأسطول كبير ، وقوة عجلات لا تقهر كما فعل العدو مع أبيك » .

وتحولت نباتا فى أثناء السنوات العشر الى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربية بأنواعها جميعاً ، ونمت ثمارها على مر الأيام فكانت دعائم الأمل الجديد . ولما جاء الرجال مع القافلة الأولى ، وجدوا ما يحتاجون اليه من السلاح والعتاد راهنا موفورا ، فأقبلوا على التدريب بقلوب تملؤها الحماسة والأمل الصـــادق ، فانخرطوا جميعاً غداة وصولهم الى نباتا فى سلك الجندية ، وتدربوا على فنون القتال واستعمال الأسلحة المتنوعة تحت اشراف ضباط الحامية المصرية ، فلم تأخذهم فى التدريب هوادة ، فكانوا يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس .

كانوا يعملون جميعاً لا فرق بين كبير وصغير ، فكان الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجند وتكوين نواة الفرق المختلفة ويختار

الصالحين للأسطول ، يعاونه ولى العهد احمس ، وابت الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة الا أن يعملن مع العاملين ، فكن يثقفن السهام ويرشنها ، أو يشتغلن بحياكة الثياب الحربية ، وكن لا يفتأن يختلطن بالجنود والصناع ويؤاكلنهم ويشاربنهم ليشجعنهم ويثبتن قلوبهم . وما كان أروع منظر الأم توتيشيرى وهى مكبة على عملها بهمة لا تعرف الملل ، أو سائرة بين الجنود تشاهد تدريبهم وتلقى عليهم كلمات الحماسة والرجاء ، وكان الرجال يرونها فينسون أنفسهم وينتفضون حماسة واقبالا ، فتبتسم المرأة استبشارا ، وتقول لمن حولها :

ــ ان السفن والعجلات تنقلب مقابر لمن عليها اذا لم تدفعها قلوب أشد صلابة من حديدها ... انظروا الى رجال طيبة كيف يعملون ... ؟ ... سوف ينقض الواحد منهم على عشرة من الرعاة ذوى اللحى القذرة والبشرة البيضاء ، فيطير افئدتهم ...

والحق قد انقلب الرجال بقوة الحماسة والحب والبغضاء وحوشا ضوارى ..

وانصرف الحاجب حور الى اعداد القافلة الثانية ، فضاعف لها السفن ، وملأها بالذهب والفضة والأقزام وغريب الحيوان ، وارتأت الأم توتيشيرى أن يحمل معه جماعات من النوبيين المخلصين ليهديهم الى سادة طيبة ليكونوا عبيدا فى الظاهر وأعواناً فى الباطن ، يطعنون العدو من الخلف اذا اشتغل يوما باشتباك معهم ، وقد راقت الفكرة الملك كما راقت الحاجب حور ، وعمل على تحقيقها بغير تردد ..

وانتهى حور من الاعداد لقافلته واستأذن فى السفر ، وكان الأمير احمس ينتظر تلك الساعة بقلب أضناه الشوق وعناه الجوى ، فاستأذن فى الرحيل على رأس القافلة ، ولكن الملك وقد علم بما وقع له من الأحداث وما تعرض له من الأخطار ، أبى أن يجازف بسفره مرة أخرى بغير داع ، فقال له :

— أيها الأمير ، ان واجبك الآن يدعوك الى البقاء فى نباتا ...

فبغت الأمير بقول أبيه الذى ألقى على الأمل المضطرم فى صدره كما يلقى الماء البارد على الجمرة المستعرة ، وقال له برجاء صادق :

— ان رؤية مصر والاختلاط بأهلها شــفاء من أدواء ابتلى بها قلبى ..

فقال الملك :

— ستجد الشــفاء التام يوم تدخلهــا غازيا على راس جيش الخلاص ...

فعاود الشاب الرجاء قائلا :

— أبى ، طالما عللت نفسى برؤية طيبة قريبا .

فقال الملك بحزم :

— لن يطول انتظارنا ، فاصبر حتى تأذن ساعة الكفاح .

وأدرك الشاب من لهجة الملك أنه قال كلمته الأخيرة ، فاشفق من اغضابه اذا عاوده الرجاء ، وحنى رأسه دلالة على التسليم والقبول وقد أحس الألم يقطع قلبه ويكتم انفاســه ، ولكنه تماســك وتجلد ومضى الى المعسكر حيث يتدرب الرجال والقلب حزين كئيب ، وكان نهاره ينقضى فى العمل الشاق فلم يظفر من يومه الا بساعة قصيرة قبيــل النوم فينــادى فى خلوته حلو الذكريات ، ويحوم بخيــاله حول المقصورة الجميلة فى السفينة الفرعونية التى شاهدت ساعة الوداع أبدع الحسن والطف الهوى ، فيخال أنه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلا : « الى الملتقى » . ثم يتنهد من أعماق قلبه ويقول أسيفا محزونا : أين الملتقى ؟ ... انه الوداع الذى لا لقاء بعده .

على أن نباتا فى تلك الأيام كانت حقيقة بأن تنسى الرجل نفســه وهمه ، وتقصره على الاشتغال بما هو أجل وأخطر ، وكان الرجال يعملون جادين يكافحون بغير انقطاع ، فاذا نسمت عليهم ريح طيبة وهزهم الشــوق الى من خلفوهم وراء أســوارها ، تنهــدوا حينا

ثم انكبوا على ما بين أيديهم بهمة أعظم وعزيمة أشـد ، ومرت بهم الأيام لا يصدقون أن في الدنيا شيئا غير العمل ، أو ان فى الغد شيئاً سوى الأمل ... ثم عادت القافلة برجال جدد يهتفون كما هتفوا يوم مجيئهم ويصـيحون متلهفين مثلهم : أين مليكنـا كاموس ، وأين أمنا توتيشيرى ، وأين أميرنا أحمس ؟ .. ثم ينضمون الى المعسكر يعملون ويتدربون .

وجاء الحاجب حور الأمير أحمس وحياه ، ثم مد له يده برسالة وقال :

— عهد الى أن أحمل الى سموك هذه الرسالة ..

فسأله أحمس وهو يتناولها دهشا :

— من مرسلها ؟

ولكن حور لازم الصمت فى وجوم ، فخطر للأمير خاطر فخفق قلبه ، وفض الرسالة وقرأ الامضاء فارتعدت مفاصله واشتد وجيب قلبه ، وجرت عيناه على الأسطر فاذا هى ما يأتى :

ايها التاجر اسفينيس :

يحزننى ان أخبرك بأنى اخـترت قزما من أقزامك ليعيش معى فى جنـاحى الخاص ، وانى عنيت به وأطعمته ألذ الطعـام وكسـوته أجمل الكسـاء وعاملته أحسن المعاملة ، حتى أنس بى وأنست به ، ثم افتقـدته يوما فلم أجده فأمرت الجوارى أن يبحثن عنه فوجدنه قد هـرب الى أخويه فى الحديقة ، فآلمنى غدره وصـددت عنه ، فهل لك أن تبعث الى بقـزم جديد يعـرف الوفاء ؟ ..

أمنريدس

وأحس أحمس لدى انتهائه من قراءة الرسالة طعنة نجلاء تصيب قلبه ، وأن الأرض تميد تحت قدميه ، ولاحت منه نظـرة الى حور فرآه ينعم فيه النظر كأنه يحاول ان يعرف الرسالة بمطالعة وجهه ،

فتحول عنه وسار فى سبيله محزونا كسير الفؤاد ، يقول لنفسه هيهات أن تدرى بما يمنعه من العودة اليها ، وهيهات أن يستطيع يوما ان يبثها شجوه وعواطفه ، وسترى فيه دائما القزم فاقد الوفاء .

وانطوى على آلامه لا يحس ما يستعر فى فؤاده سوى أقرب الأفئدة اليه : نيفرتارى ، وقد تحيرت من أمره وعجبت لما يكمن وراء ذهوله وشروده ، ونظرة الحزن التى تلوح فى عينيه الجميلتين كلما أرسل النظر غير قاصد شيئا .

فقالت له ذات مساء :

— لست كعهدى بك يا أحمس .

فاضطرب لملاحظتها ، وداعب ضفائرها بأنامله وقال مبتسما :

— انه التعب يا حبيبتى ، الا ترين ما نحن فيه من كفاح يهد الجبال الرواسى ؟ ...

فهزت رأسها ولم تقل شيئا ، وغدا الشاب أشد حذرا ...

على أن نباتا لم تكن لتترك انسانا يغرق فى حزنه ، لأن العمل قاهر الأحزان وقد شهدت من معجزاته ما لم تشهد من قبل ولا من بعد . فكانت تدرب الرجال ، وتصنع السفن والعجلات والسلاح ، وترسل القوافل محملة بالذهب فتعود محملة بالرجال ، ثم تردها فترتد اليها . ومضت الأيام والشهور الطوال الى أن جاء اليوم السعيد المرتقب ، فقصد الملك كاموس الى جدته توتيشيرى وهو لا يتمالك من الفرح ، ولثم جبينها وقال بصوت متهدج :

— أبشرى يا أماه ، لقد تم اعداد جيش الخلاص ...

٢

ودقت طبول الرحيل فانتظم الجيش فرقا ورفع الأسطول مرأسيه ، ودعت توتيشيرى اليها الملك وولى العهد وكبار القواد والضباط وقالت لهم :

ــ هذا يوم من الأيام السعيدة التى طال انتظارى لها ، فأبلغوا جنودكم البواسل أن توتيشيرى تضرع اليهم أن يفكوا أسرها ، ويحطموا الأغلال التى تغل أعناق مصر جميعاً . وليكن شعاركم جميعاً أن تحيوا حياة أمنمحيت أو تموتوا ميتة سيكننرع . وليباركم الرب آمون وليثبت قلوبكم ..

فقبل الرجال يدها النحيلة ، وقال لها الملك كاموس وهو يودعها :

ــ سيكون شعارنا جميعا حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع ، وسيموت من يموت منا أشرف ميتة ، ويحيا من يبقى منا أعز حياة .

وخرجت نباتا وعلى رأسها الأسرة الفرعونية والحاكم رؤوم تودع الجيش اللجب . ودقت الطبول وعزفت الموسيقى وتحرك الجيش متبعاً نظامه التقليدى . فتقدمته قوة الكشافة تحمل الأعلام ، وسار الملك كاموس فى طليعة الجيش وسط هالة من الحاشية والحجاب والقواد يتبعها الحرس الفرعونى فى عجلاته الأنيقة ، ثم تقدمت فرقة العجلات الجبارة تسير صفوفا صفوفا لا يحدها البصر ، تبعث عجلاتها فى الجو صلصلة تصم الآذان وتصهال جيادها كزفزفة الرياح ، وتليها فرقة القسى الثقيلة بقسيها ودروعها وجعبات السهام ، تتأثرها فرقة الرماح المدربة برماحها وتروسها ، ثم فرقة الأسلحة الخفيفة ، تتبعها عربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها الفرسان . وأبحر كذلك الأسطول بسفنه الجبارة وقد تهيأ الجنود عليه بكامل معداتهم من القسي والرماح والسيوف ...

وتقدمت هذه القوات على انغام الموسيقى تستعر الحماســة فى قلوبها الفتية الغاضبة ، ويلقى منظرها الراهب الرعب فى الأفئـدة والنفوس ، تقطع النهار ضارية فى الأرض وتهجع اذا ما خيم الظلام لا تكل ولا يصيبها الاعياء ، مستعينة على مشاق الطريق وطول الرحلة بعزائم لا تزحزح الجبال ، فمروا فى سبيلهم بسمنة وبون وابسلخيس وفنتزيس ونافس ، وما زالوا يضربون فى الأرض حتى بلغوا دابود آخر بلدان النوبة ، ونسمت على وجوههم ريح مصر الطيبة ، فعسكروا واقاموا الخيام ليستريحوا من وعثاء السفر ويأخذوا أهبتهم للنضال . .

ودبر الملك ورجاله خطة الغزو الأولى فأحكموا التدبير . وعهد الى أحمس ابانا ــ وكان أمهر رجال الأسطول كافة ــ بقيادة جزء من الأسطول ليسير به الى حدود مصر ، باعتباره قافلة تجارية مما الف الحراس اجتيازها للحدود فى العهد الأخير . وعند فجر اليوم الرابع لوصول الجيش الى دابود أبحر الأسطول الصغير فبلغ الحدود المصرية عند اسفار الصبح . وكان أحمس ابانا يقف على ظهر السفينة فى ثياب التجــار الفضفاضــة ، فأبرز جواز الدخول للحراس ودخل بأسطوله فى سلام ، وكان الضابط يعلم أن حرس الحدود مكون من سفن قلائل وحامية صغيرة ، فكانت خطته ترمى الى مفاجأة السفن الآمنة والاســتيلاء عليها ، ثم ضرب الحصــار حول جزيرة بيجة حتى يدخل الجيش والأسطول ارض مصر ، فيسهل عليه ضرب سيين ولما تأخذ أهبتها . وتقدمت القافلة فى خط افقى ، فلما دنت من شاطىء بيجة الجنوبى حيث ترسو سفن الرعاة ظهر الجنود على سطحها وبأيديهم القسى ، وخلع أحمس عباءة التجار فبدا فى ثياب الضابط ، وامر باطلاق السهام على حرس السفن . واقترب الأســطول من السفن الراسية بسرعة ، وانقض عليها قبل أن يأتيها مدد من البر ، والقى عليها شباكه وقفز الجنود الى سطحها ليستولوا عليها ، فاشتبكوا مع من وجد فيها من الحراس القليلين ، فى معركة صغيرة فأبادوهم فى زمن

يسير . وفى أثناء هذه الحركة كانت سفينة احمس تطلق سهامها على حرس الشاطىء وتمنع الجنود من معاونة زملائهم فى السفن . فتم الاستيلاء على السفن بسرعة دون أن يكلف المهاجمين ثمناً غالياً . وضرب الأسطول الحصار حول الجزيرة ليمنع الاتصال بالمدن الشمالية ، وتنبهت حامية بيجة الى الحركة الخاطفة فجرت الى الشاطىء ، ولكنها وجدت نفسها حبيسة محصورة ، وأن اسطولها الصغير أسير ...

ولم يمض الا قليل وقت على انتهاء المعركة حتى بدت وحدات الأسطول المصرى فى الأفق تمخر عباب الماء متجهة صوب الحدود ، ثم اجتازتها دون أن تجد مقاومة ، وانضمت الى أسطول أحمس ابانا ، فصارت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة ، مما اضطر حامية بيجة الى التقهقر الى قلب الجزيرة بعيداً من مرمى سهام الأسطول التى انهالت عليها من جميع الجهات .

وما هى الا أن دخلت طلائع الجيش الحدود وانهالت على الجانب الشرقى ، تتبعها الفرق ذات اللجب ، فأدرك المحاصرون فى بيجة ان القادمين غزاة لا قراصنة كما توهموا أول الأمر . ثم أصدر قائد الأسطول قمكاف أمره بالهجوم على الجزيرة ، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات ، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح تحت حماية القسى ، وزحف الجنود من جميع النواحى نحو الحامية المحاصرة فى الوسط ، وكان جنودها ـ الى وقوعهم فى مركز دقيق ـ قد رأوا تدفق القوات المصرية فى البر والنيل فخذلتهم سواعدهم وخانتهم شجاعتهم ، والقوا السلاح وسلموا أنفسهم وأخذوا أسرى . وكان أحمس ابانا على راس المهاجمين ، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر ، ورفع عليه الاعلام المصرية ، وامر بالقبض على الموظفين الرعاة والأعيان أسوة بالجنود ..

ورأى اهل الجزيرة من الفلاحين والعمال والخدم الجنود المصريين

فلم يصدقوا أعينهم ، وهرعوا نساء ورجالا الى قصر الحاكم الجديد وتجمعوا أمامه ليروا ما الخبر ، تصطرع فى نفوسهم الآمال والمخاوف ، فخرج اليهم أحمس ابانا ، وقد تطلعوا اليه صامتين ، فقال لهم :

— حياكم الرب آمون حامى المصريين وقاهر الرعاة .

فوقعت كلمة آمون من آذانهم موقعاً جميلا ساحرا ، وقد حرموا سماعها عشرة أعوام ، وأضاء وجوههم الابتهاج فتساءل بعضهم :

— هل أتيتم حقا لانقاذنا ؟

فقال أحمس ابانا بصوت متهدج :

— لقد جئنا لانقاذكم وانقاذ مصر المستعبدة فأبشروا ، الا ترون هذه القوات الهائلة ؟ انها جيش الخلاص ، جيش مولانا الملك كاموس ابن مليكنا الشهيد سيكننرع ، الذى جاء لتحرير شعبه واستعادة عرشه .

فنطق القوم باسم كاموس كالذاهلين ، ثم غمرهم الفرح والحماسة فهتفوا له طويلا ، وجثا كثيرون يصلون للرب آمون المعبود ، وسأل بعض الرجال أحمس ابانا قائلين :

— هل انتهت عبوديتنا حقا ؟ وهل نرد اليوم أحراراً كما كنا من قبل سنوات عشر ؟ .. هل مضى زمن السوط والعصا وتعييرنا بأننا فلاحون ؟ ..

فاهتاج أحمس ابانا غضبا وقال بحنق :

— ثقوا أن عهد الظلم والعبودية والسوط قد مضى الى غير رجعة ، وأنكم ستعيشون منذ الساعة سادة أحرارا فى كنف مليكنا كاموس فرعون مصر الشرعى ، وسترد اليكم أرضكم وبيوتكم ويلقى بمن اغتصبوها هذا الدهر فى غيابات السجون .

فشمل الفرح النفوس المعذبة ، وانتظمتهم صلاة جامعة تصاعد فيها الدعاء الى آمون فى السماء ، وكاموس فى الأرض ...

٣

وفى رونق الضحى نزل الملك كاموس وولى عهده أحمس والحاجب حور وأفراد الحاشـــية جميعا الى أرض الجزيرة فاستقبله الأهلون استقبالا حماسياً ، وخروا سجدا يقبلون الأرض بين يديه ، وتعالى هتافهم لذكرى سيكننرع ولتوتيشيرى وللملك وللأمير أحمس ، فحياهم كاموس بيديه ، وتحدث الى جمع غفـــير من رجالهم ونســـائهم وأطفالهم ، وأكل ما قدموه له من الدوم والفاكهة ، وشرب وحاشيته وقواده أقداحاً مترعة بنبيذ مريوط ، وذهبوا جميعاً الى قصر الحاكم ، وأصدر الملك أمره بتعيين أحد رجاله المخلصين المدعو سمار حاكما على الجزيرة وعهد اليه فى نشر العدالة وتطبيق القوانين المصرية . وفى ذلك الاجتماع أجمع القواد على وجوب مفاجأة سيين عند الفجر ، لتضرب الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها ..

ونام الجيش مبكرا واستيقظ قبيل الفجر . ثم زحف نحو الشمال ومعه الأسطول يسد منافذ النيل ، فشق الظلماء والنجوم ســاهرة يقظى تراقبه بأعين لامعة ، والغضب يتأجج فى الصدور فتتلهف على الانتقام والقتال . واقتربوا من سيين وقد اختلطت ظلمة آخر الليل بنور الصـــباح الأزرق الخجول ، وشف الأفق الشرقى عن طلائع الشمس ، وأصدر كاموس أمره الى قوات العجلات بأن تزحف على المدينة من الجنوب والشرق تؤيدها قوات من فرقتى القسى والرماح ، وامر أسطوله بضرب الحصار على الساحل الغربى للمدينة ، وهجمت القوات على المدينة من ثلاث جهات فى وقت واحد ، وكان يقود العجلات ضباط قدماء يعرفون المدينـــة ومواقعها ، فوجهوا العجـــلات نحو الثكنات ومراكز الشرطة . وتبعتها قوات المشـــاة شاكية الســـلاح فأوقعوا بالعدو مذبحة سالت فيها الدماء أنهارا . واستطاع الرعاة

أن يقاتلوا فى بعض المواقع فدافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس ، وتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة هبت عليها ريح عاصفة .. أما الأسطول فلم يلق مقاومة ولم يلتق فى طريقه بسفن حربية فاستولى على الشاطىء وأنزل قوات من جنوده فهجموا على القصور المشرفة على النيل وقبضوا على أصحابها ، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار الأعيان ، ثم اخترقت القوات الحقول صوب المدينة ...

وكانت المفاجأة عاملا فاصلا فى المعركة قصر مدتها وكثر صرعاها من الرعاة ، فما ارتفعت الشمس فى الأفق وأرسلت نورها الى المدينة حتى رئيت جموع الغزاة وهى تحتل الثكنات والقصــور وتســوق الأسرى ، وشوهدت الجثث ملقاة فى السبل وأفنية الثكنات وقد سالت دماؤها ، وذاع فى أرجاء المدينة والحقول القريبة أن كاموس بن سيكننرع اقتحم سيين بجيش جرار واستولى عليها ، فاســتعرت على الأثر ثورة دموية ، وهاجم الأهلون بيوت الرعاة وقتلوهم فى مخادعهم ، ومثلوا بهم وضربوهم بالســياط ضربا مبرحا ، فهام كثــيرون على وجوههم فزعين كما فعل المصريون حين زحف أبو فيس على الجنوب بعجلاته ورجاله ... ثم هدات النفوس وقبض الجيش على ناصــية الحال ودخل الملك كاموس على رأس جيشه تخفق على رأسه الأعلام المصرية وتسير بين يديه قوات الحرس بموســيقاها ، فهب الأهلون يستقبلونه ، وكان يوما مجيدا ...

ونقل الضباط للملك أن عددا غفيرا من الشبان — ومنهم من كانوا جنــودا فى الجيش القديم — يقبلون على التطوع فى الجيش بحماسة فائقة ، فسر كاموس وولى على المدينة أحد رجاله المدعو شاو ، وأمره بأن ينظم المتطوعين ويدربهم لينضموا الى الجيش جنودا متأهبين ، وأحصى القواد للملك ما غنموه من العجلات والسلاح والجياد ، فاذا هو شيء عظيم .

واقترح الحاجب حور على الملك أن يتقدموا دون توان حتى لا يدعوا للعدو مهلة للتأهب وحشد الجيوش ، وقال :

— سنخوض أول معركة حقيقية فى أمبوس ..

فقال كاموس :

— نعم يا حور ، ولا يبعد أن يكون قد طرق أبواب أمبوس الآن عشرات الفارين ، فلا مجال للمفاجأة بعد الآن ، وسنلقى عدونا مستعدا ، وربما استطاع أبو فيس أن يلقانا بقواته الغاشمة فى هيراكونوليس .. فهيا الى المسير ...

وزحفت القوات المصرية — البرية والنيلية — صوب الشمال فى طريق أمبوس ، ودخلت فى قرى كثيرة فلم تلق مقاومة البتة ، ولم تعثر برجل واحد من الرعاة ، وعلم الملك أن رجال العدو يحملون متاعهم ويسوقون حيوانهم فارين الى أمبوس ، وخرج الفلاحون يستقبلون جيش الخلاص ويحيون مليكهم المظفر ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل . وجد الجيش فى المسير حتى شارف أمبوس ، وهناك جاءت طلائع الكشافة تقرر أن العدو معسكر جنوب المدينة متأهبا للقتال ، وأن أسطولا متوسط العدد يرسو غرب أمبوس ، فعلم كاموس أن أول معركة مهمة باتت على الأبواب . ورغب الملك فى أن يعرف عدد جنود عدوه ، ولكن تعذر ذلك على جنود الكشف لأن العدو كان يعسكر فى سهل منبسط لا تسهل مراقبته ، فقال قائد شاب يدعى محب :

— لا أظن يا مولاى أن قوة أمبوس تعدو بضعة آلاف ...

فقال الملك كاموس :

— ائتونى بكل ضابط أو جندى من أمبوس ...

وفطن الحاجب حور الى ما يريد الملك فقال :

— عفوا يا مولاى ، لقد تغير وجه أمبوس فى عشرة الأعوام المنقضية ، فأنشئت بها ثكنات لم تكن من قبل ، رأيتها بعينى فى بعض رحلاتى التجارية ، ومن المرجح أن الرعاة جعلو منها مركزا للدفاع عن البلاد المتاخمة للحدود ...

فقال القائد محب :

— على اى حال يا مولاى أرى أن نهجم بقوات خفيفة ، حتى لا نتكبد خسارة فادحة ...

ولم يستحسن الأمير أحمس هذا الرأى ، فقال لأبيه :

— مولاى أرى خلاف هذا الرأى ، أرى أن نهاجم بقوات كثيفة لا تقاوم ، وأن نقذف جل قواتنا فى المعركة لنضرب العدو الضربة القاضية فى أقصر وقت ، فنذهل القوات التى تحشد فى طيبة الآن لقتالنا ، ونقاتل من الغد رجالا يرون الموت ماثلا فى قتالنا . ولا خوف علينا من المخاطرة بجنودنا ، فسيتضاعف جيشنا بما ينضم اليه من المتطوعين فى كل بلد نغزوه ، ولن يجد عدونا لخسارته عوضا ..

وراق هذا الرأى الملك فقال :

— ان رجالى يجودون بأنفسهم عن طيب خاطر فى سبيل طيبة ...

وكان الملك يعلم بما لانتصار الأسطول من أثر حاسم فى كسب الموقعة ، للدور الخطير الذى يلعبه فى ضرب الحصار على شواطىء المدن الغنية أو انزال جنود فى مؤخرة العدو ، فأصدر امره الى القائد قمكاف بالهجوم على سفن الرعاة الراسية غرب أمبوس ...

وغدا الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح ، وكان الرعاة رجال حرب وجلاد ، ذوى بأس ومقدرة ، وكانوا يستهينون بالمصريين استهانة متأصلة ، فبدءوهم بالهجوم وهم يجهلون قوتهم ، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكونة من مائة عجلة حربية . وأصدر كاموس أمره بالهجوم ، فاندفعت قوات من العجلات تزيد على ثلاثمائة ، وأطبقت على قوة العدو فثار النقع وصهلت الخيل وعزفت القسى . ودار قتال عنيف ، وعزم الأمير أحمس على أن يقضى على العدو القضاء المبرم فاندفع بمائتى عجلة جديدة على قوات المشاة التى تنتظر نتيجة معركة العجلات أمام ابواب أمبوس ، وتبعته قوات من فرقة القسى وأخرى من حملة الرماح . وانقضت العجلات على المشاة فاخترقت صفوفهم وألقت فيها الاضطراب والفزع ، وانهالت عليهم بالسهام كالمطر ، فتشتت شملهم بين جريح وقتيل وهارب فتلقتهم

قوة المشاة المهاجمة فى كثرة لا تقاوم وقضت عليهم القضاء الأخير . وذهل العدو الذى لم يكن يتوقع أن يلاقى قوات بهذا العدد ؛ وانهارت قواته سريعا ، وتساقط فرسانه وحطمت عجلاته . وسيطر المصريون على الميدان فى زمن يسير لا يصدق ، بعد أن قاتلوا بغضب وحنق ، وضربوا بسواعد يشد أعصابها حقد مؤرث وسخيمة مستعرة ..

واقتحمت قوات مسلحة أبواب أمبوس ودخلتها عنـــوة لتحتل الثكنات وتطهرها من بقايا جنود العدو ، ومضى الضباط فى الميدان ينظمون فرقهم ويحملون الجرحى والقتلى . ووقف الملك كاموس فى وسط الميدان على عجلته يحيط به القواد والى يمينه الأمير أحمس والى يساره الحاجب حور ، وكانت الأنباء جاءته بأن أسطوله كر على سفن العدو وهجم عليها بشدة ، وأنها تقهقرت أمامه دون انتظام ... فسر الملك وقال لمن حوله مبتسما :

ـــ بدء موفق ..

فقال الأمير أحمس ، وكان معفر الثياب مغبر الوجه متصبب الجبين عرقا :

ـــ انى أتوق لخوض معارك أشد هولا ..

فقال كاموس وهو يلقى على وجهه الجميل نظرة اعجاب :

ـــ لن يطول انتظارك ..

ثم نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله ، وسار خطى حتى صار وسط جثث الرعاة ، وألقى عليها نظـــرة وقد انبجست الدماء منها فخضبت جلدها الأبيض ومزقتها السهام والرماح ، ثم قال :

ـــ لا تظنوا هذه الدماء دماء أعدائنا ، بل هى دماء قومنـــا التى امتصوها وتركوهم يتضورون جوعا .

وامتقع وجه كاموس واكتسى بلون قاتم من الحزن ، فرفع رأسه الى السماء وتمتم قائلا :

ـــ لتنعم روحك يا أبت بالسلام والغبطة ..

ثم نظر الى من حوله وقال بصوت دلت نبراته على القوة والبأس :

ـ ستمتحن قوتنا فى معركتين شديدتين فى طيبة وهواريس ، فاذا آزرنا النصر فيهما طهرنا الوطن من الرعاة الى الأبد ، ورددنا مصر الى عهد أمنمحيت المجيد ، فمتى نقف موقفنا هذا على جثث المدافعين عن هواريس ؟ ..

وتحول الملك ليرجع الى عجلته ، وفى تلك اللحظة انتصبت جثة من بين الجثث واقفة بسرعة البرق وسددت قوسا نحو الملك وأطلقت ... ولم يكن فى الوسع منع القضاء ولا ضرب القاتل قبل أن يطلق ، فأصاب السهم صدر الملك ، وقد صرخ الرجال صرخة الفزع وأطلقوا السهام على الهكسوسى ، وهرعوا الى الملك بأفئدة يملؤها الرعب والاشفاق ، وصعدت من صدر كاموس آهة عميقة ، ثم ترنح كالثمل وسقط بين يدى ولى عهده ، وصاح الأمير :

ـ أحضروا هودجا وادعوا الطبيب .

ومال برأسه على أبيه وقال بصوت متهدج :

ـ أبتاه .. أبتاه ألا تستطيع أن تكلمنا ؟ ..

وجاء الطبيب على عجل ومعه الهودج ، فحملوا الملك وأناموه عليه فى عناية فائقة . وركع الطبيب الى جانبه ، ومضى يخلع درع الملك وسترته ليكشف عن صدره ، وأحاطت الحاشية بالهودج فى سكون ، يرددون أعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدى الطبيب . وذاع الخبر فى الميدان ففشت الضوضاء ، ثم ساد صمت ثقيل كأنما لحق الفناء بذاك الجيش العرمرم ..

نزع الطبيب السهم وكان الدم يتدفق من الجرح بغزارة ، فتقلص وجه الملك من الألم ، فأظلمت عينا الأمير أحمس من الحزن ، وتمتم حور قائلا : « رباه .. ان الملك يتألم .. » . وغسل الرجل الجرح ووضع عليه الحشائش ، ولكن الملك لم يبد عليه أى تحسن ، وارتعشت أطرافه بصورة جلية ، ثم تنهد تنهدة عميقة ، وفتح عينيه فلاحت فيهما نظرة قاتمة لا تدل على الحياة ، فازداد صدر أحمس انقباضا ، وقال لنفسه شاكيا : « لشد ما تغيرت يا والدى .. » . وحرك الملك

عينيه حتى استقرتا على وجه أحمس ، فلاحت فيهما ابتسامة ، وقال بصوت ضعيف لايكاد يسمع .

ــ ظننت قبل حين أنى بالغ هواريس ، ولكن الرب يريد أن تنتهى رحلتى على أبواب أمبوس ..

فصاح أحمس بصوته الحزين :

ــ فدتك نفسى يا أبتاه ..

فقال الملك بصوته الضعيف :

ــ كلا صن نفسك فما أكبر الحاجة اليها .. وكن أشد حذرا منى ، واذكر دائما أنه لا يجوز أن تكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير ، ويجلو القوم عن ديارنا جميعاً ..

وخشى الطبيب على الملك من الجهد الذى يبذله فى الكلام وأشار عليه بالسكوت ، ولكن الملك كان يندمج فى احساس علوى هو الفاصل بين الفناء والخلود ، فقال بصوت تغيرت نبراته وبدا غريب الوقع :

ــ قل لتوتيشيرى انى لحقت بأبى باسلا مثله .

ومد يده لابنه ، فجثا الأمير على ركبتيه وضمها الى صدره ، وقبض الملك على منكبه حينا يودعه ، ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح ...

وسجى الطبيب الجثة ، وسـجد الرجال حولها وصلوا صـلاة الوداع ، ثم قاموا وكأنهم من الحزن سكارى ، واستدعى الحاجب حور قواد الفرق وكبار الضباط ، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلا :

ـ أيها الرفاق ، يؤسفنى وحق الرب أن أنعى اليكم مليكنا الباسل كاموس ، فقد استشهد فى ميدان الكفاح وفى سبيل مصر كما استشهد أبوه من قبل ، وانتقل الى جوار أوزوريس منتزعا من صميم نفوسنا ، بعد أن أوصانا بألا نكف عن الكفاح حتى تسقط هوأريس ويجلو العدو عن ديارنا . وانى بوصفى حاجب هذه الأسرة الكريمة أعزيكم فى مصابنا الجلل ، وآذنكم بتولية مليكنا الجديد وقائدنا المجيد أحمس بن كاموس ابن سيكننرع حفظه الرب وأيده بالنصر المبين ..

فحيا القواد جثة كاموس وانحنوا لأحمس الملك الجديد ، وأذن لهم الحاجب بالعودة الى جنودهم لاعلان الوفاة والتولية ..

وأمر حور الجنود أن يرفعوا الهودج الملكى على الأعناق وقد غلبه الحزن ، فقال وهو يجفف عينيه :

ـ لتنعم نفسك العالية بالغبطة والسلام فى جوار أوزوريس . كنت على وشك أن تدخل أمبوس على رأس جيشك المظفر ، ولكن قضى الرب أن تدخلها محمولا على نعشك ، وانك لأكرمنا على الحالين ...

ودخل الجيش أمبوس فى نظامه التقليدى يتقـدمه نعش الملك كاموس . وكان الخبر الفاجع قد شمل المدينة كلها ، فجرعت لذة النصر ولوعة الحزن فى شربة واحدة . وجاءت الجموع الغفيرة من كل مكان تستقبل جيش الخلاص وتودع مليكها الراحل بقلوب تحيرت بين الفرح والحزن . ولما رأى الناس الملك الجديد أحمس سجدوا فى سكون وخشوع ، ولم يتعال فى ذلك اليوم هتاف قط .. وتسلم كهنة أمبوس

الجثمان العظيم ، وخلا أحمس الى نفسه فكتب رسالة الى توتيشيرى كما أوصاه أبوه ، وبعث بها مع رسول ...

وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار سارة ومؤسفة عن الأسطول ، قالوا : ان الأسطول المصرى هزم أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته ، ولكن القائد قمكاف سـقط قتيلا ، وأن الضـابط أحمس أدار دفة المعركة بعد سقوط القائد ، وحاز النصر النهائى ، وقتل قائد الرعاة بيده فى معركة عنيفة . وأراد الملك أن يكافىء أحمس ابانا ، فأصـدر أمره بتوليته قيادة الأسطول ...

واتبع سياسة أبيه الحكيمة فولى صديقه هام حكم أمبوس ، وعهد اليه بتنظيمها وتجنيد القادرين من أهلها ، وقال الملك لحور :

ــ سنتقدم بقواتنا سريعا ، لأنه اذا كان الرعاة يعذبون قومنا فى وقت السلام فانهم سيضاعفون لهم العذاب فى وقت الحرب ، فينبغى أن نقصر عهد العذاب ما وسعنا الجهد ..

واستدعى الملك الحاكم هام ، وقال له أمام حاشيته وقواده :

ــ اعلم انى آليت على نفسى منذ اليوم الذى سعيت فيه الى أرض مصر فى ثياب التجار أن أجعل مصر للمصريين ؛ فليكن هذا شـعارك فى حكم هذا البلد ؛ وليكن رائدك أن تطهره من البيض ، فلن يحكم بعد اليوم الا مصرى ، ولن يمـلك الا مصرى ، والأرض أرض فرعون والفلاحون نوابه فى استثمارها ، لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حياة رغدة ، وله ما يفيض عن حاجتهم ينفقه فى الصالح العام ، والمصريون متساوون أمام القانون ، لا يرفع الأخ منهم الا فضله ، ولا عبد فى هذا البـلد الا الرعاة ... وأوصيك أخيرا بجثة أبي فأد اليها واجبها المقدس ...

[٥]

وغادر الجيش أمبوس عند الفجر ، وأبحر الأسطول ، ومضت الطلائع تدخل القرى ، فتستقبل فيها أحر استقبال وأجمله حتى شارفوا أبولبتوبوليس مجنا ، فتأهبوا لخوض معركة جديدة . ولكن الطلائع لم تلق أية مقاومة ودخلت المدينة بسلام . وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل فى ريح مؤاتية فلا تجد أثراً لسفن العدو . فأشار حور الحذر بطبعه على الملك أن يرسل بعض قواته الكشفية الى الحقول الشرقية خشية أن يقعوا فى كمين . وبات الجيش والأسطول فى أبولبتوبوليس مجنا ، وفارقاها مع الفجر ، وكان الملك وحرسه يسيرون فى مقدمة الجيش وراء القوات الاستطلاعية ، والى يمين الملك عجلة الحاجب حور يحيط بهما رجال الحاشية الخبراء بطبيعة البلاد ، وسأل الملك حور :

— السنا سائرين الآن الى هيراكونبوليس ؟

فقال الحاجب :

— بلى يا مولاى ، وهى مركز الدفاع الأمامى عن طيبة نفسها ، وستنشب فى واديها أول معركة شديدة بين قوتين متعادلتين .

وحين الضحى جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول للرعاة يظن لضخامته وكثرة وحداته انه الأسطول الكامل للعدو ، وان المعركة تدور بقوة وعنف . فعطف الملك رأسه نحو الغرب وبدا على وجهه الجميل الرجاء والأمل ، وقال حور :

— ان الرعاة يا مولاى حديثو عهد بحرب الأساطيل ...

فصمت الملك ولم يجب ، ومضت الشمس ترتفع الى كبد السماء والجيش يتقدم بفرقه ومعداته ، فاستسلم أحمس للتأمل والتفكير ، وتمثلت له أسرته وهى تتلقى نبأ مقتل كاموس ، وكيف تفزع أمه

ستكيموس وتنفجع جدته أحوتبى وتئن الأم الصابرة توتيشيرى وتبكى زوجه نيفرتارى التى أصبحت ملكة مصر .. رباه ... لقد سقط كاموس غدرا وخسر جيشه بسالته ودرايته واورثه تركة مثقلة بجلائل الواجبات . ثم سرى خياله الى الأمام ، الى طيبة حيث يملك أبو فيس ويعانى الشـــعب ألوان العــذاب والذل ، وذكر خنزر الحاكم الهائل الباسل الذي لن تهدأ نفســـه حتى ينتقم لجده الشهيد منه ويرديه قتيلا ، ثم لاحت لخاطره الأميرة أمنريدس وذكر المقصورة التى أصلاهما الهوى فيها نارا مقدسة ، وتساءل : أما تزال تتعلق بالتاجر الجميل اسفينيس وتأمل أن يبر لها بوعده ؟

وهنا سعل حور فذكره بأنه لا ينبغى له أن يتشوق الى أمنريدس وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها ، فأراد أن يطرد الفكر : فألقى ببصره على جيشـــه العرمرم الذى ينطبق الأفق على الأرض دون مؤخرته ، فسرى عنه وعاد الى التفكير فى المعركة الدائرة فى النيل .. وعند منتصف النهار جاءت رسل الاستطلاع يقولون : ان الأسطولين مشتبكان فى قتال عنيف ، وأن القتلى تسقط بكثرة من الجانبين ، وأن القوتين ما تزالان متعادلتين بحيث يســتحيل التكهن بنتجة المعركة . فلاح العبوس فى وجه الملك ولم يخف قلقه ، فقال حور :

ـــ لا داعى للقلق يا مولاى فأسطول الرعاة قوة لا يستهان بها ، واسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة فى النيل .

فقال أحمس :

ـــ اذا خسرناها خسرنا نصف الحرب .

فقال حور بيقين :

ـــ واذا كسبناها يا مولاى كما أتوقع كسبنا الحرب كلها .

وأمسى الجيش على مسير بضع ساعات من هيراكونبوليس فوجب التوقف للراحة والاستعداد ، على أنه ما كاد يمكث وقتا قصيراً حتى

جاءت الأخبار بأن الطلائع تقاتل قوات متفرقة من جيش العدو ، فقال أحمس :

— ان الرعاة مستريحون ، ولا شك أنهم يرحبون بالاشتباك معنا الآن .

وأمر الملك بارسال قوة من العجلات لتؤيد قوات الاستطلاع اذا هاجمتها قوات تفوقها عددا ، واستدعى قواده وأمرهم بالاستعداد لخوض المعركة فى اى وقت كان ..

وكان أحمس يحس التبعة الخطيرة التى يتحملها بقيادته الجيش لأول مرة فى حياته ، وشعر بأنه حامى هذا الجيش العظيم والمسئول عن مصير مصر الى الأبد ، فقال لحور :

— ينبغى أن نوجه قوتنا لتحطيم عجلات الرعاة .

فقال الحاجب :

— هـذا ما سيحاوله كلا الجيشين . واذا حطمنا عجلات العدو وسيطرنا على الميدان ، أصبح جيشه تحت رحمة قسينا ..

وفى تلك الساعة واحمس يتأهب لخوض غمار المعركة ، جاء رسول من ناحية النيل واخبر الملك أن الأسطول المصرى تلقى ضربات شديدة ، فرأى أحمس ابانا أن يتقهقر بوحداته الأساسية ليعيد تنظيمها ، وان القتال مستمر على أشده . فساور القلق الشاب وأشفق من ضياع أسطوله العظيم ، ولم يجد مهلة للتفكير اذ أخبر أن جيش العدو بدأ هجومه . فحيا حور والحاشية وتقدم بحرسه وأمر فرقة العجلات بالهجوم ؛ فهجم الجيش فى قلب وجناحين اندفعوا صفوفا متراصة فى سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالا . وما لبثوا أن رأوا جيش الرعاة يتقدم منقضا كالريح العاصفة فى جموع كثيفة من العجلات ، فعلموا أن عدوهم يلقاهم بقواته الوحشية التى طالما سامتهم الخسف ، فثار الغضب فى نفوسهم وصاحوا بصوت كهزيم الرعد : « حياة أمنحيت أو ميتة سيكننرع » .. والقوا بأنفسهم فى المعركة بقلوب تتعطش الى القتال والانتقام ، فقاتل الفريقان بقوة وقسوة

ووحشية . وخضبت الأرض بالدماء . واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزيف القسى . واستمر القتال قاسياً عنيفاً حتى مالت الشمس نحو الأفق وذابت فى بحيرة من دماء . وحلقت فى الفضاء أشباح الظلام ، فكف الجيشان ورجع كل الى معسكره ، وكان أحمس يسير وسط دائرة من حرسه الذى دافع عنه فى أثناء كره وفره ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور فقال لهم :

— كان قتالا عنيفاً كلفنا أبطالا بواسل ...

ثم تساءل الملك :

— ألم تجد أخبار عن معركة النيل .

فقال الحاجب :

— ما يزال الأسطولان يعتركان ...

— أما من جديد عن أسطولنا ؟

فقال حور :

— قاتل فى أثناء النهار وهو يرتد ، ثم التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلالم فلم تستطع انفصالا حين خيم الظلام ، والقتال ما يزال مستمرا وانا لفى انتظار ما يجد من الأخبار .

فتجهم وجه الملك التعب ، وقال لمن حوله :

— لندع الرب جميعاً أن ينصر اخواننا الذين يقاتلون على متن النيل ....

٦

واستيقظ الجيش مع طلوع الفجر وأخذ فى الاستعداد والتأهب ، وجاءت العيون بأنباء مهمة فقالوا : ان الحركة لم تسكن طوال الليل فى معسكر العدو . وقرر بعض من جازفوا بالتوغل فى الحقول المحيطة بميدان القتال أن قوات جديدة من الرجال والعجلات جعلت تتدفق على هيراكونبوليس طوال الليل وأن تدفقها لم ينقطع الى ما قبيل طلوع الفجر . وتفكر حور مليا ثم قال :

ــ ان العدو يا مولاى يجمع لنا جل قواته هنا ليلقانا بجيشــه كاملا ، ولا أعجب لذلك لأننا اذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس فلن يعوق تقدمنا سوى أسوار طيبة المجيدة ...

وجاءت أخبار ســارة من جانب النيل ، فعلم الملك أن أســطوله قاتل قتال المستيئس فلم يتمكن منه عدوه كما اشــتهى ، وأنه على العكس طرد جنوده من كثير من سفنه بعد أن وطئتها أقدامهم فاضطر أسطول الرعاة أن ينفصل عنه وقد خسر ثلث قوته . وكف الأسطولان عن القتال ساعات ثم اشتبكا فى عراك جديد بعيد مطلع الفجر ، وكان أسطول أحمس ابانا البادىء بالهجوم ، فانشرح صــدر الملك وتوثب للقتال بقلب جذل ...

وحين ســفور الصبح تقدم الجيشان للقتال ، وبرزت صــفوف العجلات وصاح المصريون صيحتهم المعروفة : حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع . ثم قدموا بأنفسهم فى معترك الموت لا يلوون على شىء ، فالتقوا بالعدو فى صدمات قاتلة واشــتدوا عليه كما اشــتد عليهم ، وقاتلوا بالقسى والرماح والسيوف . ولاحظ الملك أحمس بالرغم من اشتداد القتال أن قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ويرسل القوات هنا وهناك بانتظام ودقة ، فعاين القائد البارع فاذا به غير

حاكم هيراكونبوليس ، واذا به الملك أبو فيس نفسه الذى أهدى اليه التاج المرصـــع بالجواهر فى قصر طيبة بجسمه البدين ولحيته الطويلة وبصره الحاد فتحفز أحمس لهجمات شـــديدة ، وقاتل قتال الأبطـــال البواسل وحرسه يرد عنه هجمات العدو ، فلم يلق فارسا من القوم الا جندله فى غمضة عين ، حتى هابوا نزاله ويئسوا من التغلب عليه .
وطال أمد القتال ، واندفعت الى الميدان قوات جديدة من الجانبين ، فاستمر القتال على عنفه وشدته حتى أوشك النهار أن يزول . وفى تلك الساعة وقد نهكت قوى الطرفين انقضت قوة من عجلات الرعاة على جناح المصريين الأيسر بقيادة رجل شـــديد البأس ، وضـــغطته ضـــغطا شديدا لم تفد معه المقـــاومة المنهوكة القوى ، ومضت تصنع لنفسها ثغرة تندفع منها لتطويق القوة المحاربة أو لاهجوم على المشاة ؛ فأدرك أحمس أن ذاك القائد ذا انبأس تحين فى تعبهم فرصة مناسبة ، وأنه ادخر قوته ليضرب ضربة قاضية . وخشى أن يظفر الرجل بغرضه فيوقع الاضطراب فى صفوف جيشه المتراصة ، أو يوقع مذبحة فى مشاته ؛ فرأى أن يقتحم قلب العدو بقواته ليضيق عليه ، فيجد القائد الداهية نفسه شـــبه محاصر . ولم يتردد لأن الموقف كان خطيرا دقيقا ، فأمر جنوده بالهجوم وهجم على القلب بحركة فجائية قوية ، واشتد القتال الى درجة مروعة مفزعة ، واضطر العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد . وحينذاك أرسل أحمس قوة من العجلات لتطويق القوة التى تشتد على جناحه الأيسر ، ولكن القائد كان داهية بارعا ؛ فعدل خطته بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ورمى بقوة صغيرة من عجلاته تهجم على العدو ، وتقهقر هو وبقية القوة بسرعة الى جيشه . وفى أثناء هذه العملية الدقيقة استطاع أحمس أن يرى القائد الجسور وأن يعرف فيه خنزر حاكم الجنوب الجبار ببنيانه المتين وعضلاته الفولاذية ؛ وقد كلفت هجمته الجبارة المصريين صرعى كثيرين من زهرة فرسان العجلات . وانتهى القتال بعد ذلك بقليل فعاد الملك

وجيشه الى معسكرهم ، وكان احمس يقول متوعداً غاضباً : « لابد أن نلتقى يا خنزر وجها لوجه ... » واستقبله رجاله بالدعاء . ووجد بينهم شخصاً جديداً هو احمس ابانا ، فتفاءل من وجوده فى المعسكر وسأله :

— ماذا وراءك أيها القائد ؟

فقال أحمس ابانا :

— النصر يا مولاى ، لقد أوقعنا بأسطول الرعاة الهزيمة وأسرنا أربع سفن كبيرة من وحداته واغرقنا نصفه ، وفرت سفن لا تغنى ولا تعين .

فتهلل وجه الملك ، ووضع يده على منكب القائد وقال :

— لقد كسبت لمصر بهذا النصر نصف الحرب ، واننى بك جد فخور .

فتورد وجه أحمس ابانا وقال بسرور :

— ما من شك يا مولاى فى أننا دفعنا ثمن النصر غاليا ، ولكن أصبحت لنا السيادة المطلقة على النيل .

فقال الملك بلهجة رزينة :

— كبدنا العدو خسارة كبيرة أخشى ألا نجد عوضاً منها ، والفوز فى هذه الحرب لمن يقضى على فرسان عدوه .

وسكت الملك هنيهة ثم استدرك :

— ان حكامنا فى الجنوب يدربون الجند ويبنون السفن والعجلات ولكن تدريب فرسان العجلات يتطلب زمنا طويلا ، فلن ينفعنا فى المعركة التى نخوض غمارها الا استبسالنا حتى لا تواجه مشاتنا عجلات العدو مرة أخرى ...

٧.

استيقظ الجيش مرة أخرى عند مطلع الفجر وأخذ فى التأهب والاستعداد ، وارتدى الملك لباسه الحربى واستقبل فى خيمته رجاله وقال لهم :

ــ لقد صح عزمى على مبارزة خنزر ...

فارتاع حور لهذا القول وقال برجاء عظيم :

ــ مولاى ، ينبغى ألا تشل ضربة طائشة عملنا المجيد .

وتوسل كل قائد الى الملك أن يأذن له فى قتال حاكم الجنوب ، ولكن أحمس شكرهم وقال لحور :

ــ لن يشل عملنا خطب وأن جل ، ولن يعوقه مصرعى اذا صرعت ، فلا يفتقر جيشى الى القواد ولا تعوز بلادى الرجال ، وما كان لى أن أضيع من بين يدى فرصة أواجه بها قاتل سيكننرع ، فدعنى أقاتله حتى أقتله لأوفى دينا فى عنقى نحو روح كريم يراقبنى من العالم الغربى : ولتنزل لعنة الرب بالمترددين الخائرين ...

وأرسل الملك ضابطا ليعرض على خصمه رغبته ، فتوسط الرجل الميدان وصاح :

ــ أيها العدو ، ان فرعون مصر يرغب فى مبارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم .

فبرز له رجل من كتيبة خنزر :

ــ قل لمن تدعوه فرعون : ان القائد خنزر لا يحرم عدوا شرف الموت بسيفه ...

فامتطى أحمس صهوة جواد كريم ، ووضع السيف فى حاملته والرمح فى قرابه ، ونخسه فعدا به الى الميدان . ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواد اشهب تياها فخورا يبدو جسمه كأنه كتلة جبارة من الجرانيت ، فتدانيا رويدا رويدا حتى كاد رأسا جواديهما أن يتماسا ،

وشايں كل منهما خصمه فلم يتمالك خنزر أن بدت على وجهه الدهشة وصاح بغرابة :

— رباه .. من أرى أمامى ... أليس اسفينيس تاجر الأقزام واللآلىء ؟ يا لها من دعابة ، أين تجارتك أيها التاجر اسفينيس ؟

وكان أحمس ينظر اليه فى هدوء وسكينة فقال له :

— انتهى اسفينيس أيها القائد خنزر ، وليس لى من تجارة الآن سوى هذا ...

وأشار الى سيفه . فملك خنزر عواطفه وسأله :

— فمن تكون اذا ؟

فقال أحمس ببساطة وهدوء :

— أحمس فرعون مصر .

فضحك خنزر ضحكة عالية دوت فى الميدان ، وقال ساخرا :

— ومن الذى ولاك مصر وهذا ملكها يحمل التاج المزدوج الذى أهديته له ساجدا ؟ ..

فقال أحمس :

— ولانى الذى ولى آبائى وأجدادى من قبل ، فاعلم أيها القائد أن الذى سيقاتلك هو حفيد سيكننرع ...

فبدا الجد على وجه الحاكم وقال بهدوء :

— سيكننرع .. انى أذكر ذلك الرجل الذى قضى سوء حظه يوما أن يرغم على منازلتى ، وانى أكاد أدرك كل شىء فاعذرنى على بطء فهمى . فاننا معشر الهكسوس أبطال ميدان لا نحسن المكر ولا نعرف غير لغة السيف ، أما أنتم معشر مدعى الملك من المصريين فتتخفون طويلا فى ثياب التجار قبل أن تؤاتيكم شجاعتكم على ارتداء لباس الملوك ... فليكن ما تريد ، ولكن هل ترغب فى مبارزتى يا اسفينيس ؟

فقال أحمس بحدة :

— فلترتد من الثياب ما نشاء فهى ثيابنا ، أما أنتم فما تعلمتم ارتداء الثياب حتى آوتكم مصر . ولا تدعنى اسفينيس ما دمت تعرف

انى أحمس بن كاموس بن سيكننرع ، أسرة عريقة فى النبل والقدم انحدرت من صلب طيبة المجيدة ، فلم تعرف التشرد فى الصحارى ولا رعى القطعان ، وانى لأرغب حقا فى مبارزتك وانه لشرف تكتسبه كى أؤدى دينا فى عنقى نحو أجل انسان عرفته طيبة ...

فصاح خنزر قائلا :

— أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك ، فظننت أن انتصارك على القائد رخ مسوغا للوقوف أمامى ... فوارحمتاه لك أيها الشاب الغرير ... ماذا تختار أن يكون سلاحك ؟ .

فقال أحمس وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة :

— السيف اذا شئت ...

فقال خنزر وهو يهز منكبيه العريضين :

— هو أعز الأصدقاء .

ونزل خنزر عن ظهر جواده وأسلم قياده الى تابعه ، ثم سل سيفه وأمسك ترسه ، ففعل أحمس مثله ووقفا صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين ، ثم تساءل أحمس :

— هل نبدأ ؟

فقال خنزر ضاحكا :

— ما أجمل هذه المواقف التى تتكاشف فيها الحياة والموت ، هلم يا فتى ...

فتوثب الملك وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ووجه اليه ضربة شديدة تلقاها الحاكم على ترسه . ثم رد عليه الهجوم وهو يتكلم قائلا : « يا لها من ضربة صادقة يا اسفينيس ، وما أظن الا أن رنين سيفك على ترسى ينشد لحن الموت ... مرحى ... مرحى ان صدرى يرحب برسل الموت ، فطالما طمع الموت ، وأنا ألعب بين مخالبه ، ثم يرتد عنى خائبا وقد أدرك آخر الأمر أنه انما حضر لغيرى » .

وكان الرجل يقاتل دون أن يكف عن الكلام كأنه راقص ماهر يغنى وهو يرقص ، فأدرك أحمس أن خصمه عنيد شديد البأس ، فولاذى

العضلات ، واسع الحيلة ، خفيف الحركة ، جبار فى الكر والفر ؛ فبذل كل ما لديه من قوة ودراية ، وتفادى من الضربات الموجهة اليه وهو يعلم انها ضربات قاتلة لا نجاة منها اذا أصابت هدفها . ولكنه تلقى ضربة بترسه أحس ثقلها ، ورأى خصـــمه يبتسم فى ثقة وطمأنينة فاهتاجه الغضب والحنق ووجه اليه ضربة هائلة تلقاها الرجل بدوره على ترسه وكان يسيطر على أعصابه وارادته ، فسأل أحمس « أين صنع هذا السيف المتين ؟ » .

فقال له أحمس وقد تمالك نفسه كذلك : « فى نباتا فى أقصى الجنوب » . فقال الرجل وهو يتفادى من ضربة شديدة وجهت اليه بمهارة فائقة : « أما سيفى فقد صنع فى منف بأيدى صناع مصريين .. وما كان صانعه يعلم أنه يقدم لى ما أقضى به على مليكه الذى تاجر وقاتل فى سبيله » .. فقال أحمس : « ما أسعده غدا اذا علم انه كان شؤما على عدو بلاده ... » .

وكان أحمس يتحين الفرصة لهجوم عنيف ، فما كاد يتم كلامه حتى وجه الى خصمه الجبـــار ثلاث ضربات متوالية بسرعة خاطفة ، فتحاماها خنزر بدرعه وسيفه ولكنه اضطر الى أن يتقهقر خطوات ، فقفز عليه الملك وهاجمه هجوما قاسيا ووجه الضربة تلو الضربة الى مقاتله . وادرك خنزر خطر المصير ، فكف عن مداعبة خصمه واطبق فمه ، وزال عنه الابتسام فقطب جبينه ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة ، وابدى من ضروب المهارة والشجاعة ما يفوق كل تصور . وأصاب ذباب سيفه خوذة أحمس ، فظن الرعاة أنه قضى على عدوهم العنيـــد فتعالى هتافهم حتى تســـاءل أحمس هنيهة : « ترى هل أصبت ؟ » ولكنه لم يحس تخاذلا ولا وهنا ، فاســـتجمع وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة عرض لها ترسه فصكته بقسوة فتركه يسقط من يده متضعضعا وقد ارتج ســـاعده . وتعالى الهتاف من الجانبين بين فرح وغضب ، وتوقف أحمس عن القتال ونظر الى خصمه مبتسما ابتسامة الظفر ، وكان الآخر يشهر سيفه ويتأهب للقتال بغير

ترس ، فما كان من أحمس الا ان خلع ترسه ورمى به جانبا ، فبدت الدهشة على وجه خنزر ونظر اليه نظرة غريبة وهو يقول : « يا له من نبل حقيق بأخلاق بالملوك .. » . واستأنفا القتال فى سكون فتبادلا ضربتين شديدتين ، ولكن ضربة أحمس كانت أسرع الى رقبة خصمه الجبار فسرت فيه رجفة هائلة ، وتراخت يده عن مقبض سيفه ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدم ، ودنا الملك منه فى خطى بطيئة ، ونظر الى وجهه بعين ملؤها الاحترام وقال له :

— يا لك من جبار باسل أيها الحاكم خنزر ...

فقال الرجل وهو يصعد أنفاس الحياة الأخيرة :

— بالحق نطقت أيها الملك ... ولن يعترض سبيلك من بعدى مقاتل .

وتناول أحمس سيف خنزر ووضعه الى جانب جثته ، ثم امتطى جواده وعاد الى معسكره ، وكان يعلم أن الرعاة سيحاربون بحنق ورغبة فى الانتقام ، فأقبل على فرسانه وصاح بهم :

— أيها الجنود ، رددوا شعارنا الخالد : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . واذكروا أن مصيرنا الى الأبد معلق بنتيجة هذه المعركة الدائرة ، فلا ترضوا أبدا أن يضيع صبر الأعوام وجهاد الأجيال فى تخاذل ساعة واحدة ...

ثم حمل وحملوا ودار القتال عنيفا حتى مغيب الشمس .

واستمر القتال على هذا النحو عشرة ايام كاملة .

٨

وفى مساء اليوم العاشر من أيام القتال عاد الملك أحمس من الميدان متعباً منهوك القوى ، فاجتمع بحاشيته وقواده ، وكان سقوط خنزر قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوض ، ولكن فرقة عجلاتهم لبثت تقاوم وتصد هجمات المصريين وتوقع بهم الخسائر الفادحة . فساور الملك القلق ، وخشى أن تتحطم فرقة العجلات الجبارة يوما بعد يوم ، وكان فى ذاك المساء غاضباً حزينا لكثرة من سقط من فرسانه البواسل الذين يتصدون للموت بغير مبالاة ، فقال وكأنه يحدث نفسه ،

— هيراكونبوليس ... هيراكونبوليس ... ترى هل يقترن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا ؟ .

وكان المجتمعون لا يقلون عن الملك حزنا أو غضباً ، ولكن راعهم ما يبدو على وجهه الجميل من التعب والانفعال ، فقال الحاجب حور :

— مولاى ... ان فرسـاننا يقاتلون فرقة عجلات الرعاة بكامل عددها وعددها فلا تهولنا خسائرنا ، وغدا اذا ظهرنا على العدو وحطمنا عجلاته فلن يكون لمشاته قبل بنا ، وسيلوذون بأسوار الحصون فرارا من انقضاض عجلاتنا عليهم .

فقال الملك :

— كانت غايتى الكبرى أن أقضى على عجلات العدو مع الاحتفاظ بقوة عظيمة من عجلاتنا لتسيطر على الميدان دائما ، كما فعل الرعاة فى هجومهم فى طيبة . ولكنى بت أخشى أن يقضى على قوتينا الراكبتين معاً ، فنتعرض لحرب طويلة الأمد لا تبقى على مدننا ولا تذر ...

وطلب الملك أن يطلع على الاحصاء الأخير للخسائر ، وجاء ضابط به فاذا فرقة العجـلات المصرية قد خسرت ثلثى قوتها من العجلات والفرسان .

فامتقع احمس ونظر فى وجوه رجاله ، فاذا بالوجوم يعلوها جميعاً . ثم قال :

— لم يبق لدينا سوى الفى فارس ... فكيف تقدرون خسائر العدو ؟

فقال القائد ديب :

— لا اتصور يا مولاى انها تقل عن خسارتنا .. وارجح انها تزيد عليها ...

فحنى الملك راسه ولبث يفكر ملياً ، ثم نظر الى رجاله وقال :

— سيعلم كل شيء غدا ، فغدا يوم الفصل دون شك ، ولعل عدونا يعانى من الحيرة والقلق ما نعانى واكثر ، وعلى كل حال لن يلومنا احد ولن نلوم احدا ، والرب يعلم اننا نقاتل بقلوب كارهة للحياة ..

فقال ديب متسائلا :

— ان أسطولنا لا يحارب الآن ، فلماذا لا ينزل جنودا وراء جيش العدو فيما بين هيراكونبوليس ونخب ؟

فقال احمس ابانا :

— ان اسطولنا يسيطر الآن على النيل سيطرة كاملة ، ولكنا لا نستطيع أن نجازف بانزال جنود وراء العدو الا اذا كان جيشه جميعاً مشتبكا فى القتال . والواقع أن القتال مقصور حتى الآن على فرقتى العجلات ، اما جيش العدو فرابض وراء الميدان مستريحا يقظا ...

وسأل احد كهنة امبوس قائلا :

— اليس لنا يا مولاى قوة احتياطية من الفرسان ؟

فقال أحمس :

— لقد جئنا مصر بستة آلاف فارس هم ثمرة جهاد شاق وصبر طويل ، فخسرنا منهم اربعة آلاف رجل فى اثنى عشر يوما من أيام الجحيم ...

فقال حور :

— مولاى ... ان سـيين وأمبوس وأبولينوبوليس مجنا تبنى العجلات وتدرب الفرسان بلا توان .

أما أحمس ابانا فقال بحماسه الذى لا يعرف اليأس :

— حسبنا شعارنا الذى لقنتناه الأم المقدسة توتيشيرى : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » ، وأن فرساننا لا يغلبون ، وأن مشاتنا ليتحرقون شوقا الى القتال ، ولنذكر دائما أن الرب الذى أرسلك الى أرض مصر لم يرسلك عبثا .

وأمن الرجال على قول القائد الشاب وابتسـم الملك ابتسـامة مشرقة ، وبات الجيش ليلته واسـتيقظ مع الفجر كعادته وتأهب للقتال . وعند سفور الصباح تقدمت فرقة العجلات وفى قلبها الملك وحرسه ، ونظر الى الميدان فرآه خاليا فعجب غاية العجب ، ثم امعن فى النظر فرأى على البعد أسـوار هيراكونبوليس لا يعترض سبيله اليها رجل من الرعاة . ولم تطل الدهشـة بالملك فجاءه بعض رجال الاستطلاع وقرروا بين يديه أن جيش أبو فيس انسحب من الميدان بجموعه الجرارة وترك هيراكونبوليس فى الليل وجد فى السـير نحو الشمال ، ولم يتمالك القائد محب أن قال :

— الآن حصحص الحق ... وما من شك فى أن قوة عجلات الرعاة تحطمت ، وأن أبو فيس آثر أن يفر الى حصونه على أن يواجه فرساننا بمشاته ...

وقال القائد ديب فرحا :

— مولاى .. لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة ...

وكان الملك أحمس يتساءل : ترى هل حقا انكشفت الغمة ؟ .. ترى هل حقا زالت المخاوف ؟ ثم التفت الى ديب وقال :

— بل قل اننا حطمنا عجلات الرعاة وكفى ...

وسرت الأخبار الى الجيش فشاع الفرح فى النفوس ، وهرع رجال الحاشية يتقدمهم حور الى الملك وهنأوه بالنصر المبين الذى فتح الرب به عليه . ودخل أحمس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشـه ،

وهرع معه الأهالى اليها من الحقول التى فروا اليها خوفا من انتقام الرعاة ، واستقبلوا ملكهم استقبالا حارا وهتفوا لجيش الخلاص هتافا يشق عنان السماء ...

وكان أول شىء فعله الملك أن صلى للرب آمون الذى مد له يد المعونة بعد أن كاد يشفى على اليأس ...

٩

واستراح الجيش فى هيراكونبوليس بضعة أيام بعد قتال عنيف دام اثنى عشر يوما ، وأشرف أحمس بنفسه على تنظيم المدينة واعادة مصريتها الأولى الى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها ، وواسى الأهالى لما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد وما تعرضت له مدينتهم فى أثناء تقهقر الرعاة من النهب والسلب والتخريب .

ثم زحف الجيش نحو الشمال وأبحر معه الأسطول ودخل مدينة نخب فى عصر اليوم نفسه دون مقاومة ، وبات فيها حتى فجر اليوم الثانى . ثم استأنف مسيره دون أن يلتقى بأية قوات للعدو فاحتل القرى ورفع عليها الأعلام المصرية . وشارف وادى لاتوبوليس بعد ثلاثة أيام ، وكان الملك ورجاله يظنون أن العدو سيدافع عنها فأرسل أحمس طلائع جيشه اليها وحاصر أحمس ابانا شطئانها الغربية ولكن الطلائع دخلت المدينة دون مقاومة فدخلها الجيش آمنا . وقص عليهم الأهالى كيف مر بهم جيش أبو فيس يحمل جرحاه ، وكيف حمل أصحاب الدور والمزارع من الرعاة أثاثهم وأموالهم ولحقوا بجيش ملكهم فى حالة شديدة من الفزع والفوضى ...

وتقدم الجيش بقواته المرهوبة يدخل القرى والمدن دون أدنى مقاومة حتى بلغ ترت ، ثم بعدها هزمنتيس ، وكانوا يتوقون جميعا

الى ملاقاة عدوهم ليشفوا غل صدورهم . ولكن كان السرور يتألق في وجوههم كلما رفعوا العلم على بلدة أو قرية وشعروا أنهم حرروا قطعة من الوطن الأثير . وكان خبر الهزيمة التى لحقت بفرقة عجلات الرعاة ينعش نفوس الجنود ويذكى فى قلوبهم الأمل والحماسة ، فمضوا ينشــدون الأغانى الحماسية ، ويضربون فى أرض الوادى بسيقانهم النحاسية ، حتى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغلة فى منطقة طيبة .

وكان الوادى ينحدر نحو جنوبها انحدارا فجائيا شديدا ، فذهبت الطلائع الى المدينة ولكنها كانت كسابقاتها من المدن بغير حراس ، فدخلها الجيش فى سلام . هز دخول هابو قلوب الجنود جميعا لأنها وطيبة كانتا كأعضــاء الجسم الواحد ، ولأن كثيراً من جنود الجيش كانوا من بنيها البواســل ، فتعانقت فى ساحاتها القــلوب والأنفس وهتفت الضمائر بأناشيد الشوق والحنين . ثم تقدم الجيش شمالا بقلوب متحفزة وأنفس متوثبة ، وهو يعلم أنه مقبل على العمل الفاصل فى تاريخه والمعركة الخطيرة التى تقرر مصير طيبة . وانحدر فى الوادى العظيم الذى يطلق عليه الطيبيون « طريق آمون » وكان يتسع كلما أوغلوا فيه حتى بدا لهم الســور العظيم ذو الأبواب المتعددة يقطع الطريق عليهم ويمتد شرقا وغربا ، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشــاهقة يتمثل فيها جميعا المجد والخلود وتطوف بها الذكريات العظيمة ، فسرت منها الى النفوس عاصفة من الحماسة والحنين زلزلت القلوب والضمائر ، فتصايحت جنبات الوادى هاتفة : « طيبة .. » « طيبة .. » . وجرى اسمها على كل لسان ولهجت به الأفئدة المضطرمة . وما زالوا يهتفون حتى جرف الدمع كبرياءهم فبكوا وبكى حور الشيخ ...

وعسكر الجيش العظيم ، ووقف أحمس فى قلبــه يرفرف على رأسه علم طيبة الذى حاكته توتيشيرى بيديها ، يرسل ناظريه الى المدينة وقد لاحت فيهما الأحلام ويقول :

ـــ طيبة ... طيبة ... يا أرض المجد ... ومثوى الآباء والأجداد ، ابشرى فغدا يطلع عليك صبح جديد ...

١٠

واستدعى الملك القائد أحمس ابانا وقال له :

ـــ سأكل اليك أيها القائد ساحل طيبة الغربى فهاجمه أو حاصره كما يتراءى لك ، مستلهما خططك من الملابسات المحيطة بك .

وانشأ الرجال يفكرون فى طريقة الهجوم على طيبة ، فقال القائد محب :

ـــ ان أسوار طيبة منيعة شديدة البأس تكلف المهاجمين أرواحا غالية ، ولكن ما من مهاجمتها بد ، فأبوابها الجنوبية هى السبيل الوحيد اليها .

وقال القائد ديب :

ـــ ان محاصرة المدن الحصينة وتجويعها أجدى على المهاجمين من مهاجمتها ، ولكننا لا نستطيع أن نفكر لحظة واحدة فى تجويع طيبة ، فلم يبق لدينا سوى مهاجمة أسوارها . ونحن لا تعوزنا وسائل الهجوم على الأسوار من السلالم والقباب الواقية ؛ ولكنها ليست كافية كذلك ، ونرجو أن تصلنا منها كميات وافرة . وعلى أية حال اذا كان ثمن طيبة غالياً فسنبذله عن طيب خاطر .

فقال احمس :

ـــ هذا هو الرأى ، فينبغى الا نضيع وقتنا لأن قومنا محصورون داخل أسوار المدينة ، ويحتمل أن يتعرضوا لانتقام عدونا الوحشى .

وفى ذلك اليوم تقدم الأسطول المصرى نحو شاطىء طيبة الغربى والتقى امامه بأسطول للرعاة جمعوه من السفن الفارة من هيراكونبوليس فأطبق عليه واشتبك الأسطولان فى معركة عنيفة ، ولكن

كان تغلب المصريين فى عدد الرجال والسفن كبيرا ، فضيقوا الخناق على عدوهم وأصلوه نارا حامية .

وأرسل أحمس طلائع من فرق القسى والرماح لاختبار القوات المدافعة ، فأطلقوا قسيهم على نقط متباعدة من السور العظيم ، فاذا بالرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء وبأسلحة لا تنفد . وكان القواد المصريون ينظمون قواتهم ، فلما صدر اليهم أمر الهجوم أرسلوا كتائب متتالية من رجالهم فى أرجاء انوادى لتهاجم السـور فى نقط متباعدة ، محتمية بدروعها الطويلة ، فانهالت عليهم سـهام العـدو كالسيل . وصوبوا قسيهم نحو منافذ السور المنيع ، ودار القتال بلا رحمة ، وكان المعسـكر لا يفتأ يرسـل جماعات الجنود المتحفزين للقتال ، وكانوا يقاتلون بجسارة لا تهاب الموت فدفعوا ثمن جرأتهم غاليا . وانتهى النهار بمذبحة هائلة ، وقد روع الملك بمنظر القتلى والجرحى فصاح غاضبا :

— ان جنودى لا يبالون الموت ، والموت يحصدهم حصدا .

فقال حور وهو يلقى على الميدان بصرا زائغا :

— يا لها من معركة يا مولاى ... أرى الجثث تملأ الميدان ..

وكان القائد محب متجهم الوجه معفر الثياب فقال :

— ألسنا نهاجم الموت سافرا ؟

فقال أحمس :

— لن أدفع بجيشى الى الهلاك المحقق ، ويحسن بى أن أرسل عددا محدودا من الرجال وراء القباب الواقية ، حتى يملأ الموت على العدو منافذ سوره .

ولبث الملك مهتاج النفس ، ولم يخفف عنه ما حملته الرسل من أن الأسطول المصرى استولى على بقية أسطول الرعاة وأصبح سيد النيل دون منازع ... وفى ذاك المساء عاد الرسول الذى كان بعثه الى أسرته فى نباتا يحمل رسالة من توتيشيرى ، فبسط أحمس الرسالة بين يديه وقرأ ما يأتى :

« من توتيشـــيرى الى حفيــدى ومولاى فرعون مصر أحمس ابن كاموس ، من أدعو الرب الكريم أن يصون حياته الغالية ، ويوفق رأيه للسداد ، وقلبه للايمان ، ويده الى مقتل عدوه .. جاءنى رسولك ينعى الينا فقيدنا الباسل كاموس ويبلغنى كلمته الأخيرة الموجهة الى ؛ ويحسن بى — وأنت تقاتل عدونا — أن أضرب صفحا عن ذكر ما تخفق به قلوبنا جميعا ، فقد قضى على قلبى أن يذوق الموت مرتين فى حياة قصيرة واحدة ؛ ولكن لا يعز العزاء على من يعيش فى أتون معركة هائلة تبذل فيها النفوس رخيصة ويستبق الشجعان الى الموت . ولا اكتمك — على ألمى وحزنى — أن رســولا يسعى الى بموت كاموس ونصر جيشنا ، أحب الى من أن يجيئنى كاموس بنبأ الهزيمة .. فسر فى ســبيلك ترعاك عناية الرب الرحيم ، ويحفظك دعاء قلبى والقلوب الرقيقة المجتمعة حولى ، يتنازعها الحزن والتصبر والرجاء ؛ واعلم يا مولاى أننا نشد الرحال الى بلدة دابور على مقربة من حدود بلادنا ، لنكون أدنى الى رسلك ، والسلام » .

قرأ أحمس الكتاب فاستشف ما يكمن وراء سطوره من ألم ممض ورجاء حار ، وتمثلت له الوجوه التى ودعها فى نباتا ؛ توتيشـــيرى بوجهها النـــاحل المكلل بالمشيب ، وجدته أحوتبى بجلالهـــا وحزنها وأمه ستكيموس بوداعتها ، وزوجه نيفرتارى بعينيها الواســعتين وقدها الرشيق ، وتمتم قائلا : « رباه ! ان توتيشيرى تتلقى طعنات الألم القاتل بالعـــزاء والأمل ، ولا ينســيها حزنها أملنا المنشــود ، فلأذكر دائما حكمتها ولأتبعها بعقلى وقلبى » ...

١١

وقام الأسطول بواجبه بعد أن أسر أسطول الرعاة ؛ فضرب الحصار حول شاطىء المدينة الغربى ، وبث الرعب فى أنفس أصحاب القصور المطلة على النيل ، وتبادل اطلاق السهام مع حصون الشاطىء . ولكنه لم يحاول مهاجمة هذه الحصون لمناعتها ولارتفاعها بسبب انخفاض النيل فى فصل الحصاد ، فاكتفى بمناوشتها وضرب الحصار حولها . وكان أحمس ابانا تنازعه نفسه الى شاطىء البلد الجنوبى حيث يقيم الصيادون ، ويخفق بحبه قلب حنون ، وظن أن هذا المكان قد يكون منفذه الى طيبة . ولكن الرعاة كانوا أكبر حذرا مما ظن فأخذوا الشاطى من المصريين ، وشغلوا مساحته الممتدة بالحراس المدرعين ..

أما الملك أحمس فقد عدل عن الهجوم بجماعات كثيفة ، وقدم للميدان نخبة من رجاله المدربين وراء الدروع الطويلة ، فاستبقوا مع المدافعين عن السور العظيم فى حرب قوامها الفن ودقة التصويب ، ولم يتوانوا عن اظهار مهارتهم التقليدية وكفاءتهم العالية . واستمرت الحرب على هذا النحو بضعة أيام دون أن تبشر بأى نتيجة أو تنبىء بأية نهاية ، فتململ الملك وقال :

— ينبغى ألا نعطى العدو مهلة يستعيد فيها نظامه ويعيد بناء قوة جديدة من عجلاته .

ثم شد أحمس على مقبض سيفه وقال :

— سآمر باستئناف الهجوم العنيف . واذا لم يكن من بذل النفوس بد فلنقدم أنفسنا كما ينبغى لرجال أقسموا أن يحرروا مصر من نير عدوها الثقيل . وسأوجه رسلى الى حكام الجنوب ليحثوهم على صنع دروع الحصار والقباب الواقية ...

وأصدر الملك أمره بالهجوم . وأشرف بنفسه على توزيع فرق

القسى والرماح فى الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين . وجعل القائد محب على الميمنة ، والقائد ديب على الميسرة . ومضى المصريون يتقدمون فى موجات واسعة النطاق ، لا تلحق الموجة بسابقتها حتى تكون هذه قد أخذت مكانها وطفقت تناجز العدو المحتمى بالسور المرهوب . فلما تقدم النهار بالمقاتلة كان الميدان يزخر بالجنود الضاغطين سور طيبة ، واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسارة فادحة كما خسروا عددا كبيراً من رجالهم ؛ ولكن خسارتهم على أى حال كانت دون خسارة اليوم الأول ودار القتال على هذا بضعة أيام أخر ؛ وكثر عدد القتلى من الجانبين ، واشتد ضغط جناح المصريين الأيمن للعدو حتى استطاع مرة أن يسكت نقطة من نقط الدفاع المتعددة ، وأن يهلك كل من يتصدى لاطلاق السهام من منافذها . وانتهز بعض الضباط البواسل هذه الفرصة فهاجموا تلك الجهة بجنودهم ، وأقاموا سلم هجوم وصعدوا عليه مع قوة باسلة ، وسهام اخوانهم تغشاهم كالسحاب . وقد انتبه الرعاة الى الناحية المهددة فتكاثروا عليها وأصلوا المهاجمين نارا حامية حتى أبادوهم ، وسر الملك لهذا الهجوم الذى ضرب مثلا رائعا لجيشه ، وقال لمن حوله :

— لأول مرة من بدء الحصار يقتل نفر من جنودى على سور طيبة .

والحق كان لهذه الخطوة مغزى عظيم ، فقد تكررت فى اليوم الثانى ، ثم وقعت فى غداته فى نقطتين من السور . ومضى يتزايد ضغط المصريين للعدو حتى بات الغزو أملا مرجوا قريباً . وفى تلك الأثناء جاء رسول من شاو حاكم سيين على رأس قوة من الجنود المدججين بالسلاح الذين تم تدريبهم أخيرا ، ومعهم سفينة محملة بدروع الحصار وسلاله وعدد من القباب الواقية . فاستقبل الملك الجنود بسرور ، وقد تضاعف أمله فى النصر ، وأمر بتسييرهم فى الميدان أمام معسكره لتحييهم الجنود ويزدادوا بهم أملا وقوة ...

ودار القتال مع الغداة مروعا هائلا ، وتوالت هجمات المصريين الصـــادقة ، ولاقوا الموت بقلوب لا تهابه ، وأنزلوا بعدوهم خســـائر جمة حتى بدا عليه الاعياء واليأس ، واعتور سواعده النصب ، فاستطاع القائد محب أن يقول لمولاه وهو عائد من الميدان :

ــ مولاى ... سنقتحم السور غداً ...

واجتمع رأى القواد جميعاً على هذا ، فبعث أحمس برســـول الى أسرته يدعوها الى هابو التى يرفرف عليها العلم المصرى ، ليدخلوا جميعا طيبة فى الغد القريب .. وبات الملك ليلته شديد الايمان كبير الأمل ...

١٢

وطلع فجر اليوم الموعود ، فاستيقظ المصريون نشاوى يتوثبون ، توقع قلوبهم الخافقة لحن الحـــرب والنصر . ثم تقـــدمت جموعهم الى أماكنها وراء الدروع والقباب ، ونظروا الى أهدافهم غاضبين ، فرأوا منظرا عجبا لم يتوقعوا رؤيته ، فضجوا بالدهشة والانزعاج ، وتبادلوا نظرات الحيرة والذهول . رأوا على السور المحيط أجسادا عارية قيدت اليه ، رأوا نساء مصريات وأطفالهن الصغار اتخذ الرعاة منهم دروعاً تحميهم شر نبالهم وقذائفهم ، ووقفوا خلفهن ضاحكين شـــامتين . وكان منظر النساء العاريات وقد حلت شعورهن وهتكت أعراضهن ، والأطفال الصغار وثقت أيديهم وأرجلهم يفتت الأكباد جميعا ، فضلا عن أكباد من هم أزواجهن وأبناؤهن . فأسقط فى أيدى الرجال وشلت سواعدهم ، وسرى الانزعاج فى النفوس حتى بلغ الملك فتلقاه كأنه صاعقة من السماء ، وصاح غاضبا :

ــ يا للوحشية الهمجية .. ان الجبناء يحتمون بأجساد النســـاء والأطفال ...

وساد الصمت والوجوم حاشية الملك وقواده فلم ينبس أحدهم بكلمة . ووضح نور الصباح فرأوا على البعد سور طيبة تحميه أجساد النســاء والأطفال ، فاقشعرت أبدانهم هولا ، واصفرت وجوههم غضبا ، وارتعشت أطرافهم ، وحامت أرواحهم حول الأسرى المعذبين وأهليهم البواســل الذين وقفوا فى الميدان أمامهم مكتوفى الأيدى ، يعانون العذاب ويضيقون بالعجز ، وصاح حور بصوت متهدج :

— يا للبائسات ، سيقتلهن توالى الليــل والنهار اذا لم تمزق قلوبهن السهام ..

ولفت الحيرة الملك ، وجعــل ينظــر الى الأسرى اللاتى يحمين بأجسادهن وأطفالهن عدوهن بعينين ذاهلتين كئيتبين . ما عسى أن يفعل ؟ .. ان كفاح أشهر طوال ينذر بالضياع ، وآمال عشرة أعوام تهــدد بالخيبة واليأس . فما عسى أن يصــنع ؟ .. هل جاء لخلاص شعبه أم للتنكيل به ؟ ... وهل أرســل رحمة أم عذابا ؟ . وجعل يتمتم فى حزنه : « آمون ... آمون .. ربى المعبود ... ان هذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك ، فألهمنى الصواب على أن أجد لنفسى مخرجا » .. وتنبه من صلاته على صلصلة عجلة قادمة من ناحية النيل ، عاين ومن حوله راكبها فاذا به قائد الأسطول أحمس ابانا ، وترجل القائد وأدى للملك التحية ثم تساءل قائلا :

— مولاى ... لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المتداعين ؟ .. أما كان ينبغى أن تكون جنودنا على سور طيبة الآن ؟ ...

فقال الملك بصــوت حزين ثقيل النبرات وهو يشير الى ناحية السور :

— انظر لترى بنفسك أيها القائد ...

ولكن أحمس ابانا لم ينظر كما كانوا يتوقعون بهدوء :

— آذنتنى عيونى بالعمل الدنىء الوحشى ، ولكن كيف نرضى أن نساق الى أشراك أبو فيس ونحن به عالمون ؟ ..

هل يجوز أن نكف عن الكفاح فى سبيل طيبة ومصر اشفاقا من أن

تؤذى نبالنا بعض النساء والأطفال من قومنا ! ...

فقال الملك أحمس بمرارة :

— أترى أن آمر بتمزيق اجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهن ؟ ..

فقال القائد بحماس وثقة :

— نعم يا مولاى ، انهن قربان الكفاح ، مثلهن مثل جنودنا البواسل الذين يتساقطون فى كل حين ، بل مثلهن مثل مليكنا الشهيد سيكننرع وفقيدنا الباسل كاموس . فلماذا نشفق من ذهابهن هذا الاشفاق المعطل لكفاحنا ؟ ...

مولاى ... ان قلبى يحدثنى بأن أمى ابانا بين هؤلاء الأسيرات البائسات . فاذا صدق شعورى فلا أشك فى أنها تدعو الرب الآن أن يجعل حبك طيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات . ولست الجريح وحدى فى جنودنا . فليضع كل منا حول قلبه درعا من ايمانه وعزيمته ولنهجم ...

ونظر الملك الى قائد أسطوله طويلا ، ثم قلب وجهه فى حاشيته وقواده ، فقال الحاجب حور بهدوء وكان متجهما ممتقعاً :

— صدق أحمس ابانا العظيم .

وتنفس الرجال من الأعماق وصاحوا جميعاً فى نفس واحد :

— نعم ... نعم ... صدق قائد الأسطول ولنهجم ...

فالتفت الملك الى القواد وقال بعزم :

— أيها القواد ، اذهبوا الى جنودكم وقولوا لهم ان مليكهم الذى فقد فى سبيل مصر جده وأباه ، ومن لا يتردد عن الجود بنفسه فى سبيلها ، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلفنا ذلك من بذل ...

وذهب القواد سراعا ونفخ فى الأبواق ، فتقدمت صفوف الجند شاكى السلاح مكفهرى الوجوه . وصاح الضباط بأصوات مدوية :

حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . وبدأت فى الحال أبشع معركة خاض غمارها الانسان ، وأطلق الرعاة السهام فرد عليهم المصريون ، وانطلقت نبالهم تشق صدور نسائهم وتمزق قلوب أطفالهم وتسيل الدماء غزيرة . ولوحت النسوة برءوسهن للجنود وصحن بأصوات رفيعة مبحوحة : « اضربونا ينصركم الرب وانتقموا لنا ... » . فجن جنون المصريين وهجموا هجمة وحوش كواسر قست قلوبها وتعطشت الى الدماء ، ودوى صراخهم فى جنبات الوادى كعزيف الرعد وزئير الأسود ، واندفعوا لا يبالون الموت المنصب عليهم كأنما فقدوا الشعور والادراك وانقلبوا آلات جهنمية . وحمى وطيس القتال واشتد الطعان ، وسالت الدماء كأنها ينابيع تتفجر فى الصدور والأعناق ، وأحس كل هاجم أن فى قلبه غمزاً جنونيا لا يسكن حتى يدفن رمحه فى قلب واحد من الرعاة . وتمكن الجناح الأيمن قبل أن ينتصف النهار من أن يسكت عدة مواضع دفاعية ، فبادر رجال الى اقامة أدراج الحصار وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت ، فنقلوا القتال من الميدان الى أعلى السور الحصين ، وقفز بعضهم الى سطح السور الداخلى واشتبكوا مع العدو بالرماح والسيوف وتوالت الهجمات بعنف وبسالة ، وكان الملك يرقب القتال بأعين يقظى ، ويرسل النجدات الى المواقع التى يشتد عليها العدو . وقد شاهد جنوده تصعد الى السور فى مكان الوسط ومكانين فى الميسرة وقد أخذت الشمس تتوسط فى كبد السماء ، فقال :

— ان جنودى يبذلون جهد الجبابرة ، ولكنى أخشى أن يلحقنا الظلام قبل أن نستولى على السور جميعه ، فنستأنف غدا من جديد ..

وأصدر الملك أوامره الى فيالق جديدة بالهجوم ، فاشتد ضغط رجاله للمدافعين عن السور المنيع ، وصنعوا لأنفسهم طرائق جديدة الى أعلاه . والظاهر أن اليأس أخذ يستولى على الرعاة بعد أن أنزل

المصريون بهم خسائر فادحة ، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون أدراج الحصار كجماعات النمل الزاحفة على سيقان الأشجار ، فانهارت مواضع دفاعية بسرعة لم يكن يتوقعها أحد ، واحتل جنود أحمس نقطا كاملة من السور ، وبدا سقوط السور أمرا محققا لا يحتاج الا لوقت . وكان أحمس لا ينفك عن ارسال الامدادات القوية ، وجاءه فى المعسكر ضابط من قوة الاستطلاع المتوغلة فى الحقول المحيطة بطيبة يطفر البشر من وجهه ، فانحنى للملك وقال :

— أخبار جليلة يا مولاى .. ان أبو فيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشمالية كالفارين .

فعجب الملك وسأل الضابط قائلا :

— أواثق أنت مما تقول ؟

فقال الرجل بثقة وايمان :

— رأيت بعينى ركب ملك الرعاة وحرسه يتبعهم جموع الجيش المدججة بالسلاح .

فقال أحمس ابانا :

— لقد أدرك أبو فيس عبث الدفاع عن سور طيبة بعد ما رأى من هجمات جنودنا وجيشه فى المدينة لا يحسن الدفاع عن نفسه ، ففر هاربا .

فقال حور :

— والآن أدرك على غير شك أن الاحتماء بنساء المحاربين وأطفالهم شر وبيل .

وما كاد حور يتم كلامه حتى جاء رسول جديد من الأسطول فحيا الملك وقال :

— مولاى .. لقد شبت نيران الثورة فى طيبة ، وشاهدنا من الأسطول عراكا عنيفا يقع بين الفلاحين والنوبيين من ناحية ، وأصحاب القصور وحرس الشاطىء من الناحية الأخرى .

فبدا القلق على أحمس ابانا وسأل الضابط :

ــ وهل قام الأسطول بواجبه ؟

ــ نعم يا سيدى ، لقد دنت سفننا من الشاطىء وأطلقت السهام بكثرة على الحراس حتى لا تمكنهم من التفرغ لقتال الثائرين ..

فلاح الارتياح فى وجه القائد ، واستأذن الملك فى العودة الى اسطوله ليهجم على الشاطىء ، فأذن له الملك وقال لحور مغتبطا :

ــ لن يفلت أصحاب الضياع هذه المرة بأموالهم .

فقال حور بصوت متهدج من الفرح :

ــ نعم يا مولاى ، وعما قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها ..

ــ ولكن أبو فيس فر بجيشه .

ــ لن نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس ويجلو عن مصر آخر رجل من الرعاة .

وعاد الملك الى مراقبة القتال فرأى جنوده تقاتل على أدراج الحصار وفى أعلى السور وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامها .. وصعدت فيالق الجند من حملة الرماح والسيوف بكثرة وعلت السور من كل جانب وأحاطت بالرعاة وأعملت فيهم القتل والذبح . وما لبث أن رأى جنوده تمزق علم الهكسوس وترفع علم طيبة الخفاق ، ثم شاهد أبواب طيبة العظيمة تنفتح على مصراعيها وجنوده تندفع الى داخلها هاتفة باسمه ، فتمتم قائلا بصوت خافت : « طيبة .. يا منبع دمى .. ومنبت جسدى .. ومرتع روحى .. افتحى ذراعيك وضمى الى صدرك الحنون أبناءك البررة البواسل » . ثم حنى رأسه ليخفى دمعة منتزعة من ضلوعه ، وكان حور الى يمينه يصلى ويجفف عينيه وقد تندى خداه النحيلان ..

١٣

ومضت ســاعات أخرى وأخذت الشــمس تميل نحو المغيب ، وأقبل الملك والقائدان محب وديب ، ثم تبعهما على الأثر أحمس ابانا فانحنوا لأحمس فى اجلال وهنأوه بالنصر ، فقال أحمس :

ـــ ينبغى قبل أن يهنىء بعضنا بعضـــا أن نؤدى الواجب نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استشهدوا فى سبيل طيبة فائتونى بها جميعا ..

وكانت الجثث ملقاة فى جنبات الميدان وعلى سطح السور وخلف الأبواب ، وقد عفرتها الأتربة وخضبتها الدماء ، وسقطت من رءوسها الخوذ الحديدية ، وشملها سكون الموت الرهيب . فرفعها الجنود باحترام وساروا بها الى جانب من المعسكر وأرقدوها جنبا الى جنب ، وأتوا بالنساء والأطفال اللاتى مزقتهن سهام جنودهم ووضعوهن فى مكان منعزل . وتوجه الملك الى مرقد الشهداء يتبعه الحاجب حور والقواد الثلاثة والحاشية . ولما دنا من الجثث المتراصة انحنى فى اجلال صامت حزين ففعل رجاله مثله . ثم سار فى خطى بطيئة مارا بها كأنما يستعرضها فى حفل رسمى مشهود ، ثم عدل الى حيث يرقد النسوة والأطفال وقد سجوا أجسادهن العارية بأغطية من الكتان ، فأظلت وجه الملك سحابة حزن وأظلمت عيناه ، وتنبه من كمده على صوت القائد أحمس ابانا وهو يصـــيح بالرغم منه بصوت مرتعش النبرات قائلا : « أماه » ..

فالتفت الملك وراءه فرأى قائده يجثو متألما متفجعا أمام احدى الجثث ، فألقى عليها الملك نظرة فاحصة فعرف السيدة ابانا وقد ارتسم على محياها شبح الفناء المروع . فوقف الملك الى جانب قائده الجاثى خاشعا حزين الفؤاد ، وكان يكن للسيدة احتراما عظيما ويعرف لها وطنيتها وشجاعتها وفضلها فى تربية أحمس خير قواده بلا نزاع .

ورفع الملك رأسه الى السماء وقال بصوت متهدج : « أيها الرب المعبود آمون ، خالق الكون ، وواهب الحياة ومنظم كل شيء بسنته العالية ، هذه ودائعك ترد اليك تبعا لمشيئتك ، وقد كانوا فى عالمنا يعيشون لغيرهم وكذلك ماتوا . انهم قطع عزيزة تناثرت من قلبى ، فتغمدهم برحمتك ، وعوضهم عما فقدوا من حياة فانية حياة سعيدة أبدية باقية . والتفت الملك الى الحاجب حور وقال :

ـ أيها الحاجب ، أريد أن تحفظ هذه الجثث جميعا وتودع مقابر طيبة الغربية ، ولعمرى ان أحق الناس بأرض طيبة من استشهدوا فى سبيلها ..

وعاد فى تلك الأثناء الرسول الذى كان أرسله الملك الى أسرته فى دابور وقدم الى مولاه رسالة ، فعجب الملك وسأله :

هل عادت أسرتى الى هابو ؟

فقال الرجل :

ـ كلا يا مولاى .

فبسط أحمس الرسالة وكانت موجهة من توتيشيرى وقرأ :

« مولاى المؤيد بروح آمون وبركته ، أسأل الرب أن يبلغك كتابى هذا وقد فتحت طيبة لك أبوابها فدخلتها على رأس جيش الخلاص لتضمد جراحها ، وتسعد روحى سيكننرع وكاموس . أما نحن فلن نبرح دابور ، وقد فكرت فى الأمر طويلا فوجدت أن خير وسيلة نشارك بها شعبنا المعذب عذابه وآلامه ، أن نبقى فى منفانا حيث نحن الآن نعانى آلام الوحشة والغربة ، حتى نحطم أغلاله وترفع عنه النقمة ، فندخل مصر آمنين ونقاسمه السعادة والسلام . فسر فى طريقك مؤيدا بالعناية الربانية تحرر البلدان وتقهر الحصون . وطهر أرض مصر من عـــدوها ولا تجعل له فى أقطارها موضع قدم ، ثم ادعنا نأت آمنين » .

ورفع أحمس رأسه وطوى الرسالة وهو يقول بتبرم :

ـــ تقول توتيشيرى انها لا تدخل مصر حتى نجلى عنها آخر رجل من الرعاة ..

فقال حور :

ـــ ان أمنا المقدسة تريد ألا نكف عن القتال حتى نحرر مصر .

فهز الملك رأسه بالموافقة ، فتساءل حور :

ـــ الا يدخل مولاى طيبة هذا المساء ؟

فقال أحمس :

ـــ كلا يا حور ، سيدخلها جيشى وحده ، أما أنا فسأدخلها مع أسرتى بعد طرد الرعاة . ندخلها جميعا كما فارقناها جميعا منذ عشرة أعوام مضت .

ـــ سيمنى أهلها بخيبة أمل ؟ ..

ـــ قل لمن يسأل عنى انى أتعقب الرعاة لأقذف بهم خارج حدودنا المقدسة ، وليتبعنى من يحبنى ..

١٤

ورجع الملك الى الخيمة الفرعونية ، وكان فى نيته أن يصدر أمره الى قواده بأن يدخلوا المدينة فى نظامهم التقليدى على أنغام الموسيقى الحربية ، ولكن جاء أحد ضباط الجيش وقال :

ـــ مولاى كلفنى قوم من قادة الثورة أن أستأذن لهم فى المثول بين يديك ، ليقدموا لذاتك العلية هدايا مما غنموا فى ثورتهم .

فابتسم أحمس وسأل الضابط :

ـــ أقادم أنت من المدينة ؟

ـــ نعم يا مولاى .

ـــ هل فتحت أبواب معبد آمون ؟

ـــ فتحها الثوار يا مولاى .

ـــ ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيتنا ؟

ـــ يقولون يا مولاى انه أقسم الا يبرح خلوته وفى مصر رجل من الرعاة الا عبدا أو أسيرا .

فابتسم الملك وقال :

ـــ حسنا .. ادع قومى ..

وبرح الرجل الخيمة ومضى الى المدينة ، وعاد يتبعه قوم كثيرون يسيرون جماعات جماعات ، تسوق كل جماعة هديتها . واستأذن للجماعة الأولى فدخل نفر من المصريين عراة الا من أزر على أوساطهم ، تنطق وجوههم بالبؤس والفقر ، ويدفعـــون بين أيديهم رجالا من الرعاة تعرت رءوســـهم وتلبـــدت لحاهم وتعفرت جبـــاههم . ثم سجدوا للملك حتى مست الأرض جباههم ، ولما رفعوا وجوههم اليه رأى أعينهم فائضة بالدمع من الفرح والسرور ، وقال كبير القوم :

ـــ مولانا أحمس بن كاموس بن ســـيكننرع بن فرعون مصر

ومحررها وحاميها ، والغصن السامق من تلك الدوحة الباسقة التى استشهدت أصولها فى سبيل طيبة المجيدة ، ومن كان مجيئه رحمة لنا وتكفيرا عن اساءة الأيام الينا ..

فقال أحمس مبتسما :

— أهلا بقومى الأعزة ، من آمالهم كآمالى ، وآلامهم من منبع آلامى ، ولون بشرتهم كلون بشرتى ..

فأضاءت وجوه القوم بنور بهيج ، ووجه كبيرهم الخطاب الى الرعاة قائلا :

— اسجدوا لفرعون يا أحقر عبيده .

فسجد الرجال دون أن ينبس أحدهم بكلمة ، فقال الرجل :

— مولاى .. هؤلا الرعاة من النفر الذين ملكوا الضياع بغير الحق ، كأنما توارثوها عن آبائهم خلفا عن خلف ، واستذلوا المصريين وساموهم الخسف واستأدوهم أشق الأعمال بأزهد الأجور ، جعلوهم فريسة للفقر والجوع والمرض والجهل . ثم كانوا اذا دعوهم قالوا باحتقار فلاحون ، ومنوا عليهم أن تركوهم أحياء .. هؤلاء طغاة الأمس وأسرى اليوم سقناهم الى ذاتكم العلية عبدا من اذل عبيدك ...

فابتسم الملك وقال :

— أشكر لكم يا قومى هديتكم ، واهنئكم على استرداد سيادتكم وحريتكم ..

وسجد الرجال لمليكهم مرة أخرى وغادروا الخيمة ، وساق الجنود الرعاة الى معتقل الأسرى . ثم دخلت الجماعة الثانية يسير بين يديها رجل ضخم الهيكل ناصع البياض ممزق الثياب ، تركت السياط آثارا واضحة بظهره وذراعيه ، فسقط اعياء عند قدمى الملك دون أن يحفل به معذبوه ، وسجدوا لمليكهم طويلا وقال رجل منهم :

— مولانا فرعون مصر ابن الرب آمون ، هذا الشرير المؤزر بلباس

الذل كان كبير شرطة طيبة ، وكان يلهب ظهورنا بسوطه القاسى لأتفه الأسباب ، فمكننا الرب منه فألهبنا ظهره بسياطنا حتى مزق جلده ، وأتينا به الى معسكر الملك ليضم الى عبيده ..

فأمر الملك بالرجل فأخذه الجند ، وشكر لقومه صنيعهم .

وأذن الملك للجماعة الثالثة فأقبلت عليه تسوق رجلا ما ان وقع عليه بصر الملك حتى عرفه ، فهو سنموت قاضى طيبة وشقيق خنزر ، فألقى عليه الملك نظرة هادئة ، ونظر سنموت اليه نظرة ذاهلة من عينين قلقتين دهشتين لا تكادان تصدقان ، وحيا الرجال الملك وقال لسانهم :

— اليك يا فرعون نسوق من كان بالأمس قاضى طيبة ، كان يقسم بالعدالة ويقضى بالظلم فى كل حين ، فأورد مشرب الظلم ليذوق ما كان يسقى الأبرياء .

فقال أحمس موجها خطابه للقاضى :

— يا سنموت ، لقد كنت حياتك تحكم على المصريين ، فرض نفسك هذه المرة أن يحكموا عليك .

ودفع به الى جنوده ، وشكر رجاله المخلصين .

وجاءت الجماعة الأخيرة وكانت شديدة الحماسة تفور بالغضب ، وتحيط بشخص لفته فى ستار من الكتان من ذؤابته الى نعليه ، فحيوا الملك هاتفين : وقال قائلهم :

— يا فرعون مصر وحامى المصريين والمنتقم لهم ، نحن بعض من أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم وادرعوا بهن فى موقعة طيبة . وأراد الرب أن ينتقم لنا من أبو فيس الظالم فهجمنا على حريمه فى أثناء انسحابه ، وخطفنا دون علمه من هى أعز عليه من نفسه ، وجئنا بها اليك لتنتقم لنسائنا منها ..

ودنا الرجل من الشخص المتخفى فى دثار الكتان وأزاح عنه الستار ، فبدت امرأة عارية الا من غلالة على وسطها ، بيضاء صافية

كالنور ، يهفو حول هامتها شعر كأسلاك الذهب ، ويلوح فى وجهها الفاتن الحنق والغضب والكبرياء ، فبهت أحمس ، ونظر اليها ونظرت اليه فبدا الانزعاج على وجهه ، وبدت على وجهها دهشة محت ما كان يلوح فيها من الغضب والحنق والكبرياء وتمتم بصوت غير مسموع وهو لا يفيق : « الأميرة أمنريدس .. » .

وخلع حور عباءته ودنا من المرأة والقاها عليها ، وصاح أحمس برجاله :

— لماذا تمثلون بهذه المرأة ؟ ..

فقال زعيم القوم :

— انها ابنة كبير السفاكين أبو فيس .

وأدرك أحمس حرج موقفه بين القوم الغاضبين المتعطشين للانتقام ، فقال :

— لا تمكنوا للغضب من انفسكم أن يفسد عليكم آدابكم المقدسة ، فالفاضل حقا من يستمسك بفضيلته حين ثورة الوجدان ونزوة الغضب ، وأنتم قوم يحترمون النساء ولا يقتلون الأسرى .

فقال رجل من القوم موتور :

— يا حامى المصريين ، ان شفاء صدورنا فى ارسال رأس هذه المرأة الى أبو فيس .

فقال أحمس :

— هل تحثون مليكم على ان يكون كأبو فيس سفك دماء وقتل نساء ؟ .. كلوا الأمر لى وانصرفوا بسلام .

فسجد القوم لفرعون وانصرفوا . ونادى الملك احد ضباط حرسه وامره بصوت خافت أن يمضى بالأميرة الى سفينته الفرعونية ، وأن يحوطها بالعناية .

وكان الملك يكابد ثورة فى القلب والنفس فلم يحتمل القعود ، فأصدر أمره الى قواده بدخول طيبة على رأس الجيش دخول الظفر

والنصر . ولما تحول الى حور وجده يرمقه بعينين قلقتين حائرتين مشفقتين ...

١٥

وخلا الميدان ، فاتجه الملك نحو النيل يتبعه حرسه ، وكان يحث سائقى عجلته على السرعة ويغرق فى الأحلام والأفكار ، أى صدمة تعرض لها قلبه اليوم !.. أى مفاجأة كابدها وعاناها ؟ .. ولم يكن يدور بخلده أنه سيلقى أمنريدس مرة أخرى فمنى باليأس منها ، وتمثلت له كحلم أضاء ليله ساعة ثم ابتلعته الظلماء . ولكنه رآها مرة أخرى على غير انتظار أو حسبان ، ألقت بها المقادير الى رحمته فغدت بغتة فى ملكه الخاص ، لشد ما اضطرب صدره وخفق قلبه ، لشد ما تيقظت فى نفسه عواطف حارة أحيت من جديد ذكرياته الحلوة ؛ فانغمر فى تيارها الحنون ناسيا كل شىء .

ولكن هى ، هل عرفته يا ترى ؟ .. واذا لم تكن عرفته ، فهل ما تزال تذكر التاجر السعيد اسفينيس ؟ .. الذى أنقذت حياته من الموت المحقق ، ومن قالت له والقلب خافق والدموع ذوارف « الى اللقاء » ؟ ومن حنت اليه فى منفاه فبعثت اليه برسالة كمن الحب فى سطورها كمون النار فى الحجر ؟ .. أما يزال قلبها يخفق خفقته الأولى فى مقصورة السفينة الفرعونية ؟ .. رباه .. ما له يحس أنه مقبل على سعادة لا حد لها ؟ .. هل يصدقه قلبه أم يخدعه ؟ وتمثل للملك منظرها البائس حين دفع بها الثائرون اليه ، فانتفض جسمه القوى وسرت فيه قشعريرة ، وتساءل حزينا والقوم الغاضبون من حولها يصبون عليها ويسبونها ويلعنون أباها ؟ .. وانه ليذكر ما كان يلوح فى وجهها من الغضب والحنق والكبرياء ، فهل يسكت غضبها اذا علمت أنها أسيرة اسفينيس ، وأحس قلقا لم يساوره فى أحرج المواقف ،

وكان ركبه بلغ الشاطىء فهبط الى السفينة الفرعونية ، ودعا اليه الضابط الذى عهد اليه بالأميرة وسأله :

ــ كيف حال الأميرة ؟

ــ وضعت يا مولاى فى مخدع خاص وجىء لها بثيــاب جديدة وقدم لها الطعام ، ولكنها رفضت أن تمسه ، وعاملت الجنود معاملة تنطوى على الاحتقار ودعتهم بالعبيد . ولكنها عوملت أحسن معاملة كأمر جلالة الملك ..

فبدا على الملك عدم الارتياح ، وسار بخطوات هادئة الى المخدع ، ففتح الباب أحد الحرس ورده بعد دخول الملك . وكان المخدع صغيرا أنيقا يضيئه مصباح كبير يتدلى من سقفه ، والى يمين المدخل جلست الأميرة على أريكة وثيرة فى ثوب بسيط من الكتان وقد مشطت شعرها الذى بعثره الثائرون وأرسلته ضــفيرة كبيرة . فنظر اليها مبتسما فرآها تنظر اليه فى دهشة وغرابة وهى لا تصدق عينيها ، وبدت له كأنما هى فى حيرة وشك ، فحياها قائلا :

ــ طاب مساؤك أيتها الأميرة .

فلم تجبه ، ولكنها ازدادت بســماع صوته حيرة وشكا ، وكان الشاب يطيل النظر اليها فى شغف وافتتان ، فسألها :

ــ هل يعوزك شىء ؟

فتفرست فى وجهه ، ثم صعدت بصرها الى خوذته وخفضته الى درعه وسألته :

ــ من أنت ؟

ــ أدعى أحمس فرعون مصر .

فلاح الانكار فى نظــرة عينيها . وأراد أن يزيدها حيرة فخلع خوذته ووضعها على خوان وهو يقول لنفسه انها لا تستطيع أن تصدق عينيها . ورآها تنظر الى شعره المجعد بغرابة ، فقال كالداهش :

ــ ما لك تنظرين الى هكذا كأنك تعرفين لى شبيها ؟

فلم تدر ما تقول ولم تحر جوابا ، واشتاق الى سماع صوتها والتماس حنانها فقال لها :

— هبى أننى أجبتك أنى أدعى اسفينيس ، فهل تردين على ؟

وما كادت تسمع اسم اسفينيس حتى قامت واقفة وصاحت به:

— اذن أنت اسفينيس !

فدنا منها خطوة وحدجها بنظرة حنان ، وأمسك بمعصمها وهو يقول :

— نعم أنا اسفينيس أيتها الأميرة أمنريدس .

فجذبت معصمها بشدة وقالت :

— انى لا أفهم شيئا .

فابتسم أحمس وقال برقة :

— ماذا تعنى الأسماء ؟ .. كنت بالأمس أدعى اسفينيس وأدعى اليوم أحمس ، ولكنى شخص واحد وقلب واحد ...

— يا للغرابة ... كيف تقول أنت شخص واحد ؟ .. كنت تاجراً تبيع الحلى والأقزام ، وأنت اليوم تقاتل وترتدى ثياب الملوك .

— ولم لا ؟ .. كنت بالأمس أجوس خلال طيبة متخفياً ، وانا اليوم أقود قومى لتحرير بلدى واسترداد عرشى المسلوب ...

فنظرت اليه نظرة طويلة تحير فى ادراك كنهها . وحاول أن يدنو منها مرة أخرى ، ولكنها صدته باشارة من يدها وجمدت قسمات وجهها وتبدت القساوة والكبرياء فى عينيها ، فأحس خيبة أمل وبرودة تشتمل آماله وتقتل بلابل الرجاء المغردة فى صدره ، وسمعها تقول بشدة :

— ابتعد عنى .

فقال لها برجاء :

— ألا تذكرين ...

ولكنها قاطعته قبل أن يتم كلامه قائلة وقد استولى عليها الغضب الذى اشتهر به قومها :

— أذكر وسأذكر دائما أنك جاسوس وضيع ...
فأحس صدمة مروعة جعلته يقطب ، وقال بغضب :
— أيتها الأميرة ... الا تدركين أنك تخاطبين ملكا ؟
— أى ملك يا هذا ؟
فاستولى عليه الغضب وقال بشدة :
— فرعون مصر .
فقالت بتهكم :
— وأبى أيكون أحد ولاتك ؟ !

فاشتد الغضب بالملك وغلب كبرياؤه عواطفه جميعا ، فقال :
— ليس أبوك أهلا لأن يكون واليا من ولاتى ، ولكنه مغتصب على عرش بلادى ، وقد هزمته شر هزيمة وجعلته يفر من أبواب طيبة الشمالية تاركا ابنته تقع أسيرة بين أيدى القوم الذين ظلمهم ، وسوف أتبعه بجيوشى حتى يلوذ بالصحارى التى قذفته الى وادينا ... الا تدركين هذا ؟ ... أما أنا فملك هذا الوادى الشرعى لأنى من سلالة فراعنة طيبة المجيدة ، ولأنى قائد مظفر أسترد بلادى عنوة واقتدارا .

فقالت ببرود وسخرية :
— طبت من ملك يبرع قومه فى مقاتلة النساء ...
— يا للعجب الا تعلمين أنك مدينة لقومى هؤلاء بحياتك ؟ .. لقد كنت تحت رحمتهم ولو أنهم قتلوك ما خالفوا السنة التى استنها أبوك فى تعريض النساء والأطفال لنبال المقاتلين ...
— وهل تضعنى على قدم المساواة مع أولئك النسوة ؟
— ولم لا ؟ ...
— معذرة أيها الملك .. فانه كبر على أن أتصور أنى مثل احدى نسائكم أو أن أحدا من قومى مثل أحد من قومكم الا أن يتساوى السادة والعبيد ... الا تعلم أن جيشنا غادر طيبة لا يحس ذل المغلوب ، وكانوا يقولون باستهانة ثار عبيدنا وسنكر عليهم ...

وجن جنون الملك وغلبه الغضب على أمره ، فصاح بها :

ــ من العبيد ومن السادة ؟ .. انك لا تدركين شيئا أيتها الفتاة المغرورة ؛ لأنك ولدت بين أحضان هذا الوادى الذى يوحى بالمجد والعزة ، ولو تأخر مولدك قرنا من الزمان لولدت فى أقسى صحارى الشمال الباردة ، ولما سمعت من يقول لك أميرة أو يدعو أباك ملكا . من تلك الصحارى جاء قومك فاغتصبوا سيادة وادينا وجعلوا أعزته أذلة ، ثم قالوا جهلا وغرورا انهم أمراء واننا فلاحون عبيد ، وانهم بيض واننا سمر ، اليوم يأخذ العدل مجراه فيرد السيد الى سيادته ، وينقلب العبد الى عبوديته ، ويصير البياض سمة الضاربين فى الصحارى الباردة ، والسمرة شعار سادة مصر المطهرين بنور الشمس. هذا الحق الذى لا مراء فيه ...

فاحتدم الغيظ فى قلب الأميرة واندفع الدم الى وجهها ، وقالت باحتقار :

ــ أنا أعلم أن أجدادى هبطوا مصر من الصحراء الشمالية ، ولكن كيف غاب عنك أنهم كانوا سادة الصحراء قبل أن يصيروا بقوتهم سادة هذا الوادى ؟ .. كانوا وما يزالون سادة ذوى كبرياء ونخوة ، لا يعرفون سوى السيف سبيلا الى هدفهم ، ولا يتخفون فى ثياب التجار كى يطعنوا اليوم من سجدوا له بالأمس القريب ...

فحدجها بنظرة قاسية متفحصة ، فرآها ذات كبرياء وخيلاء وقسوة لا تلين ولا تخاف ، وتتمثل فيها صفات قومها الفظة المتعالية ، فاشتد به الحنق ، واحس رغبة حارة الى اخضاعها واذلالها ولاسيما بعد أن اذلت عواطفه بكبريائها وصلفها ، فقال بصوت هادىء متعال :

ــ لا أرى سببا يدعونى الى الاستمرار فى مجادلتك ، ولا يجوز أن أنسى أنى ملك وأنك أسيرة .

ــ أسيرة كما تشاء ، ولكنى لن أذل أبداً .

ــ بل انك تحتمين برحمتى فتؤاتيك هذه الشجاعة .

— لم تفارقنى شجاعتى قط ... سل رجالك الذين خطفونى غدرا ينبئوك عن شجاعتى واحتقارى لهم فى أحرج الأوقات وأشدها خطرا على .

فهز كتفيه العريضتين استهانة ، وتحول ألى الخوان فأخذ خوذته ووضعها على راسه ، وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول :

— لقد قلت حقا انى اسيرة ، وليست سفينتك المكان الذى يصلح للأسرى ، فألحقنى بأسرى قومى ...

فنظر اليها مغيظا محنقا وقال يغيظها ويخيفها :

— ليس الأمر كما تتصورين ، فالعادة أن الأسرى الرجال يسخرون عبيداً ، أما النساء فيلحقن بحريم الملك الظافر ...

فقالت وقد اتسعت حدقتاها :

— ولكنى اميرة ...

— كنت اميرة ... ولست الآن سوى أسيرة .

— كلما ذكرت أنى انقذت حياتك يوما يجن جنونى ...

فقال بهدوء :

— فلتحى هذه الذكرى ... فبفضلها أنقذت حياتك من ايدى الثائرين الذين يتمنون ان يرسلوا راسك الى ابو فيس .

وأدار لها ظهره وغادر المخدع غاضبا حانقا ، وحياه الحراس فأمرهم بالابحار الى شمال طيبة ، وسار الى مقدمة السفينة بخطى ثقيلة متباطئة مالئا صدره بهواء الليل الرطيب ، وما لبثت السفينة أن انحدرت مع تيار النيل المتدفق منذ الأزل تشق الظلماء الى شمال طيبة . فأرسل الملك بناظريه الى المدينة فارا اليها من هموم نفسه ، وكان النور يشع من سفن الأسطول الراسية الى شاطىء المدينة ، أما القصور الشاهقة فكانت غارقة فى الظلمة بعد أن هجرها أصحابها الفارون ، ولاحت على البعد من بين القصور والحدائق أضواء المشاعل التى يحملها الساهرون الفرحون ، وحمل النسيم صدى أصواتهم

المتصاعدة بالهتاف والأناشيد ، فجرت على فمه العريض ابتسامة ، وأدرك أن طيبة تستقبل جيش الخلاص كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفرة وأعيادها الخالدة ...

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعونى حتى حاذته فى مسيرها ، ورأى الملك القصر مضاء يشع النور من نوافذه وحديقته ، فعلم أن حور يشرف على تهيئته وتطهيره ، وأنه عاد حقا الى أداء وظيفته الأولى فى قصر سيكننرع وشاهد أحمس ميناء حديقة القصر فعاودته الذكرى الأليمة ، ليلة حملت السفينة الفرعونية أسرته الحزينة وهربت بها الى أقاصى الجنوب والدماء تتفجر من ورائها ...

وعاود الملك السير جيئة وذهابا على مقدم السفينة ، واتجه بصره مرات الى مخدع الأميرة المغلق ثم تساءل متبرما ساخطا : لماذا جاءونى بها ؟ ... لماذا جاءونى بها ؟ ...

١٦

وفى صباح اليوم الثانى بكر حور والقواد والمستشارون الى زيارة الملك فى سفينته الراسية شمال طيبة ، فاستقبلهم الملك فى المقصورة وسجدوا بين يديه وقال حور بصوته الهادىء :

ــ أسعد الرب صباحك أيها الملك المظفر ، لقد خلفنا وراءنا أبواب طيبة يخفق قلبها بالأفراح ، ويهزها الشـــوق الى اجتلاء نور جبين مخلصها ومحررها .

فقال أحمس :

ــ لتفرح طيبة ، أما اللقاء فحين يقضى الرب بالنصر .

فقال حور :

ــ وذاع بين الأهلين أن مليكهم فى طريق الشمال وانه يرحب بمن يلحق به من القادرين ، ولا تسل يا مولاى عن الحماسة التى فاضت بقلوب الشباب ، ولا عن تهافتهم على الضباط ليضموهم الى جيش أحمس المعبود .

فابتسم الملك وسأل رجاله :

ــ وهل زرتم معبد آمون ؟

فقال حور :

ــ نعم يا مولاى زرناه جميعا ، وهرع اليه الجنود يتمسحون بأركانه ويمرغون وجوههم فى ترابه ويعانقون كهنته . وقد فاض المذبح بالقربان وأنشد الكهنة نشيد الرب المعبود وترددت صلاتهم فى جنبات المعبد ، فصهر الحنين القلوب وانتظم الطيبيون جميعا فى صلاة جامعة ، أما نوفر آمون فلم يبرح عزلته ....

فابتسم الملك ، ولاحت منه التفاتة فرأى القائد أحمس ابانا صامتاً

مكتئباً فأشـــار اليه أن يقترب ، فاقترب القائد من مولاه ، ووضـــع الملك يده على منكبه وقال له :

ـــ تحمل نصيبك من الأذى يا احمس ، واذكر أن شعار اسرتك الشجاعة والبذل .

فحنى القائد رأسه شاكراً وقد دخلته رقة من عطف الملك عليه ، ونظر أحمس الى رجاله وقال :

ـــ أشيروا على فيمن أختاره حاكما لطيبة ، وأعهد اليه بمهمة عظيمها الشاقة ...

فقال القائد محب :

ـــ ان خير من يصلح لهذا المنصب الخطير الرجل المخلص الحكيم حور ...

ولكن حور بادر يقول :

ـــ ان واجبى فى السهر على خدمة مولاى لا فى التخلف عنه .

فقال أحمس :

ـــ صدقت .. وأنا لا أستغنى عنك .

فقال حور :

ـــ يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة معروف بالحكمة وأصالة الرأى هو توتى آمون وكيل معبد آمون ، فاذا شاء مولاى فليعهد اليه شئون طيبة .

فقال أحمس :

ـــ قد وليناه طيبة .

ثم دعا الملك رجاله الى تناول الفطور على مائدته

١٧

ومضت ساعات النهار والجيش يضمد جراحه ويأخذ قسطه من الراحة واللهو والغناء والشراب ، واستبقى الجنود الطيبيون الى منازل أهلهم فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس ، وصارت طيبة من المودة والعطف كأنها قلب الدنيا الخافق . أما أحمس فلم يبرح سفينته ، ودعا الضابط المكلف بحراسة الأميرة وسأله عنها ؟ فقال له الرجل : انها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاماً . وكان يفكر فى وضعها فى سفينة أخرى ويعهد بها الى حراس أمناء ، ولكنه لم ينته من تفكيره الى عزم قاطع ، ولم يشك فى أن حور غير راض عن وجودها فى سفينته ، وأيقن أن الحاجب يكبر عليه أن تنال ابنة أبو فيس هذه الحظوة لديه . وكان يعرفه حق المعرفة ، ويعلم أنه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة . أما هو فكانت عواطفه متعطشة فائرة ، وكان يعيا عن كف نفسه عن الحوم حول المخدع وصاحبته ، أو فى صرفها عن الولوع بها على ما به من سخط وغضب ، فان الغضب لا يقتل الحب ولكنه يحجبه حيناً من الزمن كما يكدر الضباب وجه المرآة المصقولة الى حين ، ثم ينقشع عنها فيعود اليها الصفاء . ولذلك لم يسلم لليأس ، وجعل يقول لنفسه متعزيا : لعل ما بها من آثار الكبرياء المغلوب على أمره والصلف الواقع فى الأسر ، ولعل غضبها أن يسكت فتجد أن ما تظهر من البغض دون ما تبطن من الحب فتلين وتذعن وتؤدى للحب حقه كما أدت للغضب حقوقه ، أليست هى صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته ومنحته العطف والمودة ؟ ... أليست هى التى أقلقها غيابه فكتبت اليه رسالة عذل تضمر أنين الحب المكتوم ؟ ... فكيف تذوى عواطفها هذه من أجل ثورة كبرياء وغضب ؟ .. وانتظر الأصيل ثم هز كتفيه العريضين استهانة وذهب الي المخدع ، وحياه الحرس وأوسعوا

له فدخل كبير الرجاء . ورآها تجلس فى جمود وهدوء تلوح فى عينيها الزرقاوين الكآبة والملل ! فآلمته كآبتها وقال لنفسه : كانت طيبة على رحابتها تضيق بها ، فكيف وقد حبست فى هذا المخدع الصغير ؟ .. ووقف أمامها جامداً فاستوت فى جلستها ورفعت اليه عينين باردتين ، فقال لها برقة :

ــ كيف كانت ليلتك ؟

فلم تجب وخفضت رأسها تنظر الى الأرض ، فألقى على رأسها ومنكبها وصدرها نظرة مشوقة ، وأعاد سؤاله قائلا وقد ظن أن أمله قريب :

ــ كيف كانت ليلتك ؟

وبدا عليها كأنها لا تريد أن تخرج عن الصمت ، ولكنها رفعت رأسها بحدة وقالت :

ــ كانت أسوأ ليالى ...

فأغضى عن لهجتها وسألها :

ــ لماذا ؟ .. هل يعوزك شىء ؟ ..

فقالت دون أن تغير لهجتها :

ــ يعوزنى كل شىء .

ــ كيف ؟ .. لقد أمرت الضابط المكلف بحراستك ..

فقاطعته بتبرم قائلة :

ــ لا تتعب نفسك فى ذكر هذا ... فانه يعوزنى كل شىء أحبه ، يعوزنى أبى وقومى وحريتى . ولكن لدى كل ما أكرهه ... هــذه الثياب وهذا الطعام وهذا المخدع وهؤلاء الحراس ...

فمنى بالخيبة مرة ثانية وأحس انهيار آماله وذهاب رجائه ، فجمدت أساريره وقال لها :

ــ أتريدين أن أفك أسرك وأرسلك الى أبيك ؟

فهزت رأسها بعنف وقالت بشدة :

ــ كلا ...

فنظر اليها متعجبا متحيرا ، ولكنها استدركت بمثل هذه اللهجة قائلة :

— كيلا يقال ان ابنة أبو فيس ضرعت الى عدو أبيها العظيم أو انها استحقت الرثاء يوما ..

فهاجه الغضب وحنق على صلفها وكبريائها وقال لها :

— انك لا تتحرجين فى اظهار صلفك اطمئنانا منك الى رحمتى ...

— كذبت ...

فامتقع وجهه وحدجها بنظرة قاسية وقال :

— يا لك من سادرة لا تعرفين ما الحزن وما الألم ، هل تعلمين ما تستوجبه اهانة الملك من عقـاب ؟ هل رأيت امرأة تجلد قبل اليوم ؟ .. أنا لو شئت لجعلتك تجثين عند قدمي أصغر جنودى سائلة الصفح والتوبة ...

وأدام اليها النظر ليرى اثر تهديده فى نفسها ، فوجدها تتحداه بعينيها القاسيتين لا تغضيهما ، والغضب يسارع اليها أسراعه الى بنى قومها جميعا ، وقالت بحدة :

— نحن قوم لا يعرف الخوف الى قلوبنا سبيلا ، ولا يذل كبرياؤنا حتى تطوى السماوات أيدى البشر .

وتساءل فى غضبه هل يجرب اذلالها ؟ .. لماذا لا يذلها ويدوس كبرياءها بقدمه ؟ . أليست هى أسيرته ويستطيع أن يجعلها جارية من جواريه ؟ .. ولكنه لم يرتح الى هذا الهوى . كان يطمع فيما هو أعذب وأجمل . فلما أدركته الخيبة ثار كبرياؤه واجتد غضبه فزهد فى استذلالها ، على أنه اظهر غير ما يبطن فقال بلهجة كلهجتها كبرياء :

— ان مشيئتى لا تقتضى تعذيبك فلن تعذبى لذلك ... وانه لمن أعجب الأمور أن يفكر انسان فى تعذيب جارية حسناء مثلك .

— بل أميرة ذات كبرياء .

— كان هذا قبل أن تقعي أسيرة في يدي ..

اما انا فأوثر أن أضمك الى حريمى على أن أعذبك : ومشيئتى هى النافذة ...

ــ ستعلم أن مشيئتك نافذة على نفسك وعلى قومك لا على ، وانك لن تمسنى حية ...

فهز كتفيه استهانة ، ولكنها استدركت قائلة :

ــ من عاداتنا المتوارثة أنه اذا وقع فـــرد منا فى اشراك ذل ولم يستطع النجاة ، امتنع عن الأكل حتى يقضى كريما ...

فقال متهكما :

ــ حقا ؟ ... ولكنى رأيت قضاة طيبة يساقون الى فيسجدون صاغرين سائلة أعينهم العفو والمغفرة ...

فامتقع وجهها ولاذت بالصمت ، وضاق الملك بحديثها ذرعا وكان يعانى مرارة الخيبة فلم يطق البقاء ، وقال وهو يهم بمغادرة المخدع :

ــ لن تجدى حاجة الى الامتناع عن الطعام ...

وغادر المخدع مغضبا ساخطا وقد بيت نيته على أن ينقلها الى سفينة أخرى ، ولكن ما كاد غضبه يسكت حين خلا الى نفسه فى المقصورة حتى عدل عن نيته فلم يصدر أمره ...

١٨

ومثل الحاجب حور بين يدى الملك فى مقصورته وقال :

ـــ مولاى ، جاء رسل من قبل أبو فيس يستأذنون فى المثول بين يديك .

فعجب أحمس وساله :

ـــ ماذا يريدون ؟

فقال الحاجب :

ـــ قالوا انهم يحملون رسالة لذاتك العليا ...

فقال أحمس :

ـــ ادعهم على عجل ...

فغادر الحاجب المقصورة وبعث بضابط الى الرسل ، وعاد الى مولاه ينتظران . ولم يلبث أن جاء الرسل مع شرذمة من ضباط الحرس ، وكانوا ثلاثة يتقدم كبيرهم ويتبعه اثنان يحملان صندوقا من العاج ، وكانوا كما يبدو من ثيابهم الفضفاضة من الحجاب ، بيض الوجوه ، طوال اللحى ، وقد رفعوا أيديهم بالتحية دون انحناء ، ووقفوا فى غطرسة ظاهرة ، فرد أحمس تحيتهم فى كبرياء وسالهم :

ـــ ماذا تريدون ؟

فقال زعيمهم بلهجة اعجمية متغطرسة :

ـــ أيها القائد ...

ولكن حور لم يمكنه من اتمام عبارته ، فقال له بهدوئه الطبيعى :

ـــ انك تحدث فرعون مصر يا رسول أبو فيس ...

فقال الزعيم :

ـــ الحرب ما تزال مستعرة لم يفصل فيها بعد ، وما دام لنا رجال وفى أيدينا سلاح ، فأبو فيس فرعون مصر لا شريك له ...

فأومأ أحمس الى حاجبه بالسكوت وقال للرسول :

— تكلم فيما جئت من أجله ...

فقال الزعيم :

— أيها القائد ، خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السمو الفرعونى الأميرة أمنريدس كريمة مولانا الملك أبو فيس فرعون مصر وابن الرب ست . ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة أو قتلها الفلاحون ؟

— هل يذكر مولاك ما فعل بنسائنا وأطفالنا فى حصار طيبة ؟ ... ألم يذكر كيف عرضهن لسهام أبنائهن وأزواجهن تمزقهن شر ممزق ، وجنودكم الجبناء مدرعون بهن ؟ ..

فقال الرجل بحدة :

— ان مولاى لا يتنصل من تبعة عمله ، والحرب كفـاح للموت والهزيمة فلا يستعان عليها بالرحمة ...

فهز أحمس رأسه بنفور وقال :

— بل الحرب نزال بين الرجال ، يفصـل فيه الأقوياء ويعنو له الضعفاء ، وهى عندنا صراع لا ينبغى أن يطغى على ما بنفوسنا من المرءوة والدين ... على أنى أعجب كيف يسأل الملك عن ابنته وذاك عمله وهذا رأيه فى الحرب ؟ ..

فقال الرسول بإباء :

— ان مولاى يستفهم لغاية فى نفسه ، فلا هو يسترحم ولا هو يشفق ...

وتفكر أحمس مليا ، ولم يغب عنه الباعث الذى حدا بعدوه الى السؤال عن ابنته . ولذلك قال بوضوح وبلهجة نمت عن الاحتقار :

— عد الى مولاك وقل له ان الفلاحين قوم شرفاء لا يغتالون النساء ، وأن الجنود المصريين يترفعون عن قتل أسراهم ، وأن ابنته أسيرة تتمتع بنبل آسريها ..

فبدا على الرجل الارتياح وقال :
— لقد أنقذت كلمتك هذه أرواح الآلاف من قومك نساء ورجالا ممن أسرهم الملك ، وجعل حياتهم رهينة بحياة سمو الأميرة .
فقال له أحمس :
— وحياة الأميرة رهينة بحياتهم .
فصمت الرجل مليا ثم قال :
— وقد أمرت الا أعود حتى أراها بنفسى .

وبدا الانكار على وجه حور ، ولكن أحمس بادر الرسول قائلا :
— ستراها بنفسك .
فأشار الزعيم الى الصندوق العاجى الذى يحمله تابعاه وقال :
— وهذا الصندوق يحوى بعض ثيابها ، فهل تأذن لنا فى تركه فى حجرتها ؟ .
فسكت الملك هنيهة ثم قال :
— لك هذا .
ولكن حور مال الى مولاه وهمس قائلا :
— ينبغى أن نفحص الثياب أولا .

فوافق الملك على رأى حاجبه ، وأمر الحاجب بوضع الصندوق بين يدى الملك ، ثم فتحه بيديه وأخرج ما به من الثياب ثوبا ثوبا ، وعثر بحق صغير فأمسك به وفتحه فاذا ما به عقد ذو قلب زمردى . وأرتعد قلب الملك لمرآه : وذكر كيف انتقته الأميرة من بين لآلئه يوم كان يدعى اسفينيس ويبيع اللآلىء فتورد وجهه ، أما حور فقال :
— هل السجن مكان صالح للزينة ؟ !
فقال الرسول :
— هذا العقد حلية الأميرة المفضلة لديها ، فان شاء القائد أبقيناه ، والا أخذناه معنا .
فقال أحمس :

— لا بأس بابقائه .

ثم التفت الملك الى الضباط وأمرهم باصطحاب الرسل الى مخدع الأميرة ، ومضت الرسل ومضى الضباط فى أثرهم ...

١٩

وفى ذات المساء لحقت بالجيش قوات آتية من الجنوب من مدربى ابولينوبوليس وهيراكنبوليس ، ورست فى ميناء طيبة سفن صغيرة محملة بالأسلحة وقباب الحصـــار موجهة من أمبوس ، وبشر ربانها الملك بأنه عما قريب تصله قوة من العجلات والفرسان المدربين . وانضم الى الجيش رجال من طيبة وهابو فاعتاض جيش أحمس عما فقده من الرجال وأربى عدده على اليوم الذى اخترق الحـــدود غازيا . ولم ير الملك داعيا الى البقاء فى طيبة أكثر مما بقى ؛ فأمر قواده بالاستعداد للزحف شمالا فجر الغد ، وتودع الجنود من طيبة وأهلها ، وتحولوا عن اللهو والدعة لاستقبال الكفاح والجلاد . وعند مطلع الفجر نفخ الجنود فى الأبواق فتحرك الجيش العرمرم صـــفوفا كأمواج البحر ، تتقدمه الطلائع ويسير فى مقدمته الملك وحرســـه ، وفرقة العجلات تتبعها الفرق الأخرى . وأقلع الأســـطول بقيادة أحمس ابانا يشـــق مياه النيل بوحداته القوية . تواثبوا جميعا للقتال ، وشحذ النصر ارادتهم فجعلها كالحديد أو أشد صلابة . واستقبل الجيش فى القرى بحماسة دافقة ، وهرع الفلاحون الى طريقه هاتفين يلوحون بالأعلام وسعف النخل . واجتاز سبيله آمنا فأضحى فى شنهور ودخلها بغير مقاومة ، ثم أمسى فى قهى ففتحت له أبوابها وباتوا جميعا فى قسى واستأنفوا المسير مع الفجر ، وجدوا فى سيرهم حتى شارفوا ميدان كبتوس ولاح لهم الوادى الذى ينتهى بالمدينة ، وهنا شمل الجيش صمت حزين وطافت الذكريات بالرءوس ، وذكر أحمس الهزيمة التى

حلت بجيش طيبة فى هذا الوادى لعشرة أعوام خلت أو يزيد ، وذكر مصرع جده الباسل سيكننرع الذى آرتوت هذه الأرض بدمه ، وحار بصره فى جنبات الميدان وهو يتساءل : ترى فى أى مكان سقط . ولاحت منه التفاتة نحو حور ، فرأى وجهه ممتقعا وعينيه مغرورقتين بالدموع ، فاشتد به التأثر وقال له :

— يا للذكرى المؤلمة ...

فقال حور بصوت متهدج وأنفاس لاهثة :

— كأنى أستمع الى أرواح الشهداء التى يعمر بها جو هذا المكان المقدس ...

فقال القائد محب : لشد ما ارتوت هذه الأرض من دماء آبائنا ..

وجفف حور دمعه وقال للملك :

— فلنصل جميعا يا مولاى على روح مليكنا الشهيد سيكننرع وجنوده البواسل .

وترجل أحمس وقوداه وحاشيته وصلوا جميعا صلاة حارة ..

ودخل الجيش مدينة كبتوس وخفق على ســـورها علم مصر ، فهتف الجنود لذكرى سيكننرع طويلا . ثم زحف الجيش الى تنتيرا دون أن يجد أدنى مقاومة . وكذلك استرد ديوس بوليس برفا . ثم سار فى ظريق أبيدوس وهو يتوقع أن يلقى الرعاة فى واديها ، ولكنه لم يعثر برجل من العدو ، فعجب أحمس وتساءل قائلا :

ـــ أين أبو فيسى وأين جيوشه الجرارة ؟

فقال حور : لعله لا يريد أن يلقى عجلاتنا بمشاته .

ـــ وحتام تدور هذه المطاردة ؟

ـــ من يعلم يا مولاى ؟ . . لعلها تدوم حتى نواجه أسوار هواريس ، حصن الرعاة الحصين الذى شيدوا أسواره فى قرن من الزمان ، ولسوف يدمى قلب مصر قبل ان تخترقه جنودنا .

وفتحت أبيدوس أبوابها لجيش الخلاص ، فدخلها دخول الجيش المظفر ، واستراح بها يومه . .

وكان أحمس يتعطش الحرب لعله يلقى عدوه فى موقعة فاصلة ، ولأنه كان يتوق الى أن ينغمر فى القتال لينسى نوازع نفسه ويطمس أحزان فؤاده ، ولكن أبو فيس أبى عليه هذه الراحة ، فوجد افكاره تحوم حول الأسيرة العنيدة ، وقلبه ينازعه اليها على ما به من موجدة عليها . وذكر أحلامه حين ظن أن أسعد الأقدار هى التى دفعتها الى أسره وحين طمع أن يجعل سفينة الأسر جنة من جنان الحب . ثم ذكر ما فعل به اباؤها وغضبها ، وكيف صيره مريضا محروما من اشهى الثمار وهى ناضجة دانية ، وكانت رغبته الى الحب قوية لا تقاوم فجرفت بتيارها الدافق عوائق التردد والكبرياء ، فذهب الى السفينة وقصد الى المخدع المسحور ودخل ، وكانت جالسة جلستها المعهودة

على الأريكة ملتفة فى ثوب من أثواب منف الرقيقة . وكأنها عرفت وقع خطاه فلم ترفع اليه راسها وظلت تنظر الى ما بين قدميها . وجرى بصره المشغوف على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلتين فأحس رعدة تصدع صدره ، ونازعته الرغبة فى أن يرتمى عليها ويضغطها بين ذراعيه بكل ما أوتى من قوة وعزم ، ولكنها رفعت راسها بغتة وحدجته بنظرة باردة ، فلبث حيث هو جامدا ، ثم سألها :

— هل زارك الرسل ؟

فقالت بلهجة لا تنم عن عاطفة : نعم ..

فجال ببصره فى الحجرة حتى استقر على الصندوق العاجى وقال :

— لقد اذنت لهم أن يوصلوا اليك هذا الصندوق !

فقالت باقتضاب وبصوت لا يخلو من جفاء : شكرا لك ..

فارتاح فؤاده وقال : وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردى ..

فاضطربت شفتاها وأرادت أن تتكلم ، ولكنها عدلت فجأة واطبقت فمها بحالة تدل على الحيرة ، فقال أحمس برقة :

— قال الرسل ان هذا العقد عزيز لديك ..

فهزت رأسها بعنف وكأنها تنفى عن نفسها تهمة وقالت :

— كنت أكثر من لبسه حقا لأن ساحرة القصر جعلته تعويذة تقى الضر والسوء ..

ففطن الى تهربها ، ولكنه لم ييأس وقال :

— ظننت أن ذلك لأسباب أخرى تشهد بها مقصورة السفينة الفرعونية .

فتضرج وجهها بالاحمرار وقالت بغضب :

— لا أذكر اليوم نزوة الأمس ، ويجمل بك أن تحدثنى كما ينبغى لعدو أن يحدث أسيرة .

ورأى وجهها قاسيا جامدا فتجرع الخيبة مرة أخرى ، ولكنه أراد أن يكتم عواطفه فقال :

ـــ الم تعلمى بأنا نضم نساء أعدائنا الى حريم قصورنا ؟
فقالت بحدة : الا مثلى ..
ـــ هل تعودين الى التهديد بالصوم ؟
ـــ لا حاجة لى به بعد الآن ..
فتفحصها بنظرة مريبة وسألها متهكما :
ـــ فكيف تدافعين عن نفسك ؟

فأرته فى كفيها سلاحا صغيرا لا يزيد طوله عن ظفر ، وقالت باطمئنان :

ـــ انظر ؛ هذا خنجر مسموم ، اذا خدشت به جلدى سرى سمه فى دمى فقضى على فى لحظات ، دسه الى الرسول فى غفلة من رقبائك ، فعلمت أن أبى يضع بين يدى ما أقضى به على نفسى اذا مسنى الضيم أو تحرش بى انسان .

فغضب أحمس وعبس وجهه وقال :

ـــ أهذا هو سر الصندوق ؟ .. سحقا لمن يطمئن الى كلمة خنزير من الرعاة ذوى اللحى القذرة . ان الخيانة تسرى فى عروقكم مسرى الدم ، ولكن أراك تخطئين فهم رسالة أبيك ؛ فقد دس اليك هذا الخنجر لتقضى به على ..

فهزت رأسها كالساخرة وقالت :

ـــ أنت لا تفهم أبو فيس ، انه يأبى الا أن أعيش كريمة أو أموت كريمة ، أما عدوه فسيقضى عليه بنفسه كما تعود أن يقضى على أعدائه .

فضرب أحمس الأرض بقدمه وقال بحنق شديد :

ـــ لماذا كل هذا العناء ؟ .. فما أزهدنى فى جارية مثلك أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد ، لقد توهمتك فيما مضى شيئا ليس فيه من حقيقتك شىء ، فسحقا للأوهام جميعا ..

وتحول الملك عنها وغادر المخدع ، وفى الخارج دعا كبير حراسها وقال له :

— لتنقل الأسيرة الى سفينة أخرى تحت الحراسة الشديدة ..
وبرح الرجل السفينة ضيق الصدر مكفهر الوجه ، وعاد فى عجلته الى المعسكر ..

٢١

وضاق الملك بالسكون فأمر قواده بالتأهب . وفى فجر اليوم الثانى زحف الجيش بجموعه الجرارة وأقلع الأسطول فبلغ بطلمايس فى يومين ، ولم يظهر حولها أثر للعدو فدخلتها الطلائع فى سلام وتبعها الجيش على الأثر . وأوغلت الطلائع شمالا حتى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشمالية ودخلتها بلا مقاومة وزفت البشرى الى الملك أحمس أن بانوبوليس فى أيد مصرية ، فصاح أحمس :

— لقد أجلى الرعاة من مملكة طيبة .

فقال حور : وسيجلون عن مصر قريبا .

وتقدم الجيش نحو بانوبوليس ودخلها مزهوا ظافرا على انغام الموسيقى الحماسية ، ونفخ فى الأبواق اعلانا للنصر ، ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة ، وانتشر الجنود فى الأسواق واختلطوا بالأهلين يهتفون وينشدون . وشمل المدينة فرح جنونى خفق فى كل صدر وتردد مع كل نفس وأولم الملك لقواد الجيش والأسطول والحاشية وليمة فاخرة قدمت فى ختامها كؤوس مترعة بأنبذة مريوط المعتقة مع أزهار اللوتس وقضب الريحان ، وقال الملك لرجاله :

— غدا نخترق حدود المملكة الشمالية وترفع على أسوارها أعلام مصر لأول مرة منذ نيف ومائة عام .

فدعا الرجال له وهتفوا باسمه طويلا ..

ولكن فى أصيل ذلك اليوم رأى الحراس كوكبة من العجلات تعدو نحو المدينة من الشمال رافعة راية بيضاء ، فأحاط بها الجند وسألوا

عن مقصدها ، فقال أحد رجالها انهم رسل الملك ابو فيس الى احمس ؛ فمضى بهم الجنود الى المدينة ، وعلم احمس بأمر الرسل فذهب الى قصر حاكم المدينة ، ودعا اليه حور وقائد الأسطول والقائدين محب وديب ، وجلس على كرسى الحاكم يحيط به قواده ومن حولهم الحرس فى ثيابهم الفخمة . وأذن للرسل بالدخول ، وكان المصريون لا يدرون ما يحمله الرسل هذه المرة فانتظروا مشوقين . وجاء رسل ملك الرعاة وكانوا خليطا من القواد والحجاب فى الثياب العسكرية والمدنية تسبقهم لحاهم المسترسلة ، ولم يكن يبدو على وجوههم آى التحدى والغلظة كما توقع أحمس ، ولكنهم اقتربوا من مجلس الملك وانحنوا جميعا فى اجلال واحترام حتى كاد الملك ان يعلن دهشته ، وقال كبيرهم :

ـــ حياك الرب يا ملك طيبة ، نحن رسل فرعون مصر السفلى والوسطى اليك .

فألقى أحمس عليهم نظرة لا تدل على شىء مما يثور فى نفسه ، وقال بهدوء :

ـــ حياكم الرب يا رسل أبو فيس ، ماذا تريدون ؟

وبدا على الرسل الاستياء لاغفال الملك ألقاب مليكهم ، ولكن زعيمهم قال :

ـــ أيها الملك نحن رجال حرب ، فى ميدانها نشأنا وعلى سنتها نعيش ، شجعان بواسل كما بلوتمونا ، نعجب بالبطل وان كان لنا عدوا ، وننزل عند حكم السيف وان كان علينا . ولقد انتصرت أيها الملك واستردت عرش مملكتك فحق لك ملكها كما حق علينا تسليمها ، فهى مملكتك وأنت مليكها . وان فرعون يقرئك السلام ، ويعرض عليك حقن الدماء وصلحا شريفا يحترم الحقوق ويصل ما انقطع من علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال .

واصغى الملك الى الرسل فى هدوء ظاهر ودهشة باطنة ، ثم نظر الى لسان القوم وسأله متعجبا :

— أجئتم حقا تنشدون سلاما ؟

فقال الرجل :

— نعم أيها الملك .

فقال أحمس بصوت يدل على العزم والحزم :

— انى أرفض هذا السلام .

— ولماذا تصر على الحرب أيها الملك ؟

فقال أحمس : يا قوم أبو فيس .. لأول مرة تخاطبون مصريا باحترام ، ولأول مرة تنزلون مقهورين عن نعتـــه بصـــفات العبودية . أتعلمون لماذا ؟ لأنكم غلبتم على أمركم . فأنتم يا هؤلاء وحوش ضوار اذا غلبتم ، وشاء اذا غلبتم ، اتسألوننى لماذا أصر على الحرب ؟ .. فاليكم جوابى : انى ما أعلنتها عليكم لأسترد طيبة ، ولكنى عاهدت ربى وقومى على أن أحرر مصر جميعا من نير الظلم والاستبداد ، وأن أعيد لها حريتها ومجدها ؛ فاذا أراد الذى بعثكم السلام حقا ، فليترك مصر لأهلها وليرجع بقومه الى صحارى الشمال .

فسأله الرسول بصوت غليظ : هذه هى الكلمة الأخيرة ؟

فقال أحمس بثقة وقوة : هى ما افتتحنا به الكفاح ، وآخر ما نختتمه به .

فقام الرســـل واقفين ، وقال رئيسهم : ما دمت تريد الحـــرب فستكون حربا ضروسا بيننا وبينكم حتى يقضى الرب فيها بمشيئته .

وانحنى الرجال للملك مرة أخرى وغادروا المكان فى خطى ثقيلة .

ولبث أحمس فى بانوبوليس يومين كاملين ، ثم أرســـل الطلائع لاختراق حدود دولة أبو فيس ، فتقدمت جماعات قوية شمال المدينة ، والتحمت بقوات صغيرة للعدو فمزقت شملها ، ومهدت الســـبيل للجيش المعسكر فى بانوبوليس ، فزحف أحمس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلا من قبل فى عدده أو عدده ، واقلع اسطول أحمس ابانا الجبار بسفنه المظفرة . وفى طريق الزحف أبلغت العيون الملك أن جيش الرعاة معسكر فى جنوب أفروديتوبوليس فى جموع لا يحيط بها الحصر . ولم يكن يهم الملك عدد الرعاة ، ولكنه سأل الحاجب حور قائلا :

ــ ترى هل ما يزال لدى أبو فيس قوة من العجلات يلقانا بها ؟

فقال حور : ما من شك يا مولاى فى أن أبو فيس قد فقد العدد الأكبر من فرسانه ، ولو كان لديه قوة منهم تستطيع أن تفصل فى هذا العراك ما طلب الصلح ولا سعى الى السلام ، على أن الرعاة قد فقدوا ما هو أثمن من الفرسان والعجلات ، فقدوا الثقة والأمل ..

واستمر تقدم الجيش حتى دنا من معسكر عدوه ، ولاحت نذر المعركة فى الأفق ، وتأهبت فرقة العجلات لخوض غمار المعركة بقيادة الملك . وصاح أحمس فى القواد قائلا :

ــ سنقاتل على أرض حرم علينا وطؤها مائة عام وتيف ؛ فلنضرب ضربة هائلة تضع حدا لآلام الملايين من اخواننا المستعبدين ، ولنقدم بقلوب شديدة البأس . فقد حبانا الرب بالعدد والأمل ، وخذل عدونا بالانقراض واليأس . وانى لعلى رأسكم كما كان سيكننرع ، وكما كان كاموس .

وامر الملك طلائعه بالهجوم ؛ فانقضت كالنيسور الكاسرة ، وتحفز

للهجوم وهو يراقبها ليرى كيف يلقاها العدو ، فشاهد قوة من العجلات تقدر بمائتى عجلة ترد عليها الهجوم محاولة الاحداق بها . وكان الملك شديد الرغبة فى القضاء على عجلات العدو فهاجم على رأس فرقة العجلات وانقض على العدو من جميع الجهات . وأدرك الهكسوس أن فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا لقوات تفوقهم أضعافا ؛ فقذف أبو فيس بكتائب من الرماة وحملة الرماح لتؤيد عجلاته المحدودة . ودارت معركة شديدة ، ولكن الرعاة لم تنفعهم شجاعتهم وقضى على قوتهم الراكبة ..

وبات الجيش ليلته .. وكان أحمس لا يدرى أيلقاه أبو فيس بمشاته مستيئسا أم يفر بجيشه مؤثرا السلامة كما فعل فى هيراكونبوليس . ووضح الأمر فى الصباح حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدم لاحتلال مواقعها والقسى والرماح فى أيديها ، ورآهم حور فقال :

ــ الآن تدور الدائرة عليهم يا مولاى ، ويتعرض أبو فيس بمشاته لبأس عجلاتنا كما تعرض له مليكنا سيكننرع فى جنوب كبتوس من لدن عشرة أعوام .

فانشرح صدر الملك ، وتهيأ للهجوم بفرقة العجلات تؤيدها قوات مختارة من الرماة وفرق الأسلحة الأخرى . وانقضت العجلات على مواقع الرعاة تملأ الجو أمامها سهاما طائرة ، فاخترقت الصفوف فى مواضع كثيرة والرماة وراءها يحمون ظهورها ويطاردون من يتفرق من العدو فيقتلون ويأسرون . وقاتل الرعاة بما عرف عنهم من الشجاعة ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافة تعرضت لرياح الخريف العاتية . وسيطر المصريون على الميدان ، وخشى أحمس أن يفلت أبو فيس من يده ؛ فهاجم افروديتوبوليس كما هاجم الأسطول شطئانها ، ولكنه لم يجد أثرا للرعاة داخل أسوارها ولا عثر بعدوه اللدود . ثم وافته العيون بأن أبو فيس فارق المدينة مع قوات من جيشه بعد جثوم ليلة الأمس ، وأنه ترك من ترك من رجاله ليعوقوا زحف المصريين ، وقال حور للملك :

ــ لن تجدى المقاومة فتيلا بعد اليوم ، ولعل أبو فيس يجد الآن فى طلب هواريس ليحتمى بأسوارها المنيعة .

ولم يأسف أحمس طويلا ، وكان سروره بفتحه بلدا من بلاد مصر التى حرم دخولها على قومه مائتى عام لا يعادله سرور ، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهليها عن كل شيء ..

٢٣

وتقدم الجيش فى زحفه العظيم لا يجد مقاومة ولا أثرا للعدو ، يستقبله أهل القرى والبلدان ذاهلين من الفرح لا يصدقون أن الآلهة رفعت عنهم غضبها بعد ذل قرنين من الزمان ، وأن الذى يفتح بلدانهم ويطرد عنها عدوهم ملك منهم يبعث مجد الفراعين من جديد . ووجد أحمس أن الرعاة قد فروا عن المدن تاركين قصورهم وضياعهم ، حاملين ما وسعهم حمله من متاعهم وأموالهم ؛ وسمع فى كل مكان طرقه أن أبو فيس مجد فى الهرب بجيشه وقومه الى الشمال ، وهكذا استرد الملك فى شهر من الزمان : هبسيل ، وليكوبوليس ، وكوسى ، ثم بلغ أخيرا هرموبوليس ، وكان لدخولهم فيها وقع عظيم فى نفس أحمس وجنوده ، لأن هرموبوليس مسقط راس الأم المقدسة توتيشيرى ، وكانت ولادتها قبل عهد الاحتلال فى بيتها العتيد ، فاحتفل أحمس بتحريرها ، واشترك فى الاحتفال العظيم رجال الحاشية وقواد البر والبحر والجنود جميعا ، ثم كتب الملك الى جدته رسالة يهنئها باستقلال وطنها الأول هرموبوليس ، ويضمنها عواطفه وعواطف جنده وشعبه ، وقد أمضاها الملك والقواد والحاشية وكبار الضباط .

ثم تقدم الجيش فى زحفه المظفر ؛ فدخل تتنوى وسينوبوليس وهبنن ثم ارسنوى ، وانحدر بين الأهرام فى طريق منف العظيمة غير عابيء بمشباق السفر وطول الطريق . وكان أحمس فى اثناء ذلك يحطم

الأغلال التى يرسف فيها شعبه البائس ، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة ، حتى قال له حور يوما :

ـ ان عظمتك الحربية يا مولاى لا يضارعها شىء فى الوجود سوى مقدرتك السياسية وحنكتك الادارية ، لقد غيرت معالم البلدان فمحوت أنظمة وانشأت أنظمة ، ورسمت السبل التى ينبغى انتهاجها والسنن التى يجب اتباعها ، ووليت الحكام الوطنيين ، فدبت الحياة مرة أخرى فى شرايين الوادى ، وشـــاهد الناس أول مرة منذ عهد غابر حكاما مصريين وقضاة مصريين ، فارتفعت الرءوس المنكسة ، ولم يعد الرجل يعيا بسمرته ويعير بها . بل صارت موئله ومفخرته .. الا فليحفظك الرب آمون يا حفيد سيكننرع .

كان الملك يعمل مخلصـــا مجاهدا لا يعرف اليأس ولا التعب ، وكانت غايته التى لا يتحول عنها أن يرد الى قومه الذين اهتصرهم الذل والجوع والفقر والجهل ، العزة والشبع والرغد والعلم .

على أن قلبه لم ينج على كده وانهماكه من همومه الخاصة ، فعناه الهوى وأعيته الكبرياء ، وكان كثيرا ما يضرب الأرض بقدمه ويقول لنفسه : « لقد خدعت .. وما هى الا امرأة بلا قلب » . وكان يرجو من العمل أن يغمره بالنسيان والعزاء ولكنه وجد روحه تسرى بالرغم منه الى تلك السفينة التى يعابثها الموج فى مؤخرة أسطوله ..

٣٤

واطرد زحف الجيش ومضى يدنو من منف الخالدة ذات الذكريات المجيدة وأخذت تلوح له اسوارها البيض السامقة ؛ فظن احمس أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت . ولكن أخطأ ظنه ودخلت طلائعه المدينة فى سلام ، وعلم أن أبو فيس تقهقر بجيشه نحو الشمال الشرقى ؛ فدخل أحمس طيبة الشمال فى حفل شعبى لم يشهد له مثيلا من قبل ، واستقبله الأهلون اســتقبالا حماسـيا مهيبا ، وسجدوا له ودعوه ابن منفتاح . ومكث الملك فى منف عدة أيام زار ربوعها وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية ، وطاف بالأهرام الثلاثة ، وصلى فى معبد أبى الهول ، وقدم القرابين . فلم يكن سرور يعادل سرورهم بفتح منف الا استرداد طيبة ، وكان أحمس يعجب كيف لا يدافع الرعاة عن منف ، فقال له القائد محب :

ـــ لن يتعرضــوا مختارين لبأس عجـــلاتنا بعد ما بلوها فى هيراكونبوليس وافروديتوبوليس .

وقال الحاجب حور بثقة :

ـــ ان السفن لا تفتأ تأتى الينا محملة بالعجلات والجياد من مقاطعات الجنوب ، وليس أمام أبو فيس الا الاهتمام بأسوار هواريس .

وتشـاوروا جميعا فى الوجهة التى يولونها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم ، فقال القائد ديب :

ـــ لا شك أن العدو جلا عن الشمال كله وانحصر فى الشرق وراء أسوار هواريس ، فينبغى أن نقصد اليه بقواتنا كاملة .

على أن أحمس كان شديد الحذر ؛ فأرسل جيشا صغيرا الى الغرب عن طريق لنوبوليس ، وسير آخر شمالا فى اتجاه أتريبيس ، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقا فى طريق أون ، وانطوت

الأيام وهم يضربون فى الأرض تدفعهم الحماســة والأمل أن يضربوا الضربة الأخيرة بحماسة ، ويكللوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم . ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ثم فاكوسة ثم فربيتص وضربوا فى الطريق المؤدى الى هواريس ، وكانت أخبار أبو فيس تترامى اليهم فعلموا أن الرعاة ارتدوا من جميع الجهات الى هواريس يسوقون آلافا من البائســين . وقد أحدثت هذه الأخبار فى نفس الملك حزنا شديدا ، ورق لحال أولئك الأسرى المستذلين الذين سقطوا فى قبضة الرعاة القاسية ..

وأخيرا لاحت فى الأفق أسوار هواريس الهائلة كالجبال الصخرية ، فصاح أحمس :

ـــ هذا آخر حصن للرعاة فى مصر .

فقال له حور وهو ينظر الى الحصن بعينيه الضعيفتين .

ـــ حطم أبوابه يا مولاى يخلص لك وجه مصر الجميل ..

وأرى الهجوم ضربا من العبث وانتحارا صريحا ، ولعل العدو يتمنى أن نكر عليه ليصيد رجالنا البواســل أو يوقعهم فى خنــادقه ... فما الرأى ؟

فقال القائد ديب : الرأى يا مولاى أن نحاصر الحصن بجزء من قواتنا ، ونعتبر الحرب منتهية عند ذاك ؛ ثم تعلن استقلال الوادى وتباشر واجبك كفرعون مصر المتحدة .

ولكن حور اعترض على الفكرة قائلا : وكيف تترك أبو فيس آمنا يدرب رجاله ويجدد عجلاته ليكر علينا فيما بعد ؟

فقال القائد محب بحماسة : لقد دفعنا ثمن طيبة غاليا ، والكفاح بذل وفداء ، فلماذا لا نؤدى ثمن هواريس ونهجم كما هجمنــا على حصون طيبة ؟

فقال القائد ديب : نحن لا نضن بنفوسنا ، ولكن الهجــوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء ، تهلكة لجنودنا بلا ثمن ...

وكان الملك صامتا متفكرا ، فقال وهو يشير الى النهر الجارى تحت سور المدينة الغربى :

ــ ان هواريس حصينة لا تؤخذ ولا تجوع ، ولكنها قد تظمأ ...

فنظر الرجال الى النهر وبدت على وجوههم الدهشة ، وقال حور بذهول : كيف تظمأ هواريس يا مولاى ؟

فقال أحمس بهدوء : بأن نحول عنها مياه النيل ...

فنظر الرجال مرة أخرى الى النيل وهم لا يصدقون أنه يمكن تحويل هذا النهر العظيم من مجراه ، وتساءل حور :

ــ هل يمكن القيام بهذا العمل الجبار ؟

فقال أحمس :

ــ لا يعوزنا المهندسون ولا العمال ..

ــ وكم يقتضينا من الوقت يا مولاى ؟

ـ عاما أو عامين أو ثلاثة أعوام .. ماذا يهم الزمن ما دامت هذه هى الوسيلة الوحيدة . ينبغى أن يتحول النيل شمال فريتتس الى مجرى جديد يتجه غربا نحد مندس ، كى يختار أبو فيس بين الموت جوعا وظمأ أو الخروج لقتالنا . وسيغفر لى شعبى أنى عرضت من فى هواريس من المصريين للخطر والهلاك . كما غفر لى أنى فعلت ذلك ببعض نساء طيبة ...

٢٦

وتهيأ أحمس للعمل العظيم فاستدعى مهندسى طيبة المشهورين ، وعرض عليهم فكرته فتوفروا على دراستها باهتمام وشغف ، ثم قالوا للملك : ان فكرته ممكن تنفيذها على شرط أن يفسح لهم من الزمن ويمدهم بآلاف العمال . وعلم أحمس أن مشروعه لن يتحقق قبل مضى عامين فلم يركن الى اليأس ، ولكنه بعث بالرسل الى البلدان يحثون على التطوع فى العمل العظيم المنوط تحرير الوطن وطرد عدوه بتحقيقه . وجاء العمال جماعات من جميع الأنحاء حتى اجتمع منهم عدد يكفى للبدء فى العمل ، وافتتح الملك المشروع العظيم فأمسك فأسا وضربه فى الأرض معلنا ابتداء العمل . فتبعته السواعد المفتولة التى تكد على سجع الأناشيد والأغانى .

ولم يكن أمام الملك وجيشه سوى الانتظار الطويل ، وكان الجنود يقومون بتدريبهم اليومى تحت اشراف الضباط والقواد ، أما الملك فكان يزجى فراغه بالخروج الى الصحراء الشرقية طلبا للصيد والطراد والسباق ، وفرارا من نوازع قلبه ونزوات هواه ، وفى فترة الانتظار هذه حمل اليه رسول رسالة من الأم المقدسة توتيشيرى قالت فيها :

« مولاى ابن آمون . فرعون مصر العليا والسفلى ، حفظه الرب وأيده بالنصر والفوز . ان دابور الصغيرة اليوم جنة من جنان السعادة

والأفراح بفضل ما حمله اليها رسلك من أنباء النصر المبين الذى فتح به الرب عليك ، وان انتظارنا اليوم فى دابور غير انتظارنا بالأمس ؛ لأنه محفوف بالعزاء وأدنى الى الرجاء والأمل ، وما أسعدنا جميعا أن نعلم أن مصر حررت من الهوان والعبودية ، وأن عدوها ومذلها حبس نفسه بين جدران حصنه ، ينتظر خانعا القضاء الذى تقضى به عليه ..

وقد شاء الرب القدير أن يحبوك — أنت الذى أذللت عدوه ، وأعليت كلمته — بعطفه ورحمته ، فرزقك بغلام نورا لعينيك ووليا لعهدك ، دعوته أمنحتب تبركا بالرب المعبود ، وقد تلقيته بيدى كما تلقيت أباه وجده وجد أبيه من قبل ، وقلبى يحدثنى بأنه سيكون ولى عهد مملكة عظيمة متعددة الأجناس واللغات والأديان ، يرعاها أبوه الحبيب .. » .

وخفق قلب أحمس خفقان الأبوة ودرت أضلعه الحنان ، وفرح فرحا عظيما أنساه بعض ما يعانى من آلام الهوى المكبوت ، وآذن رجاله وجيشه بمولد ولى عهده أمنحتب فكان يوما مشهودا .

٢٧

ومضت الأيام بطيئة ثقيلة ولكنها حافلة بجـلائل الأعمال التى اشتركت فى انجازها أكبر العقول وأشد السواعد وأعلى الهمم ؛ وكانوا جميعا لا يبالون مشقة العمل ولا انقضاء الزمن ما دام يدنيهم الى أملهم الأسمى وهدفهم الأعلى ، ولكن حدث ذات يوم وكان مضى على الحصار عدة أشهر أن رأى الحراس عجلة قادمة ناحية الحصن وعلى مقدمها يخفق علم أبيض ، فاستقبلها بعض الحراس ووجدوا بها ثلاثة رجال من الحجاب ؛ فسألوهم عن وجهتهم ؟ فقال كبيرهم : انهم رسل الملك أبو فيس الى الملك أحمس . وطير الحراس النبأ الى الملك ؛ فعقد الملك مجلسا من حاشيته وقواده فى سرادقه ، وأمر بادخال الرسل اليه . وجىء بالرجال يسيرون فى تواضع وانكسار وقد ذهبت عنهم الخيلاء والكبر وبدوا كأنهم من غير قوم أبو فيس ، وانحنوا بين يدى الملك وحياه كبيرهم قائلا :

ــ حياك الرب أيها الملك .

فرد عليه أحمس قائلا :

ــ وحياكم يا رسل أبو فيس ... ماذا يريد ملككم ؟

فقال الرسول :

ــ أيها الملك ، ان رجل السيف مغامر ينشد النصر ولكن قد يدركه الموت . ونحن رجال حرب وقد مكنتنا الحرب من وطنكم فحكمناه قرنين أو يزيد فيهما السادة المعبودين ، ثم قضى علينا بالهزيمة فغلبنا على أمرنا وأجبرنا على الاعتصام بقلعتنا ، ونحن أيها الملك رجال أشـداء نقدر على تحمل الهزيمة كما قدرنا على جنى ثمار النصر ..

فقال أحمس غاضبا :

ــ أرى أنكم أدركتم ما يعنيه هذا المجرى الجديد الذى يحفره قومى فجئتم تستعطفون .

فهز الرجل رأسه الضخم وقال :

ــ كلا أيها الملك ، نحن لا نستعطف أحدا ولكنا نقر بالهزيمة ، وقد ارسلنى مولاى لأعرض عليك أمرين تختار منهما ما تشاء : فاما الحرب الى النهاية ، وفى هذا الحال لن ننتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعا وعطشا ، ولكنا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفا ، ثم نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ونحمل على جيشك فى ثلاثمائة ألف مقاتل ما منهم الا كاره للحياة متعطش للانتقام .

وسكت الرجل ريثما يجمع أنفاسه ثم استدرك قائلا :

ــ واما ان تردوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا وتؤمنونا على ارواحنا وأموالنا ومتاعنا ، فنرد لكم رجالكم ونخلى هواريس ، ونولى وجوهنا شطر الصحراء التى جئنا منها ، تاركين لكم بلادكم كما تشاءون ؛ وبذلك ينتهى الصراع الذى استمر قرنين من الزمان .

وسكت الرجل ، فعلم الملك أنه ينتظر جوابه ، ولم يكن الجواب حاضرا ولا مما تسعف فيه البداهة ، فقال للرسول :

ــ هلا انتظرت حتى نقطع برأى ؟ ..

فقال الرسول :

ــ كما تشاء أيها الملك ، فقد أمهلنى مولاى نهار اليوم .

٢٨

واجتمع الملك برجاله فى مقصورة السفينة الفرعونية وقال لهم :
— أشيروا على برأيكم ...

وكانوا جميعا على رأى بغير تشاور ولا اتفاق ، فقال حور :
— مولاى ، لقد انتصرت على الرعاة فى مواقع كثيرة وأقروا لك بالنصر ولأنفسهم بالهزيمة ، فمحوت بذلك آثار الهزائم التى ابتلينا بها فى ماضينا الأسيف ، وقتلت منهم خلقا كثيرين فانتقمت لقتلى قومك البائسين . فلا تثريب علينا الآن أن نشترى حياة ثلاثين ألفا من رجالنا ، ونوفر على أنفسنا بذلا للنفوس لا يدعو واجب اليه ، ما دام عدونا سيجلو عن بلادنا مغلوبا على أمره ، وسيحرر وطننا الى الأبد .

وقلب الملك عينيه فى وجوه قومه فوجد منهم حماسة اجماعية لقبول الفكرة . وقال القائد ديب : لقد أدى كل جندى من جنودنا واجبه كاملا ، وان ارتداد أبو فيس الى الصحراء لهو أشد نكالا من ذوق الموت ...

وقال القائد محب : ان هدفنا الأسمى تحرير الوطن من حكم الرعاة واجلاؤهم عن ربوعه ؛ وقد يسر لنا الرب ذلك فلا يجوز أن نطيل عهد الذل باختيارنا .

وقال أحمس ابانا : اننا نشترى حياة ثلاثين ألفا من الأسرى بالأميرة الأسيرة وشرذمة من الرعاة .

واستمع الملك من رجاله باهتمام شديد وقال : نعم الرأى ما ترون ، ولكنى أرى أن ينتظر رسول أبو فيس فترة أخرى حتى لا يظن اسراعنا الى موافقته على الرأى السلمى لضعف أو ملل الكفاح .

وغادر الرجال السفينة وخلا الملك الى نفسه ، وكان على توافر دواعى الابتهاج له كئيبا ضيق الصدر . لقد كلل كفاحه بالفوز المبين

وجئا له عدوه الجبار ، ومن الغد يحمل أبو فيس متاعه ويفر الى الصحراء التى جاء منها قومه خاضعا لارادة القضاء الذى لا يرد . فما باله لا يفرح ولا يبتهج ؟ أو ما بال فرحه ليس صافيا وابتهاجه ليس كاملا ؟ .. لقد حمت الساعة الخطيرة ، ساعة الوداع الى الأبد . كان قبل تلك الساعة الخطيرة يائسا حقا ، ولكنها كانت هناك فى السفينة الصغيرة . فماذا يفعل غدا اذا رجع الى قصر طيبة وحملت هى الى بطن الصحراء المجهولة ؟ أيتركها تذهب دون أن يتزود منها بنظرة وداع ؟ .. وأجاب قلبه أن لا . وحطم أغلال التجلد والكبرياء ، وقام واقفا وفارق المقصورة ، وأخذ زورقا الى سفينة الأميرة الأسيرة وهو يقول لنفسه : « مهما يكن من استقبالها فسأجد ما أقوله » . وصعد الى السفينة ومضى الى المخدع فحياه الحراس وفتحوا له . واجتاز الباب خافق الفؤاد ، والقى نظرة على المخدع الصغير البسيط فرأى الأسيرة جالسة فى الصدر على ديوان ، والظاهر أنها لم تكن تتوقع عودته فبدت على محياها الجميل الدهشة والانكار . وتفحصها أحمس بنظرة عميقة فوجدها جميلة كعهده بها ، ورأى ملامحها كيوم حفرت فى قلبه على ظهر السفينة الفرعونية ، فعض شفته وقال لها :

— انعمى صباحا أيتها الأميرة .

فرفعت اليه عينين لم تذهب منهما الدهشة وكأنها لا تدرى بماذا تجيب . ولم يطل انتظار الملك فقال بصوت هادىء وبلهجة لا تدل على شىء :

— أنت منذ اليوم طليقة أيتها الأميرة .

فلاح فى وجهها أنها لا تفهم شيئا ، فعاد يقول : الا تسمعين ما أقول ؟ أنت منذ هذه الساعة طليقة حرة . انتهى أسرك أيتها الأميرة وأصبحت الحرية حقا لك .

فازدادت دهشتها ولاح الرجاء فى عينيها . فقالت بلهفة :

— أحق ما تقول ؟ .. أحق ما تقول ؟

— ان ما أقول حق واقع .

فاضاء وجهها وتورد خداها ، ثم ترددت هنيهة وتساءلت :

ـــ ولكن كيف كان ذلك ؟

ـــ آه انى أقرأ فى عينيك آمالك الطموح ، ألست تتمنين أن يكون انتصار أبيك هو الذى رد اليك حريتك ؟ .. انى أقرأ هــذا ، ولكنها هزيمته وأسفاه التى أنهت عبوديتك .

فعقلت لسانها ولم تنبس بكلمة . فأخبرها باقتضاب بما عرض عليه رسول أبيها وما تم الاتفاق عليه ، ثم قال وعما قليل تحملين الى أبيك وترحلين معه الى حيث يرحل ، فمبارك عليك هذا اليوم .

فاكتنفت وجهها ظلال الحزن وجمدت أساريرها وغضت طرفها ، فسألها احمس : أتجدين حزنك للهزيمة اكبر من فرحك لحريتك ؟

فقالت : يجدر بك الا تشمت بى ، فسنغادر بلادكم كراما كما عشنا فيها كراما .

فقال أحمس بجزع ظاهر : لست اشمت بك ايتها الأميرة ، فقــد ذقنا مرارة الهزيمة من قبل وعلمتنا الحروب الطويلة أن نشهد لكم بالشجاعة والبسالة .

فقالت بارتياح : شكرا لك أيها الملك ...

وسمعها لأول مرة تتكلم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء ، فتأثر وقال لها وهو يبتسم ابتســـامة حزينة : أراك تدعيننى ملكا أيتها الأميرة ؟

فقالت وهى تغض بصرها : لأنك ملك هذا الوادى دون شريك ، اما أنا فلن أدعى أميرة بعد اليوم .

فازداد تأثر الملك ولم يكن يتوقع أن تلين شكيمتها على هذا النحو .. ظن أنها تزداد بالهزيمة صلفا ، فقال بحزن :

ـــ أيتها الأميرة ، ان ذكريات الدنيا سجل اللذة والألم ، وقد بلوتم الحياة حلوها ومرها ولا يزال أمامكم غد .

فقالت بطمأنينة عجيبة : نعم أمامنا غد وراء سراب الصـــحراء المجهولة ، وسنلقى حظنا ببسالة ...

ساد الصمت ، والتقت عيناهما ، فقرأ فى عينيها الصفاء والرقة ؛ فذكر صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته من الموت وسقته رحيق المودة والحنان ، وكأنه يراها لأول مرة بعد ذاك العهد الطويل ، فزلزل فؤاده وقال بوجد وجزع : عما قليل يفرق بيننا البين ولن تبالى ذلك ، ولكنى سأذكر دائما أنك كنت معى فظة غليظة ...

فلاح فى عينيها الحزن وأفتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقالت :
— أيها الملك انك لا تعرف عنا الا القليل .. نحن قوم الموت أروح لنفوسهم من الهوان .
— لم أرد بك الهوان قط .. ولكن غرنى الأمل ادلالا بمنزلة كنت أظنها لى عندك .
فقالت بصوت خافت : أليس من الهوان أن أفتح ذراعى لآسرى وعدو أبى ؟ ..
فقال بمرارة : ان الحب لا يعرف هذا المنطق ...

فلاذت بالصمت ، وكأنها أمنت على قوله فتمتمت بصوت خافت لم يسمعه : « لا ألومن الا نفسى » . ورنت بعينيها رنوا تائها ، وبحركة فجائية مدت يدها الى وسادة فراشها وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمردى ووضعته حول عنقها بهدوء واستسلام . وتتبعها بعينين لا تصدقان ، ثم ارتمى الى جانبها غير متمالك ، وأحاط عنقها بذراعه وضمها الى صدره بجنون وعنف ، ولم تقاومه البتة ، ولكنها قالت بحزن : حذار .. لقد فات الأوان .

فاشتد ضغط ذراعيه حولها وقال بصوت متهدج : أمنريدس .. كيف هان عليك أن تقولى هذا ؟ .. بل كيف لا أكتشف سعادتى الا حين وشك زوالها ؟ .. كلا لن أدعك تذهبين .
فرنت اليه بعطف واشفاق وقالت له :
— وماذا أنت فاعل ؟
— سأبقيك الى جانبى ..

ـــ ألا تدرى بما يقتضيه بقائى الى جانبك ؟ .. هل تجود من أجلى بثلاثين ألف أسير من قومك وبأضعافهم من جنودك ؟

فعبس وجهه وأظلمت عيناه وتمتم قائلا وكأنه يحادث نفسه : لقد استشهد أبى وجدى فى سبيل قومى ووهبتهم حياتى ، فهل يضنون على قلبى بالسعادة ؟

فهزت رأسها أسفا وقالت برقة : أصغ الى يا اسفينيس ، ودعنى أدعك بهذا الاسم العزيز لأنه أول اسم أحبه فى دنياى ، ما من الفراق بد .. سنفترق .. سنفترق .. فأنت لا ترضى بالجود بثلاثين ألف أسير من قومك الذين تحبهم ، ولا أنا أرضى بتقتيل أبى وقومى . فليحتمل كل منا نصيبه من الألم .

فنظر اليها بذهول وكأنه يأبى أن يكون كل نصيبه من الحب أن يرضى بالفراق وتحمل الألم ، وقال لها برجاء : أمنريدس ، لا تتعجلى اليأس وأشفقى من ذكر الفراق . فان جريه على لسانك فى يسر يبعث الجنون فى دمى .. أمنريدس .. دعينى أطرق جميع الأبواب حتى باب أبيك ، فماذا يكون لو طلبت اليه يدك ؟ .

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت وهى تمس يده برفق :
ـــ وا أسفاه يا اسفينيس أنت لا تعى ما تقول ، هل تظن أبى يقبل أن يزوج ابنته من الملك المظفر الذى قهره وقضى عليه بالنفى من البلاد التى ولد فيها وتربع على عرشها ؟ .. أنا أعرف بأبى منك فليس ثمة فائدة ترجى ، وما من وسيلة سوى الصبر ...

وأصغى اليها ذاهلا وكان يتساءل : « أحق أن التى تتكلم بهذا الصوت الخافت المنكسر الحزين هى الأميرة أمنريدس التى لم تكن الدنيا تسعها جنونا واستهتارا وكبرا ؟ » . وبدا لعينيه كل شىء غريبا منكرا ، فقال بغضب : « ان أصغر جندى من جنوده لا يهمل قلبه ولا يسمح لانسان بأن يفرق بينه وبين من يحب .. » .

ـــ أنت ملك يا مولاى ، والملوك أعظم الناس متعة وأثقلهم واجبا ،

كالشجرة الباسقة أوفى من الحشائش نصيبا من شعاع الشمس ونسائم الهواء ، وأكثر تعرضا لثورة الريح واقتلاع الزوابع .

فأن أحمس قائلا :

— آه ما أشقانى .. لقد أحببتك منذ أول لقاء فى سفينتى ..

فخفضت عينيها وقالت ببساطة وصدق :

— وطرق الحب قلبى فى ذلك اليوم عينه ، ولكنى لم أكتشفه الا فيما بعد . وتيقظت عواطفى ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته فدلنى اشفاقى على دائى ، وبت ليلتى حائرة مضطربة لا أدرى ماذا أصنع بهذا المولود الجديد .. حتى غمرنى السحر بعد ذلك بأيام ففقدت وعيى .

— فى المقصورة ؟ . اليس كذلك ؟

— نعم .

— أواه .. كيف تكون حياتى بدونك .

— تكون كحياتى بدونك يا اسفينيس .

فضمها الى صدره والصق خده بخدها كأنه يخال أن التصاقهما ييئس منهما شبح الفراق الماثل أمامهما . وكان يكبر عليه أن يكتشف حبه ويودعه الوداع الأخير فى ساعة واحدة . وطرق كل سبيل من الفكر يبغى حلا فاعترضه اليأس والقهر ، وكانت غاية سعيه أن يشد حولها ذراعيه . واحس كل منهما أنه آن أن ينفصلا ، لكن لم يحرك أحدهما ساكنا فلبثا كشىء واحد .

٢٩

وغادر أحمس سفينة الأسيرة لا تكاد تحمله قدماه ، وكان ينظر الى شيء فى كفه ويتمتم قائلا : « أهذا كل ما تبقى لى من حبى ؟ . » . وكانت سلسلة العقد الزمردى هى التى تبقت له من حبه ، اهدتها اليه الأميرة تذكارا واحتفظت بالقلب لنفسها . وركب الملك عجلته ومضى الى معسكر جيشه ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم الحاجب حور وكان يختلس من مولاه نظرات قلقة مشفقة ، وقصد الملك الى السرادق ودعا برسول أبو فيس وقال له : أيها الرسول لقد درسنا بامعان ما عرضته علينا . ولما كانت غايتى أن أحرر وطنى من سيطرتكم وهو ما رضيتم به ، فقد اخترت الحل السلمى حقنا للدماء . وسنتبادل الأسرى فى الحال ، ولكننى لن آمر بالكف عن العمل حتى يغادر آخر رجل منكم هواريس ، بذلك تطوى هذه الصفحة السوداء فى تاريخ بلادى .

فأحنى الرسول راسه وقال : نعم الرأى الذى رأيت أيها الملك ، فان الحرب اذا لم تكن لغاية تستوجبها صارت تقتيلا وتذبيحا .

فقال أحمس : الآن سأترككم لتبحثوا معا فى تفاصيل التبادل والاجلاء .

وقام الملك فقام الجميع وقوفا وانحنوا له اجلالا ، فحياهم بيده وغادر المكان .

وفى مساء ذلك اليوم تم تبادل الأسرى ؛ ففتح باب من أبواب هواريس وخرجت منه جماعات الأسرى نساء ورجالا ، وكانوا يهتفون لمليكهم مسرورين ويلوحون بأيديهم ، وذهب الأسرى الرعاة وعلى رأسهم الأميرة أمنريدس الى المدينة فى سكون ووجوم .

وفى غداة اليوم الثانى بكر أحمس وحاشيته الى هضبة قريبة تشرف على أبواب هواريس الشرقية ليشهدوا خروج الرعاة من آخر مدينة مصرية ، وكانوا لا يخفون جذلهم ، وتتألق وجوههم بنور الفرح والابتهاج ، وكان القائد محب يقول :

ـ عما قليل يأتى حجاب أبو فيس بمفاتيح هواريس ليسلموها الى جلالة الملك ، كما سلمت مفاتيح طيبة الى أبو فيس قبل أحد عشر عاما .

وجاء الحجاب كما قال القائد محب ، وقدموا الى أحمس صندوقا من خشب الأبنوس رصت به مفاتيح هواريس ، فتسلمه الملك وأعطاه حاجبه الأكبر ، ورد تحية الرجال الذين عادوا من حيث أتوا فى سكون وصمت .

ثم فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها فدوى صريرها فى جنبات الوادى ، فتطلع أصحاب الهضبة صامتين . وبرزت أولى جماعات الخارجين ، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح قدمها أبو فيس لاستطلاع الطريق المجهول ، وتبعتها جماعات النساء والأطفال يمتطين متون البغال والحمير وبعضهن يحملن فى الهوادج ، وقد استغرق خروجهن ساعات طويلة . ثم بدا ركب عظيم تحيط به الفرسان من رجال الحرس تتبعه عربات كثيرة تجرها الثيران ، فعلم الناظرون أنه أبو فيس وآل بيته ، وقد خفق فؤاد أحمس لمرآه وقاوم دمعة حرى أحس انتزاعها من حناياه ، وتساءل : اترى فى أى مكان هى ؟ وهل

تجد فى البحث عنه كما يجد فى البحث عنها ؟ .. وهل تذكره بمثل ما يذكرها به ؟ .. وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعه ؟ وتابع الركب بناظريه لا يلتفت الى الجنود المتدفقة على أثره من جميع الأبواب ، وما زال يتبعهم ببصره وفؤاده ويحوم حولهم بروحه حتى غيبهم الأفق وابتلعهم الغيب ...

واستيقظ الملك على صوت حور وهو يقول :

ــ فى هذه الساعة الخالدة تسعد روح مليكنا سيكننرع وبطلنا المجيد كاموس ، ويكلل كفاح طيبة التى لا تعرف اليأس بالفوز المبين .

ودخل جيش الخلاص هواريس الجبارة واحتل أسوارها المنيعة ، وبات فيها حتى فجر الغداة ، وزحف أحمس بفرقة العجـلات شرقا تتقدمه طلائعه فدخل تنيس ودفنى ، وهناك جاءته العيون وهنأته بجلاء آخر رجل من الرعاة عن أرض مصر . فعاد الملك الى هواريس ، وأمر أن يصلى الجيش صلاة جامعة للرب آمون ؛ وانتظمت الفرق المختلفة وعلى رأس كل فرقة ضباطها وقائدها ، وعلى رأس الجميع الملك وحاشيته ، ثم جثوا جميعا فى خشوع وصلوا للرب صلاة حارة . وختم أحمس صلاته بأن دعا ربه قائلا :

ــ أحمدك واشكر لك أيها الرب المعبود ، فقد وصلت جناحى وثبت قلبى ، وأكرمتنى ببلوغ الغاية التى استشهد فى سبيلها جدى وأبى ، فاللهم الهمنى الصواب وأيدنى بالعزم والأمل لأضمد جراح شعبى ، واجعله خير عابد لخير معبود ..

ثم دعا أحمس رجاله الى الاجتماع به فلبوا سراعا ، فقال لهم :

ــ اليوم تنتهى الحرب فيجب أن نغمد سيوفنا ، ولكن الكفاح لم ينته أبدا . وصدقونى أن السلام أكبر من الحرب حاجة الى يقظـة النفوس وتوثب العزائم ، فأعيرونى قلوبكم لنبعث مصر بعثا جديدا .

ونظر الملك فى وجوه رجاله قليلا ثم استطرد : وقد رأيت أن ابدأ كفاح السلام باختيار أعوانى المخلصين ؛ لذلك أعهد الى حور بالوزارة .

وقام حور الى مولاه وجثا أمامه وقبل يده ، فقال الملك : وارى

ان سنب خير خلف لحور فى قصرى . أما ديب فهو رئيس الحرس الفرعونى .

ونظر الملك الى محب وقال :

ــ وانت يا محب قائد جيشى العام .

ثم التفت الى أحمس ابانا وقال :

ــ واما أنت فقائد الأسطول ، وسترد اليك ضياع أبيك القائد الباسل ببيى .

ووجه الملك كلامه الى الجميع قائلا :

ــ والآن عودوا الى طيبة عاصمة ملكنا ليؤدى كل واجبه .

وتساءل حور قلقا :

ــ الا يعود فرعون على رأس جيشه الى طيبة ؟

فقال أحمس وهو يهم قائما :

ــ بل ستقلع بى سفينتى الى دابور لأزف بشرى النصر الى أسرتى ثم أعود معها الى طيبة ، فندخلها جميعا كما تركناها جميعا ...

وأقلعت السفينة الفرعونية فى حراسة ثلاث سفن حربية ، وكان أحمس ملازما المقصورة ينظر الى الأفق البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين فى الحزن والأسى .. واستغرقت الرحلة أياما ثم لاحت دابور الصغيرة بأكواخها المتناثرة ، ورسا الأسطول على شاطئها عند الأصيل ، وغادره الملك وحرسه فى ثيابهم الجميلة فجذبوا الأنظار وهرع اليهم جمع من النوبيين ، وساروا بين أيديهم الى بيت الحاكم رؤوم . وذاع فى المدينة أن رسولا فرعونيا كبيرا جاء يزور أسرة سيكننرع ، وسبق الخبر الملك الى بيت الحاكم ، فلما شارفه رأى الحاكم والأسرة الفرعونية فى فناء القصر ينتظرون . وطلع الملك عليهم ، فعقدت الدهشة والفرح ألسنتهم ، وجثا رؤوم على ركبتيه ، وصاح الجميع صيحة الفرح والسرور وهرعوا اليه . وكانت أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتارى ؛ فقبل خديها وجبينها . ونظر فرأى أمه الملكة ستكيموس مادة ذراعها ؛ فضمها الى صدره وأسلم لها خديه تقبلهما بحنان وكانت جدته الملكة أحوتبى تنتظر دورها ؛ فدنا منها وقبل يديها وجبينها . وأخيرا رأى توتيشيرى .. أخيرة القوم وأعزهم ، توتيشيرى التى كللها المشيب وأذبل خديها الكبر ، فخفق قلبه وأحاطها بذراعيه وهو يقول :

— أماه وأم الجميع ...

فلثمته بشفتيها النحيلتين وقالت وهى ترفع اليه عينيها :

— دعنى أنظر الى صورة سيكننرع الحية .

فقال أحمس :

— اخترت يا أماه أن أكون الرسول الذى يبشرك بالفوز العظيم ، فاعلمى يا أماه أن جيشنا الباسل نال النصر المبين وهزم أبو فيس وقومه وطردهم الى الصحراء التى جاءوا منها وحررمصر جميعا من عبوديتهم ، فحق وعد آمون وطابت نفس سيكننرع وكاموس ...

فتهلل وجه توتيشيرى وومضت عيناها الكليلتان وقالت بفرح :

ــ اليوم يفك أسرنا ونعود الى طيبة فأجدها كعهدى بها مدينة المجد والسيادة ، وأجد حفيدى على عرش سيكننرع يصل ما انقطع من حياة أمنمحيت المجيدة .

وجاءت وصيفة الملكة السيدة راى تحمل ولى العهد بين ذراعيها ، فانحنت للملك وقالت : مولاى قبـل طفلك الصـغير وولى عهـدك أمنحتب ..

فلانت نظرة عينيه ودرت حناياه حنانا دفاقا ، وأخذ الصغير بين ذراعيه وأدناه من فمه حتى التصقت به شفتاه المشوقتان ، وابتسم أمنحتب الى أبيه وعابثه بيديه الصغيرتين ...

ثم دخلت الأسرة الفرعونية الدار تشملها السعادة والطمأنينة ، فخلصوا الى أنفسهم يتسامرون ويتذاكرون أيامهم ..

٣٢

وحمل الجنود متاع الأسرة الى السفينة الفرعونية ، ثم انتقل الملك وآله اليها وخرج لوداعهم الحاكم رؤوم وأعضاء حكومته وأهالى دابور جميعا . وقبل أن ترفع السفينة مراسيها ، دعا أحمس رؤوم وقال له على مسمع من رجاله :

« أيها الحاكم الأمين ؛ أوصيك خيرا بالنوبة وأهل النوبة ، فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا ، ووطننا اذ لا وطن لنا ، ومأوانا حين عز النصير ومات الصديق ، ومدخر عتادنا وجنودنا لما دعا الداعى الى الكفاح . فلا تنس صنيعها ، ولتكن منذ اليوم مصر الجنوب لا نحرمها شيئا نتمناه لنفسنا ونذود عنها ما نكره لها .. » .

ثم أقلعت السفينة وأقلعت وراءها سفن الحراسة تشق طريقها نحو الشمال تحمل قوما تهفو نفوسهم الى مصر وأهلها .. وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة قصيرة ، فاستقبلت استقبالا رائعا ، وخرج اليها رجال الجنوب فى سفينة الحاكم شاو ، وأحاطت بها زوراق الأهالى يهتفون ويغنون . وصعد الى سطحها شاو وكهنة بيجة وبلاق وسيين وعمد القرى وشيوخ البلاد فسجدوا للملك واستمعوا الى نصائحه . ثم انحدرت السفينة نحو الشمال يستقبلها الأهلون على الشطئان وتطوف بها القوارب ويصعد الى سطحها عند كل بلدة الحكام والقضاة والعمد والأعيان . وما زالت السفينة تجد السير حتى انقشعت ظلمة الفجر ذات صباح فى الأفق البعيد عن أسوار طيبة العالية وأبوابها الضخمة وجلالها الخالد ، وهرعت الأسرة من المخادع الى مقدم السفينة عالقة أبصارهم بالأفق ، ويتجلى فى نظراتهم الحنين والوجد ، وتفيض أعينهم بدمع الشكران ، وتغمغم شفاههم فى صوت خافت : « طيبة .. طيبة » . وقالت الملكة أحوتبى بصوت متهدج :

« رباه .. ما كنت أتصـور أن يقع بصرى مرة أخرى على هـذه الأسوار .. » .

وجعلت السـفينة تقترب من جنوب طيبة فى ريح مؤاتية حتى اسـتطاعوا أن يروا جموعا من الجنود وكبار القوم على الشـاطىء ينتظرون ، فعلم أحمس أن طيبة تزجى أولى تحياتها لمخلصها ، فعاد الى المقصورة تتبعه أسرته وجلس على العرش وجلسن حوله . وأدى الجنود التحية العسكرية للسفينة الفرعونية ، وصعد الى سطحها رجال طيبة ؛ وعلى رأسـهم رئيس الوزراء حور ، والقائدان محب وأحمس ابانا ، ورئيس الحرس الفرعونى ديب ، وكبير الحجاب سنب ، وحاكم طيبة توتى آمون . ثم كاهن طاعن فى السن محترق الشعر شيبا يتوكأ على صولجانه ويسير بخطى وئيدة منحنى القامة . وسجد الرجال جميعا لفرعون وقال له حور : مولاى محرر مصر ومخلص طيبة وقاهر الرعاة ، فرعون مصر وسيد الجنوب والشمال ، ان طيبة جميعا فى الأسواق تنتظر على شوق ولهفة مقدم أحمس بن كاموس ابن سيكننرع وأسرته المجيدة لتقرئهم جميعا أحر ما جمعت عليه صدرها من التحية والسلام ..

فابتسم أحمس وقال : حياكم الرب أيها الرجال المخلصون ، وحيا طيبة المجيدة مبدئى وغايتى ..

وأومأ حور الى الكاهن الجليل وقال : مولاى .. ائذن لى أن أقدم الى جلالتك نوفر آمون الكاهن الأكبر لمعبد آمون .

فنظر اليه أحمس باهتمام ، ومد له يده مبتسما وقال برقة :

— يسرنى أن أراك أيها الكاهن الأكبر ..

فلثم الكاهن يده وقال : مولاى فرعون مصر وابن آمون ، مجدد حياة مصر ومحيى سـير الأعظمين من ملوكها . لقد كنت يا مولاى آليت على نفسى الا أبرح حجرتى ما دام فى مصر رجل من الرعاة الأشائم الذين أذلوا طيبة وقتلوا سيدها المجيد ، وأهملت نفسى فغزر شعر رأسى وجسدى ، وقنعت من الدنيا بلقمات أتبلغ بها وجرعات

من الماء القراح كى اشارك قومنا فيما ابتلوا به من القذارة والجوع ، وما زلت حتى قيض الله لمصر ابنه احمس ، فحمل على عدونا حملة صادقة ومزق شمله وطرده من بلادنا ، فعفوت عن نفسى وأطلقت سراحى ، لأستقبل الملك المجيد وادعو له ..

فابتسم الملك اليه ، واستأذن الكاهن فى السلام على الأسرة فأذن له ، فقصد الى توتيشيرى وسلم عليها ، وعدل الى الملكة أحوتبى وكان من المقربين اليها على عهد سيكننرع ، ثم قبل ستكيموس ونيفرتارى ، ثم قال حور لمولاه :

— مولاى : ان طيبة تنتظر مولاها ، والجيش مصطف فى الطرق ، ولكن لكاهن آمون الأكبر رجاء .

فسأله أحمس قائلا : وما رجاء كاهننا الأكبر ؟

فقال الكاهن باحترام : أن يتفضل مولاى بزيارة معبد آمون قبل أن يذهب الى القصر الفرعونى .

فقال أحمس مبتسما : يا له من رجاء فى تحقيقه الغنم والسعادة .

٣٣

وغادر أحمس السفينة تتبعه الملكات ورجال مملكته ، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول ، فرد الملك تحيتهم . وصعد الى هودج فرعونى جميل ، واعتلت الملكات هوادجهن ، ورفعت الهوادج وتقدمتها فرقة من الحرس الملكى ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكى ، وتقدم الموكب الملكى نحو باب طيبة الجنوبى الوسيط ، وكان مزينا بالأعلام والأزهار ، يصطف على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب ..

اجتازت الهوادج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشـــاكية ، وقد نفخ فى الأبواق حرس الأسوار ، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين . ونظر أحمس فيما حوله فرأى منظرا عجبا يذهل النفوس الرصينة ، رأى أهل مصر جميعا فى نظرة واحدة ، رأى أجسادا تحجب السبل والجدران والمنـــازل ، بل رأى أرواحا خالصة من العبادة والحب والحماسة . وضج الجو بالهتاف المتصاعد من القلوب ، وفتن الناس لرؤية الأم المقدسة فى مهابة الشـــيخوخة وجلال الكبر ، وحفيدها الباسل فى عنفوان القوة والشـــباب . وشق الركب طريقه كأنما يخوض بحرا لجيا عبابا ، تتعلقه الأنفس والأبصار ، فقطع السبيل الى معبد آمون فى ساعات ..

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون ، ودعوا له طويلا وساروا بين يديه الى بهو الأعمدة ، حيث قدمت القرابين على المذبح . وأنشد الكهنة نشيد الرب بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردد فى القلوب فترة طويلة ، ثم قال الكاهن الأكبر للملك : مولاى ائذن لى فى الذهاب الى قدس الأقداس لاحضار أشياء ثمينة تهم جلالتكم .

فأذن له الملك ، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمنا

يسيرا ، ثم ظهر الكاهن الاكبر مرة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتا وعرشا وصندوقا من الذهب ، فوضعوها جميعا أمام الأسرة الفرعونية باحترام واجلال ، وتقدم نوفر آمون حتى وقف أمام أحمس ، وقال بصوت ساحر نفاذ :

— مولاى ، ان ما أعرض على أنظاركم لهى أنفس مخلفات المملكة المقدسة ، عهد بها الى لاثنى عشر عاما خلت القائد الباسل الخالد الذكر بيبى لتكون فى مأمن من أن تصل اليها يد العدو الجشع . اما التابوت فهو تابوت الملك الشهيد سيكننرع يحفظ جثته المحنطة التى اشتملت أكفانها على جروح بالغة سجل كل جرح منها صفحة خالدة للبسالة والتضحية ، وأما العرش فهو عرشه المجيد الذى أدى حقه وأعلن عليه كلمة طيبة الأبية التى آثرت الابتلاء بأهوال الكفاح على السكون الى ذل السلامة . وأما هذا الصندوق الذهبى فيحتوى على تاج مصر المزدوج ، تاج تيمايوس آخر ملوكنا الذين حكموا مصر المتحدة ، وكنت أهديته لسيكننرع وهو خارج لقتال أبو فيس ، فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم ، ودافع عنه الدفاع الذى يعرفه جميع أهل الوادى .. هذه يا مولاى ودائع بيبى المقدسة ، أحمد الرب أن مد فى عمرى حتى رددتها الى أصحابها ، داموا للمجد ودام لهم ..

وتحولت أبصار الجميع الى التابوت الفرعونى ، ثم سجدوا جميعا وفى مقدمتهم الأسرة الفرعونية وصلوا خاشعين ..

ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به ، وكان الصمت يشملهم جميعا ولكن خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم ، وأحست توتيشيرى لأول مرة تخاذلا وخورا ، فاستندت الى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظريها التابوت المحبوب ، وعزم حور على أن يرقأ دمع الأم المقدسة ويسكن آلام قلبها ، فقال لنوفر آمون :

— أيها الكاهن الأكبر ، احتفظ بهذا التابوت فى قدس الأقداس حتى يودع فى مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه ..

فأستأذن الكاهن مولاه وأمر رجاله برفع التابوت الى مثوى الرب المعبود ، وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزدوج ، ودنا من أحمس فى اجلال وتوج به رأسه المجعد ، ورأى القوم ما فعل الكاهن فهتفوا جميعا « يعيش فرعون مصر » ..

ودعا نوفر آمون الملك والملكات الى زيارة المثوى المقدس فساروا جميعا ، وكانت توتيشيرى ما تزال تتوكأ على ذراع أحمس ، واجتازوا العتبة المقدسة التى تفصل بين الدنيا والآخرة ، وسجدوا للرب المقدس ولثموا الستائر المسدله على تمثاله ، وصلوا صلاة الشكر والحمد أن هيأ لهم الفوز وردهم الى وطنهم ظافرين ..

وغادر الملك المعبد الى هودجه وكذلك الملكات ، وحمل العرش على عربة كبيرة ، واستأنف الموكب سيره الى القصر بين الجموع الهاتفة الداعية . المهللة المكبرة ، الملوحة بالأغصان الناثرة الزهور ، فبلغوا القصر القديم عند الأصيل ، وكان التأثر قد بلغ من نفس توتيشيرى مبلغا كبيرا فاشتد خفقان قلبها واضطربت أنفاسها ، فحملت فى هودجها الى جناحها الملكى ، ولحقت بها الملكات والملك ، وجلسوا بين يديها قلقين ، ولكنها استعادت هدوءها وعادت بقوة ارادتها وايمانها فاستوت جالسة ونظرت فى الوجوه الحبيبة بحنان وقالت بصوت ضعيف :

— معذرة يا أبنائى ، لقد خاننى قلبى لأول مرة ، ولشد ما تحمل هذا القلب ولشد ما صبر ، فدعونى أقبلكم جميعا ، ففى مثل سنى يعجل بلوغ الأمل بالنهاية ..

وجاء المســاء وخيم الليــل وطيبة لا يعرف النوم الى أجفانها سبيلا ، فلبثت ساهرة تلوح المشاعل فى طرقاتها وضواحيها ، ويجتمع الناس فى ميادينها ينشدون ويهتفون ، وتسجع ديارها بالأغانى والألحان. فى تلك الليلة لم ينم أحمس على ما به من تعب ونصــب . ونبا به الفراش فخرج الى الشرفة المطلة على حديقة القصر الفيحاء ، وجلس على أريكة وثيرة فى ضوء مصباح خافت ، وساحت روحه فى الظلام الجاثم ، وكانت أنامله تعبث بسلسلة ذهبية بحنو واشــفاق ، ينظر اليها بين الفينة والفينة كأنما يستمد منها أفكاره وأحلامه ..

ولحقت به على غير انتظار الملك الشابة نيفرتارى وكان الفرح ينفى الكرى عن عينيها ، فظنت أن زوجها فى مثل سرورها ، فجلست الى جانبه جذلة منشرحة الصدر ، وانعطف الملك اليها مبتســما فوقع بصرها على السلسلة فى كفه فتناولتها بدهشة وقالت : أهذا عقد ؟ .. ما أجمله .. ولكنه مبتور .

فقال وهو يجمع أشتات فكره :

ـ نعم .. فقد قلبه .

ـ وا أسفاه .. وأين فقد ؟

فقال : لا أدرى الا أنه ضاع على غير ارادتى ..

فنظرت اليه بمودة وسألته : أكنت تنوى أن تهديه الى ؟

فقال : انى أدخر لك ما هو أثمن منه وأجمل .

فقالت : فكيف تأسف عليه اذن ؟

فقال وهو يجهد أن يخرج صوته طبيعيا هادئا :

ـ انه يذكرنى بأيام الكفاح الأولى ، حين خرجت أطلب طيبــة متخفيا فى ثياب التجار داعيا نفسى اســفينيس ، فكان فيما أعرض

على الناس للشراء .. فيا للذكرى الجميلة .. نيفرتارى ، أود ان تدعونى اسفينيس ، فهو اسم احبه وأحب عهده وأحب من يحبه ..

وأدار الملك وجهه ليخفى ما ارتسم عليــه من التأثر والحنين ، فابتسمت الملكة بسرور ، ولاحت منها نظرة الى الأمام فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرك فى بطء ، فقالت وهى تشير بيدها « انظر الى هذا المشعل .. » .

فألقى أحمس بصره الى حيث تشير ، ثم قال :

ـــ هذا مشعل فى قارب يسبح قريبا من الحديقة ..

وكأن صاحب القارب تعمد أن يدنو من حديقة القصر ليســـمع أهله القادمين جمال صوته ، فيحييهم وحده بعد أن حيتهـــم طيبة جميعا ، فرفع عقيرته متغنيا فى سكون الليل يردد سجعه مزمار :

« كم رقدت فى غرفتى منذ سنين »
« أعانى الم داء وجيـــع »
« فعـــادنى الأهل والجيران »
« وزارنى العرافون والأطباء »
« فأعيا الداء أطبـــائى وجيرانى »
« حتى جئت أنت يا حبيبى »
« فبرع ســـحرك الطب والرقى »
« لأنك انت تعـــرف سر دائى »

وكان صوته جميلا يأخذ بالسمع ، فأنصت أحمس ونيفرتارى ، وكانت الملكة ترنو الى ضوء المشعل بعطف وحنان ، وكان الملك ينظر الى ما بين قدميه بعينين شبه مغمضتين ، تنوح فى قلبه الذكريات ..

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

		الطبعة الأولى		
مصر القديمة	(مترجم عن الانجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	(مجموعة أقاصيص)	١٩٣٨	الطبعة الثامنة	١٩٧٣
عبث الأقدار	(قصة تاريخية)	١٩٣٩	« السابعة	١٩٧٤
رادوبيس	(قصة تاريخية)	١٩٤٣	« الثامنة	١٩٧٦
كفاح طيبة	(قصة تاريخية)	١٩٤٤	« العاشرة	١٩٧٦
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	« التاسعة	١٩٧٤
خان الخليلي		١٩٤٦	« الثامنة	١٩٧٥
زقاق المدق		١٩٤٧	« السابعة	١٩٧٢
السراب		١٩٤٨	« الثامنة	١٩٧٣
بداية ونهاية		١٧٤٩	« العاشرة	١٩٧٦
بين القصرين		١٩٥٦	« التاسعة	١٩٧٢
قصر الشوق		١٩٥٧	« الثامنة	١٩٧١
السكرية		١٩٥٧	« السابعة	١٩٧٦
اللص والكلاب		١٩٦١	« السابعة	١٩٧٦
السمان والخريف		١٩٦٢	« الخامسة	١٩٧٦
دنيا الله	(قصص قصيرة)	١٩٦٣	« الثالثة	١٩٧٣
الطريق	(رواية)	١٩٦٤	« الرابعة	١٩٧٦
بيت سيء السمعة	(قصص قصيرة)	١٩٦٥	« الرابعة	١٩٧٥
الشحاذ	(رواية)	١٩٦٥	« الخامسة	١٩٧٦
ثرثرة فوق النيل	(رواية)	١٩٦٦	« الثالثة	١٩٧٣

ميرامار	(رواية)	١٩٦٧	«	الرابعة	١٩٧٦
خمارة القط الأسود	(قصص قصيرة)	١٩٦٩	«	الثالثة	١٩٧٤
تحت المظلة	(قصص قصيرة)	١٩٦٩	«	الثالثة	١٩٧٤
حكاية بلا بداية ولا نهاية	(قصص قصيرة)	١٩٧١	«	الثالثة	١٩٧٦
شهر العسل	(قصص قصيرة)	١٩٧١	«	الرابعة	١٩٧٦
المرايا	(رواية)	١٩٧٢	«	الثانية	١٩٧٤
الحب تحت المطر	(رواية)	١٩٧٣	«	الثانية	١٩٧٥
الجريمة	(قصص قصيرة)	١٩٧٣			
الكرنك	(رواية)	١٩٧٤	«	الثانية	١٩٧٦
حكايات حارتنا	(شخصيات ومواقف)	١٩٧٥			
قلب الليل	(رواية)	١٩٧٥			
حضرة المحترم	(رواية)	١٩٧٥			

تحت الطبع :

الحرافيش

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي الفجالة

رقم الايداع ١٩٧٦/٢٩٠٣

الترقيم الدولى ٤ — ٢٥٠ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٤٠ قرشا

دار مصر للطباعة